من كتابات
الشيخ العلامة
عبد المجيد البيانوني
جمع وإعداد
عمر بن عبد المجيد البيانوني
الجزء الثاني

حقُّ الطبعِ مباحٌ لكلِّ مَنْ أراد بشرط المحافظة على الأصل

جزى اللهُ خيراً كلَّ مَنْ أعان على نشر هذا الكتاب وتوزيعه

للتواصل مع عمر البيانوني

/http://omarbianony.wordpress.com

البريد الالكتروني:

xOMAR88x@gmail.com

بالفيس بوك:

facebook.com/OMARBIANONY

روابط لتحميل الجزء الأول:

https://cutt.us/fUa3s

https://islamsyria.com/site/show_library/607

http://www.saaid.net/book/open.php?cat=8&book=12617

مُقَدِّمَة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد؛

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب: (روائع من كتابات الشيخ العلامة عبد المجيد البيانوني) ـ نفع الله به وفتح عليه فتوح العارفين ـ وقد جعلته في سبعة أقسام:

١ـ في الإيمان والرَّقَائق.

٢ـ في الأخلاقِ والسُّلُوك.

٣ـ لَطَائِف ونَفحَات قُرآنيَّة.

٤ـ نَصَائح ذهبيَّة في الحيَاة الزَّوْجِيَّة.

٥ـ إضَاءَاتٌ تَربَوِيَّة.

٦ـ مَعَالم في المنهجِ العِلْمِيِّ وأدبِ الخلاف.

٧ـ تنوير البصائر للمسلم المعاصر.

سائلاً من الله تعالى الإخلاص والتوفيق والسداد، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

عمر بن عبد المجيد البيانوني

١٤٤٢/٣/١هـ

في الإيمان والرَّقَائق

لا عبوديّة بغير الأدب مع الحقّ.. فتأدّب مع الله؛ وارتقب عطاياه..

* * * * *

الله أكبر.. لم تكن كلمة تتلى، ولا صيحة تجلجل.. ولكنّها تختزن فلسفة حياة، تذوب فيها أوهام العلوم والثقافات، ويُولدُ بها الإنسان من جديد..

* * * * *

البُخل بالعلم أخطر وأشنع من البُخل بالمال، لأنّ البُخل بالمال قصاراه أن يقتصر على مدى من الشرّ محدود.. وأمّا البُخل بالعلم فهو يحجب عن الأمّة أقوى سلاح لها في مواجهة عدوّها، ويسمح لها أن ترتع في منابت الجهل والتخلّف، وما أدراك ما يكون من آثار ذلك وإفساده؟!!

* * * * *

عندما تختلف في الاجتهاد مع غيرك، ثمّ تراه يحقّق نجاحاً في اجتهاده، فإذا كنت تبتغي الحقّ، وتنتصر للحقّ فعليك أن تفرح لانتصار الحقّ، ولو باجتهاد من تختلف معه.. ولا يكفي ذلك، بل عليك أن تعترف أنّه كان محقّاً في اجتهاده..

* * * * *

بين الانتصار للحقّ بدعوى الغيرة على دين الله، وبين الغيبة المحرّمة خيط رفيع اسمه اتّباع الهوى، والجري وراء حظوظ النفس، وهذا ما لا تدعو إليه حاجة دنيويّة، ولا مصلحة شرعيّة.. فالحذر الحذر من هوى يلبس لبوس الحقّ..

* * * * *

بين الإسلام والإيمان والإحسان:

الإسلامُ سُلطانه على الجوارح، والإيمانُ سُلطانه على القلب، والإيمان ينبسِط من الباطنِ إلى الجوارح، والإسلام يدخل من الظاهر إلى الباطن. فالتصديقُ إذا تمكّن في القلب وغلب، استعملَ الأعضاءَ في الأعضاء الظاهرة وتمكّن منها، فصارَ الإسلامُ والإيمانُ متّحدين، وتولّدت منهما حقيقة الإحسان وهي: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنّكَ تَراهُ..».

* * * * *

بشّر بالحرمان، وسوء المآل من يصرّ على كفر النعمة، ويأبى أن يعترف للمحسن بإحسانه..

* * * * *

الأخوّة في الله..

قد منح الإسلام العلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن لباساً روحيّاً لا مثيل له في عالم الناس وعلاقاتهم، إذ جعلها أخوّة في الله تعالى، فهي روح من روح الله، تجمَع القلب إلى القلب، والروح إلى الروح، وتسمو بها، فتتلاقى الأجساد على مَا بينها من اختلاف الألوان والألسن، والأمصار والعادات، فكأنّها ذات نسب واحد، تعيش تحت سقف واحد، وتنحدر من أبوين، يجمع قلبيهما أجمل صفات الإنسان، وأروع أخلاقه..

إنّها الأخوّة في الله.. وتكفيها هذه النسبة شرفاً وسموّاً.. إنّها تجمع بين المؤمن وأخيه في هذه الدنيا، فلا تتركهما حتّى تصل بهما إلى ظلّ عرش الرحمن، يوم ظلّ إلّا ظلّه، وترفعهما على منابر النور، ليغبطهما جميع الخلائق..

ولأنّها بهذه العظمة والسموّ كانت لها شروط كريمة غالية، وصفات عالية، ولا تقبل فيها دعوى اللسان مهما أوتي من الفصاحة والبيان، ما لم يكن لها البرهان من البذل والتضحية بغير امتنان.. وقد عدّ بعض السلف الإيثار أقلّ الحقوق المادّيّة بين المتآخين..

فالأخوّة في الله حبّ صادق ووفاء، وبذل وعطاء، ونصح وولاء، وغَيرة وفداء، وحصن من الأعداء.. ومن لم تعرف أخوّة المؤمنين إلى قلبه سبيلاً، واستبدل بها الولاء للكافرين والمنافقين فليس من الله عزّ وجلّ في شيء، وإن صلّى وصام، وزعم أنّه مسلم..

فأين من هذه الأخوّة الإيمانيّة الصادقة الخالصة ما يدّعى بين الناس اليوم من صداقة، تقوم في أغلب الأحوال على المجاملة والمداهنة، والعلاقة النفعيّة الموقوتة، وليس لها من اسمها أدنى نصيب؟!

* * * * *

حلّ أكثر مشكلاتنا وخلافاتنا المتراكمة يكمن في تحقيق ثلاث مراحل: التعارف والتواصل، ثمّ التفاهم والتحاور، ثمّ المرونة والتنازل.

* * * * *

العقول أربعة:

عقل واعٍ راشد، حرّ متفاعل، ناقد متجدّد، وهو العقل المستنير بنور الوحي، لا ينفكّ عنه ولا يفارقه، نتمنّاه لكلّ إنسان، لأنّه أحسن وسيلة للانتفاع بالملكات والمواهب، والتفاهم بين الناس.

وعقل أسير الهوى، يتخبَّط في متاهاته وظلماته، هوى النفس، أو هوى الآخرين، فلا خير فيه لنفسه، ولا لغيره.. والهوى نجاسة للنفس، مغلَّظة أو مخفَّفة، أو معفوّاً عنها، لعموم البلوى بها، أو ضعف الإنسان عن التنزُّه عنها.

وعقل مغلق محدود، أسير الجمود والتبعيَّة والتقليد، مغلول الطاقات، معطَّل الملكات، لا ينتفع بعلم، ولا تفيده خبرة، ولا تؤثِّر فيه موعظة، وربَّما كتب عليه انغلاقه طفولة مُتخلِّفة مدى حياته، فلا يغرَّنَّك علمه، وانظر إلى سلوكه وعمله..

وعقل متقلِّب بين الرشد والهوى، لا يستقرُّ على حال، يثوب إلى رشده تارة، ويعصف به الهوى تارة أخرى أو تارات..

والأنواع الثلاثة من العقول مضروبة مشروخة، لا يدري أحد ما تقود إليه أصحابها..

وعن أمثالها جاء القرآن العظيم منذراً ومحذّراً، ومؤنّباً وموبّخاً: ﴿أَفَلا تَعْقِلُون﴾ [البقرة: ٤٤]، وقد تكرَّرت في القرآن ثلاث عشرة مرَّة.. و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون﴾ [البقرة: ٧٣]، وتكرَّرت ثماني مرَّات..

وعندما تقود بعض هذه العقول أصحابها إلى أسوأ مآل ومصير، يقول أصحابها يوم القيامة حيث لا ينفعهم الندم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠].

* * * * *

لا يزال المرء يعتذرُ بالعَجز عن الشيء حتّى يُصبحَ عاجِزاً، ولا يزال يحفّزُ نفسه، ويستثير مواطن قوَّته وعزمه، حتَّى يكون قويّاً.. ألم يقل النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (استعن بالله، ولا تعجز)؟!

قدراتك أيُّها الإنسان لا حدَّ لها عندما تَستَعينُ بالله، وتعتصم به، وتتوكَّل عليه، وأنت أضعف ما تكون عندما تدَّعي لنفسك، وتغترُّ بقوَّتك..

* * * * *

لمَاذا الفَرحُ بالعيد؟ وكيف نفهمُ العيدَ؟

سؤال يتردّد على ألسنة عدد من الناس.. ويجيبنا على ذلك كتاب الله تعالى: إذ يقول الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فالفرح بالعيد وفي العيد، ليس فرحاً بالدنيا، ولا هو كشيء من شؤونها، ولو كان يشرع فيه الترويح عن النفس بشيء من مباحاتها.. ولكنَّه بنصِّ الآية الكريمة: فرح بِفَضْلِ اللهِ تعالى وَبِرَحْمَتِهِ.. وفَضْلُ اللهِ وَرَحْمَتُه أعظم من الدنيا كلِّها، وما فيها من هموم واهتمامات، وهموم وأحزان..

وربَّما يطوف في بالِ المَحزون وما أكثر الحزانى والمَنكوبين في هذه الأيَّامِ أنَّه بما هو فيه بمعزل عن هذا الفرح! فنقول له: بل أنت المَقصود بالفرح أوَّلاً... أرأيت وأنت في غمرة أحزانك وآلامك لو جاءك من يبشِّرك بجائزة تبلغ عشرة ملايين من الدنانير، وأنّك أصبحت في منصب كذا وكذا! أفما كنت تنسى أحزانك، وتتبدّد آلامك، ويغمرك السرور الطافح بما لا مزيد عليه.. فو الله إنّ فرحة المؤمن بالقبول والرضا، وفَضْل اللهِ وَرَحْمَتِه، وثواب الطاعة الكبير، أعظم من ذلك وأتمّ.. وعلى قدر ما يعلو قدر المؤمن بالإيمان واليقين، يذوق ذلك ويستشعره في الدنيا قبل الآخرة..

وفي العيد كذلك معان عميقة، تتجدّد في النفوس، وتستشفّها القلوب عاماً بعد عام، ويريد الأعداء أن تغيّب عن حياة المسلم، ليتحوّل العيد في شعوره وتعامله إلى عادات باهتة، وتقاليد سخيفة، معزولة عن دينه وقيمه، كما هو الحال في دين أولئك ومنظومة حياتهم وعلاقاتهم..

ولعلّ من أهمّ معاني العيد العميقة: أن يخرج المسلم من دائرة الوهن والحزن، والاستكانة للبلاء إلى دائرة أوسع من الدنيا، وما فيها من اهتمامات تدعوه إلى الفرح، فيفرح، ولكن فرحاً يتجاوز المادّة إلى المعنى، والجسد إلى الروح، والأرض إلى آفاق الغيب، وحقائق الخلود، وهذا ما توحي به الآية في رقائق معانيها..

أنا أفهمُ العيدَ: فرحاً بهذا الدين، الذي هو أعظم نعمة، حرّرت الإنسان من الجهل والخرافة، وكان حرباً على الحقد والكراهية، والظلم والعدوان، والبغي والطغيان..

أنا أفهمُ العيدَ: تجديداً للعهد مع الله، وشعوراً بقرب الله، والأنس بالله، وطمأنينة القلب بذكر الله..

أنا أفهم العيد: تجديداً لحبّ الله.. تعلّقا بالله.. أملاً عظيماً بفضل الله ورحمته.. حسن ظنّ بالله: بأنّه معنا، ولن يتخلّى عنّا.. وأنّ العاقبة لنا..

أنا أفهم العيد: تجديداً لأخوّة الإيمان، وإحياء لصلة الرحم، وحسن العلاقة مع الجيران، ومع الإنسان حيث كان..

أنا أفهمُ العيدَ: بعثاً للهمّة الخامدة، والعزيمة الوانية، وشطباً للتشاؤم والملل، والخمول والكسل، فأمّة الحقّ والهدى لا تتخلّى عن الجدّ والعمل..

أنا أفهمُ العيدَ: قيماً سامية، ومبادئ غالية، لا تعرف حدود الزمان والمكان، تنشر الأمان، وتسعد الإنسان.. أفلا يحقّ لنا بعد ذلك أن نفرح بالعيد، ونخرج فيه عن همومنا وأحزاننا إلى سعة فضل الله ورحمته؟!

فيا أيُّها المُبتلى المَحزون، والمَكلوم بأنواع البلاء والهموم ثق بالله تعالى الحكيم العليم، ثق بالله الغفور الرحيم، أنّه ما ابتلاك ليعذّبك، بل ليكرمك، ويرفع مقامك.. فقل للنفس بكلّ يقين: فصبر جميل، ممزوج بالشكر والرضا.. فعند الصباح يحمد القوم السرى..

* * * * *

التحوّلات العميقة تتسرّب إلى النفس رويداً رويداً، أشبهَ بدخول اللصّ إلى البيت المُغلق.. فاحذر مباديها، تسلم من عواقبها.

* * * * *

«صحيح أنِّي غير متحجّبة، ولكنّ قلبي طيِّب، وأنا لا أؤذي أحداً، ولا أعتدي على حقِّ أحد»، قول يتكرَّر على ألسنة كثير من النساء غير المحجَّبات، ويعتبرنه حجَّة بالغة، وإن هو إلَّا حجّة داحضة، ونوع من مخادعة النفس والناس.. إذ كيف لا يعتدين على حقِّ أحد؟! وهنَّ يتنكَّرن لأعظم الحقوق عليهنَّ، ألا وهو حقُّ الله تعالى، الذي فرض الحجاب على النساء، وهو أعلم بمن خلق، وهو العليم الحكيم؟!!

ألا إنَّ حقَّ الله أعظم الحقوق! ألا إنَّ حقَّ الله أعظم الحقوق!

* * * * *

الأسير لا يحرِّر أسيراً، والغريق لا ينقذ غريقاً، فإذا كانت النفوس أسيرة في أغلال الشهوات، تكبِّلها الأثرة، وتحاصرها الأهواء فإنّها بكلِّ قواها وطاقاتها في محنة حقّاً، تحتاج إلى تحرير ذاتها، قبل مواجهة عدوِّها، وتحرير أرضها..

* * * * *

الأنفاسُ الذاكرة تُورثُ الغُرفَ العاطرة، ومُهمل الحسَنات يُحرَمُ عاليَ الدرجات..

* * * * *

بين الحجم المادِّي والحجم المعنويِّ:

لكلٍّ منَّا حجمه المادِّي الظاهر وحجمه المعنويّ، الذي يعبِّر عن الحقائق والقيم التي يحملها، والأعمال والمنجزات التي حقَّقها، فهي ترسم شخصيَّته في نفسه، وفي نظر الناس.. وهذا الحجم المعنويُّ بحقيقته له الاعتبار الأوَّل، وعليه المعوَّل في تقويم الناس؛ في الدنيا والآخرة.. ولا أظنُّ أحداً من الناس يخالف في ذلك نظريّاً، ولكنَّهم عند الواقع لا يقيمون له الاعتبار الواقعيَّ الصحيح..

وأكثر الناس يضخِّمون من حجمهم المعنوي، ويبالغون فيه، ويقلِّلون من حجم غيرهم، وينتقصون قدره، ومن هنا يكون التنازع بين الناس والاختلاف.

وتضخُّم الذات المَرَضِيّ يجعل المسافة النفسيَّة بين الإنسان وأخيه بعيدة قصيَّة، ويقيم حواجز وهميَّةً لا مبرِّر لها، وإذا عرفنا السبب زال العجب..

وعندما نعلم أنَّ الإسلام يدعونا إلى التواضع للمؤمنين وخفض الجناح لهم، فهذا يعني أن يقلِّل المؤمن من حجمه، ولو كان كبيراً، ويرفع من حجم إخوانه، ولو كان صغيراً، ولكن دون مبالغة وشطط.. وهذا لا يضيره شيئاً، بل يرفع قدره، ويدعو غيره إلى اتِّخاذ مثل موقفه، وبذلك يكون بين الأخ وأخيه مساحة فراغ، هي أشبه بالحديقة بين المنزل والمنزل، تدعوه إلى تفهُّم مواقف أخيه واجتهاداته..

* * * * *

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ

﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

أحمد الله تعالى أنّ جميع ما اتّخذت من قرارات مصيريّة في حياتي كانت موفّقة مسدّدة، لم أندم على شيء منها.. ومع ذلك ففي ماضي أيّامي، وبعض مراحل حياتي ما أتمنّى أن يكون أحكم وأسدّ، وأكمل وأرشد.. والكمال لله تعالى وحده، والعصمة لأنبيائه خيرة خلقه.. وأنا أقول اليوم هذه الأمنيات لعلّ بعض من يقرأها يَنتفعُ بها..

لم أندم ولكن أتمنّى الأكمل..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لبدأت بطلبي للعلم بحفظ القرآن الكريم، ثمّ أكثرتُ من حفظ صحاح السنّة النبويّة..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لغنمتُ علاقتي ببعض المشايخ أكثر ممّا فعلت..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لتابعت مراحل دراستي النظاميّة، ولم أنقطع تلك المدّة الطويلة عن إكمال الدراسات العليا، ولكنّني بحمد الله تعالى لم أنقطع يوماً عن العلم..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لاغتنمتُ حياة والديّ بالبرّ أكثر..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لاهتممتُ بدراسة التاريخ الإسلاميّ والتاريخ الإنسانيّ العامّ، وآداب اللغة العربيّة أكثر..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لكنتُ صارماً في مواقفي المبنيّة على آرائي المؤكّدة أكثر، ولم أتخلّ عن مواقفي للثقة بمن لا يستحقّها..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لبحثت عن خبرة الكبار في الحياة، كما يبحث الطير عن قطرة الماء في الصحراء..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لاهتممت بتوثيق ما أحفظ وأسمع كتابة، ولم أقتصر على حفظ الذاكرة.. التي اكتشفت مع الزمن وطول العمر، أنّها أسرع ما تعدو عليه عوادي الدهر..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لما عالجت أمراً بشيء من العنف.. وأقول بكلّ دقّة وصدق: ما ندمت على شيء في شبابي كما ندمت على وقت ضاع من غير نفع، أو على أمر عالجته بعنف، وكان يسعني أن أعالجه بالرفق..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لألغيتُ من حياتي شيئاً اسمه: «التسويف»، فما سَوّفتُ أمراً إلّا شَقّ عليّ بعد ذلكَ فِعلُه، وتَبِعَ التسويفَ فيه التسويفُ..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لعزمت على رشد من الأمر، أريده سرّاً بيني وبين خالقي سبحانه، عسى أن يكون سبباً لمغفرة الله ورضوانه، ولا مجال للبوح به.. فإن فاتني اللّهُمَّ هذا العزم فلا تحرمني يا ربّ من الأجر..

لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ لما دخلت في مشتبهات من الأمر لا أزال أعاني من بعض آثارها، ولولا عناية الله بما أكرمني من بصيرة العلم لما استطعت الخروج منها. ولا يذهبنّ بك الوهم أيّها القارئ الكريم إلى ما يلقيك في أودية سوء الظنّ، فما أذكره هو بالنظر إلى العواقب والمآلات، وجلّ من يمنّ على عباده بالعافية واللطف.

والحمد لله أوّلاً وآخراً، الذي بنعمته تتمّ الصالحات.

* * * * *

كلمة في الحُبِّ!

ما أكثر حقائق الروح، ومعاني القلوب، التي نحوم حول أسوارها، ولا ننفذ إلى أسرارها.. ثمّ ندّعي أنّنا قد تملّينا جمالها، وسبرنا أغوارها، فأحطنا بها علماً، وتمكنّا منها فهماً، ونحن في الحقيقة لم ندرك منها إلّا كما يرى الرائي من قرص الشمس في وهج الحرّ.. لا يستمتع بجمالها إلّا بقدر ما ينال من حرّها.. وتلك من جنايات حدود قصورنا وضعف بشريّتنا على ما يحيط

بنا من حقائق، بل ما يعتلج في دواخلنا وأمشاج أنفسنا، ولا نستطيع لها وعياً ولا إدراكاً.. ثمّ ندّعي بكلّ غرور أنّنا قد أحطنا بها علماً وخبراً.. وربّما كان الجاهل في هذا الباب أعقل من بعض أدعياء العلم والمعرفة، إذ يتواضع ويعترف بجهله، وذاك يتعالى ويترفّع بلعاعة من سطح المعرفة الهشّة، يسعى ليناطح بها الكون كلّه..

واضرب لهم مثلاً عن تلك الحقائق والمعاني، حتّى لا تذهب النفوس كلّ مذهب بكلمة قريبة من كلّ الناس، هي من حرفين اثنين.. إنّها كلمة الحُبُّ.. تلك الكلمة المقدّسة عند جميع البشر، والتي تخفق لها القلوب وتضطرب، وتشجى بها النفوس وتحترق، ويعتزّ بها الأولياء والأدعياء، وتلوكها الألسن التافهة المهينة، التي لا تعرف منها إلّا لصوق الطين بالطين، ووثبة الذئب على الفريسة.. كما يسرف في ادّعائها ويكذب، أولئك الذين لا يقرؤون الحياة إلّا بلغة الجشع، ومنطق متاجرة المرابين المقامرين..

ولك أن تعجب غاية العجب عندما تسمع دعاوى المتطفّلين الفضفاضة العريضة عن الإحاطة بالحبّ علماً، وعن الوصول إلى أعماق حقائقه وأسراره! والدعاوى بغير بيّنات كاجترار الهواء لا يشبع بطناً، ولا يحقّق ريّاً.. وأتعس الناس من يخادع نفسه، ويجري وراء السراب ويلهث، وفي جعبته الماء العذب والريّ..

وإنّ قصارى ما أنا قائل في الحُبِّ أن أقول: «مَن ذاقَ عَرَفَ واغترف، ومَن حُرِمَ أنكر وانحَرَف، وليسَ مَن ذاقَ كمَن وَصَف».

وإنّ الإنسان ليسمو بالحُبِّ فوق ما تتخيّل العقول، عندما يكون الحُبُّ ذلّة عابدٍ على أعتاب العبوديّة، وشَوقَ واله طال عليه الطريق، وآلمه البعاد، وأنّة مشتاق، يحدوه الشوق، ويقلقه الوجل.. ولا عجب بعد ذلك أن يُؤثر المحبّون الصادقون الصمت، إلّا لماماً بإشارات، لأنّهم يغارون على أنفسهم أن يبوحوا بمكنونات صدرهم، فالحِبُّ جلّ عن قبول عمل يشرك به المدّعون، ولا يوحّدون..

وكيلا تنحرف بُوصلة الحُبِّ الشريفة ولا تتيه، فيكون باباً مفتوحاً على الشرّ، مغلقاً عن الخير ربُّوا أولادكم بالحُبِّ، وعلى الحبِّ، وارفعوا هممهم بالحبِّ، وكونوا مَثَلَهم بالحبِّ، واجعلوهم يتذوّقون صافي ورده، وعذب شرابه.. وليس ذلك لكم، ولا بجهودكم، ولكنَّه لله عزَّ وجلَّ على أيديكم..

* * * * *

السعادة في أربع وما سواها فضول: نفس بالله راضية، وروح بالهدى صافية، وهمة بالحقِّ عالية، وصحبة في الله زاكية.

* * * * *

بم يستظلّ الداعية؟

عندما يستظلّ المرء منّا بأسرته وعشيرته، ويعتزّ بانتمائه إليها، وهذا من حقِّه، ولا ينازع فيه.. فبم يستظلّ الداعية؟ ومن حقِّه أن يعتزّ به؟

إنّه يستظلّ هو وإخوانه بظلّ الله تعالى، والانتماء إلى دينه.. ومن حقِّ هذه العلاقة أن تكون أرسخ وأوثق، وأثبت وأعمق ممّا سواها.. فما بالنا نراها تنفصم عراها، وتضطرب علاقاتها، عند أدنى هزّة تعترض الناس في الطريق، وكأنّما هم في رحلة عابرة على متن سفينة أو طائرة، سرعان ما تحطّ بهم الرحال فيمضي كلّ من الناس في سبيله؟!

إنّه سؤال كبير، يحتاج منّا إلى بحث عميق عن الأسباب والدوافع، والمقدّمات المتراكمات، التي أورثتنا هذه النتائج..

* * * * *

الدعاة إلى الله تعالى أحوج ما يكونون بين الفينة والفينة، إلى بعث همّتهم، وتجديد نشاطهم، ومعالجة فتور أنفسهم، إذ إنّهم بشر يعتريهم ما يعتري البشر.. ولا يتأتّى لهم ذلك إلَّا عندما يقفون موقف المحاسبة الدقيقة لأنفسهم، في خلوة بينهم وبين الله عزّ وجلّ، يستشعرون فيها ذلّهم وانكسارهم وافتقارهم لله سبحانه، ويتجرّدون عن حولهم وقوّتهم، ويتبرّؤون من دعاواهم، ويعترفون بتقصيرهم، ويصدقون مع الله في توبتهم.. ولن ينقلبوا عندئذ عن باب الله إلَّا بتوفيق الله تعالى ورعايته وتسديده..

وإن لم تكن لهم هذه الوقفة الصادقة مع أنفسهم بين الحين والآخر أصبح الداعية يحتاج إلى دعوة، والطبيب مريضاً، يشكو العلل، ولا يجد من يسعفه، ولن يستجيب المرضى لعلمه وطبّه، وهم يرونه عليلاً عاجزاً عن طبّ نفسه:

وغَيرُ تَقيّ يَأمُرُ الناسَ بالتقَى ... طَبيبٌ يُداوي الناسَ وَهُو سَقِيمُ

* * * * *

مهمّة الأنبياء الكبرى بناء الإنسان ليقف على قدم العبوديّة لله تعالى راشداً..

* * * * *

الكبير بحقّ من لا يقف عند الخصومات مع الخلق مهما تكن كبيرة، فهي في جنب همّته وتعامله مع الحقّ تعالى صغيرة، واعتبر بقول المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللّٰهُمَّ اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون».

وإذا كانَتِ النفُوسُ كبَاراً ... تَعِبَت في مُرادها الأجسَامُ

كبَاراً بغايتها وأهدافها.. بهمّتها ومقاصدها، بأخلاقها وأدبها، بمبادئها وقيمها..

* * * * *

حياة الجذور!

أيّتها الجذور الأصيلة الخفيّة.. أنت حيّة قويّة، مهما حاول العابثون الحاقدون طمس وجودك، وإهالة التراب على آثارك.. أنت في الوجدان، كما كنت قبل في الميدان!

لا تحزني! أيّتها الجذور الخفيّة.. الغائصة في أعماق التربة الطيّبة.. إنّها تحتضنك كما تحتضن الحامل جنينها.. وتعشقك كما يعشق الفلاّح أرضه.. وسيأتي اليوم القريب، الذي تولدين فيه من جديد..

لا تحزني! ولا تبتئسي.. ولا تيأسي.. لا تلتفتي إلى المشكّكين، ولا تنخدعي بما ترين من عواصف الزيف والتضليل، وبوارق الرعد الخلّب، فمهما أرعد وأزبد، وزلزل وأفسد.. فليس وراءه غيث، ولن يخرج عن عاقبة الزيف..

لا تحزني! فأنت قدر الحقّ.. وأنت قدر السماء للأرض..

لا تحزني أيّتها الجذور! فأنت على موعد قريب.. ستهبّ فيه رياح التغيير، هادئة قويّة.. ويأذن الله العليّ القدير لنباتك الأخضر، أن يشرق باسماً مع إشراق شمس يوم جديد، كما يبتسم المارد عندما يخرج من معتقله.. فيبدّد الظلمات الجاثمة على أرضك الطيّبة، فيكنس ما آذاه من العفن، وما صنعته أيدي المحن..

أيّتها الجذور الخفيّة.. طوبى لعشّاقك الأوفياء، إنّهم معك حتّى الممات.. ولا يزالون يتعلّقون بفروعك بكلّ ثبات، وينتظرون ظهورك بكلّ حبّ وشوق..

* * * * *

يبعثر الأوراق.. يقلّبها.. يتأمّل كلماتها.. يبحث عن بصيص من الأمل فيما يقرأ.. يفتح «صفحات» المآسي والآلام، والأحلام والأوهام ممّا هبّ ودبّ.. يقرأ المتناقضات.. ويقرأ السباب والشتائم، والعتب والتلاوم.. ويجري بنظره هنا وهناك.. ويقلّب فكره شرقاً وغرباً.. ويزداد قلقاً وحيرة في بحثه.. وينكسر قلبه، وينسكب دمعه، ويخور عزمه.. ويسمع في سرّه صوتاً يزجره بقوّة: ويحك! فأين اللهُ أيّها الغافل التائه؟! أين أنت من آياته؟! أين أنت من أسمائه وصفاته؟! أين أنت من مناجاته؟!

ويعود إلى كتاب ربِّه يقلِّب الصفحات:

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم﴾ [البقرة: ١٣٧].

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٤].

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ [الطلاق: ٣].

* * * * *

مداخل الشيطان:

للشيطان ثلاثة مداخل على الإنسان في العمل:

يوسوس له قبل العمل ليثبّطه عن العمل أو يشغله، فإذا أعجزه الإنسانُ، وعزم على العمل وأقبل، وسوس إليه ليفسد له عمله بالرياء، وأنواع المفسدات للعمل، فإذا أعجزه الإنسان عن ذلك، وعمل العمل وأحسن فيه، سعى إليه الشيطان بمحبطات العمل من العجب والغرور، أو الرياء والمنّ والأذى، فإذا سلم الإنسان منه عاوده الكرّة بعد الكرّة، وحام حول نفسه ليعلم جوانب ضعفه فيأتيه منه، ولو بإشغاله بأدنى العمل عن أوجبه وأعلاه، أو

بإشغاله عن عيوبه بعيوب الناس، ولم يستيئس منه، ولم يتخلّ عن قَسَمه القديم أمام ربّه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِين﴾ [ص: ٨٢ـ ٨٣].

ولا تزال المعركة قائمة بين الإنسان والشيطان حتّى آخر نَفَس للإنسان في هذه الحياة، والسعيد من بصّره الله ووفّقه وأعانه، ومَن نجى مِن مَداخل الشيطان في موقف فلا يحسبنّ أنّه ينجو منه دائماً، وفي كلّ موقف..

وأوّل انكسار أمام الشيطان أن يدّعي الإنسان أنّه بمنجاة من كيد الشيطان..

* * * * *

علاقاتنا الأخويّة

إنّ مثل بنائنا الداخليّ وعلاقاتنا الأخويّة كمثل قواعد البناء وأسسه، فعندما تكون محكمة قويّة فابن عليها ما شئت من الأدوار، وناطحات السحاب.. وعندما تكون ضعيفة متخلخلة، فتوقّع لها الانهيار عند أدنى هزّة تتعرّض لها.

ما لم تبن علاقاتنا على الولاء والحبّ، والشفافية والنصح فكياناتنا على خطر الزلزلة والانهيار مهما طال الزمن، وامتدّت الأيّام.. ويزيد المَشهَدَ تعقيداً عندما نُبرّرُ لأنفسنا، ونُعلّقُ أخطاءنا على مشجب الآخرين..

* * * * *

بين الكلمة الطيّبة والكلمة الخبيثة:

الكلمة الطيّبة بناء.. والكلمة الخبيثة هدم

الكلمة الطيّبة إصلاح.. والكلمة الخبيثة إفساد

الكلمة الطيّبة علم.. والكلمة الخبيثة جهل

الكلمة الطيّبة نور.. والكلمة الخبيثة ظلمات

الكلمة الطيّبة إحسان.. والكلمة الخبيثة إساءة

الكلمة الطيّبة معروف.. والكلمة الخبيثة منكر

الكلمة الطيّبة ذوق ولباقة.. والكلمة الخبيثة تخلّف ودناءة

* * * * *

مَن نال عزّاً بلا تَعب أضاعَه بأدنى سبب..

* * * * *

القُرآنُ كتابُ الحكمة الأوّل.. كلّ جملة من القُرآن الكريم تجيب على مئات الأسئلة، ولكنّ العبرة بمن يأخذ هذه الإجابات باليقين، ويضعها موضع العمل والتنفيذ!

* * * * *

بين التشاؤم المفرط، والأمل الخائب!

بين التشاؤم المفرط، والأمل الخائب خيط دقيق اسمه الحكمة.. وكم ضيَّع التشاؤم المفرط أقواماً! وكم أقعد الأمل الخائب عن العمل آخرين!

والعاقل الحكيم لا تقف في وجه همّته عقبة مادّيّة إلَّا ذلّلها، فكيف تصدُّه الأفكار السوداويَّة، التي لا تزال تهوي به من درك إلى آخر حتَّى يكون من المرضى النفسيِّين؟!

* * * * *

التشاؤم نوع من الغيظ الهائج، على العاقل أن يكتمه، ويحسن معالجته، وإلَّا كان كالمتفجّرات، تقتل كلّ من اقترب منها..

* * * * *

يقول الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

استوقفتني هذه الآية الكريمة.. فقلت: يا سبحان الله! ما أعظم كرم الله وفضله على عباده المؤمنين! سيِّئاتهم تطوى، هناتهم تُمحى، تخليطهم بين الحسنات والسيّئات يخلّص منه الشوائب، ويقبل أحسن ما فيه، ثمَّ يدخلهم الجنَّة بفضله ورحمته..

والناس يعكسون في علاقاتهم وأحكامهم هذا التعامل ويخالفونه: فالحسنات تطوى وتُمحى، والسيِّئات تروى وتنشر، بل تكبَّر وتشهر، والهنات تصبح كالجبال الراسيات، وتغدو حديث المجالس!!

والأسوأ من ذلك أن يلبّس الأمر لبوس الغيرة على الدين، والدفاع عن حرماته!

فمن أنت أيُّها الإنسان حتَّى تنصب نفسك ربّاً قيُّوماً على العباد؟! والله تعالى يقول لنبيِّه المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو أكرم الخلق عليه: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

* * * * *

بين جلد الذات، التي هي «الأنا» الكبيرة، ومحاسبة النفس التي هي «الأنا» الصغيرة ساءت الظنون، وكثرت الافتراءات، وضاعت الحقوق، وتعطّلت المسؤوليّة، وعاش كثير من الناس في حلقة مفرغة.. وهذا غاية ما يريده شياطين الجنِّ والإنس للإنسان، إلى أن ينقله إلى مطبّ آخر، وحفرة أعمق..

* * * * *

أوَّل ما يطرق القلب من السوء الخطرة، وهي ما سمَّاها النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم لمّة الشيطان، فإن دفعها العبد عن نفسه استراح ممَّا بعدها، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة فكان دفعها أصعب، فإن بادر ودفعها وإلَّا قويت وصارت شهوة، وكان دفعها أصعب، فإن عالجها وإلَّا قويت وصارت إرادة، فإن عالجها وإلَّا صارت عزيمة، ومتى وصلت إلى هذه الحال لم يمكن دفعها إلَّا بمجاهدة شديدة، واقترن بها الفعل غالباً، فكن حازماً في أمرك، واقطع مادَّة الشرِّ عن قلبك من أوَّل لحظة.

* * * * *

العلمُ إمّا أن يكون مهنة وصنعة، أو هواية ومُتعة، أو روحاً نافعة.. وكلا الحالتين على أطراف الهلاك العاجل..

* * * * *

أقبل على سيرة الحبيب المُصطفى صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم: حبّاً وشوقاً، وتقرّباً وذوقاً، وفهماً عميقاً، وحرصاً على التأسّي والاتّباع.. واقرأ سيرته الشريفة مرّة بعد مرّة..

فإذا تحقّقت بذلك كان صلّى الله عليه وسلّم وهديه الشريف ميزانك الحقّ في العمل وتقويم الرجال، وكان الحَكَم على كلّ موقف، وحفظك اللّه تعالى من الافتتان بأحدهم، مهما نصب حوله من هَالات..

* * * * *

الدعاء بغير صدق الاضطرار أشبه بالجسد المَيّت، فاستحضر ذلّ العبوديّة قبل دعائك..

* * * * *

تعلّموا قبل أن تنجبوا.. وتعلّموا بعد أن تنجبوا.. ولا تستحوا أن تتعلّموا حتّى من أبنائكم، فقد يخصّهم الله بما لم يخصّكم..

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: تعلّموا قبل أن تُسوَّدوا.

* * * * *

الربّانيّ من يتّسع قلبه لكلّ الناس: رحمة، وبرّاً، وعدلاً وإنصافاً.

ومن الرحمة والعدل أن ينكر على الظالم، أو يأخذ على يده إن استطاع.

* * * * *

الانحلال الأخلاقي يبدأ شيئاً بعد شيء.. وقد سمّاه الله تعالى: خطوات الشيطان، ومن لم يبال بالمقدّمات الصغيرة، فليترقّب أسوأ النتائج، ونحن أمّة تسير نحو التحلّل الأخلاقيّ إلّا من رحم ربّك.. وأعجب ممّن يحمل سمة الالتزام أن يكون رائد ذلك أو مبرّراً له..

* * * * *

حِكَم خفيَّة، وأسرار عليَّة!

لله في كلّ ما قضى وقدّر حكم خفيّة، وأسرار عليّة، نقف منها في كثير من الأحيان على طرف النقيض، وذلك لجهلنا وقصور تفكيرنا، ولو عقلت قلوبنا بما مضى في حياتنا، ممّا تكشّف لنا شيء من حكمته وأسراره لاستسلمت لله، وازدادت إيماناً بالله تعالى ويقيناً..

وعجباً لأمر المؤمن.. إنّ أمره كلّه له خير.. نعم كلّه على الإطلاق والشمول، وفي جميع أحوال القوّة والضعف، واليسر والعسر.. فالمهمّ دائماً أن يكون لنا رصيد وثيق من الإيمان والتسليم لله، لنحسن التلقّي عن الله تعالى، ونحسن استقبال أقداره..

منذ كان الإنسان على هذه الأرض كان الخير والشرّ، والبرّ والعقوق، والإحسان والإثم.. وتجلّى صراع القيم بصورة الإنسان العاقل، الذي يدّعي كلّ كمال، ويحتكر بزعمه كلّ الفضائل.. فهل علمه كان وبالاً عليه؟! وهل آفته الكبرى كانت معرفته؟! وهل علّم الله تعالى آدم الأسماء كلّها، ليستخدمها بنوه أسوأ استخدامها؟!

مهما يكن الأمر فإنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ العلم سلاح ذو حدّين.. وأنّ حدّه الحسن لا يكون إلّا إذا غمره الإخلاص، وسدّده صدق التقوى والاتّباع، فكان علماً نافعاً.. وأنّ حدّه الأسوأ أمضى من حدّه الحسَن وأقوى، لأنّ أعوانه من أهل الباطل لا يحصون عدّاً..

* * * * *

كُلُّ متاجر في هذه الدنيا يأبى الخسارة، وينْفر منها، ويتحاشاها بكلِّ وسيلة، ولكنَّه لا بدَّ له أنْ يخسر في أيَّة صفقة؛ لأنَّ هذه طبيعة الدنيا الناقصة الفانية، ولن تخرج عن طبيعتها، كيلا يتعلَّق العاقل بالدنيا.. أمَّا صفقات الآخرة فهي الرابحة دائماً أضعافاً مضاعفة.. فاختر لنفسك ما يحلو.. وأسعد قلبك بأرباح الآخرة..

* * * * *

طوبى لمن غادر هذه الحياة، وهو يحمل وسام: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * * * *

يقول أهل الدعوة والتبليغ: أَتعبْ قدَمَكَ... فكم مِنْ تَعَبٍ قدَّمَكَ!

* * * * *

فقه السلف لدينهم يتجلّى في كلماتهم النورانيّة القليلة، التي تجمع بين حقائق الإيمان وأسراره، وفقه الواقع بظروفه وتقلّباته.. كما أنَّ كثيراً منها يكشف عن فهم عميق بأحوال

النفوس وأغوارها، وأطوارها وتقلّباتها.. فلا شكّ أنّها منجم كنوز، ومخزن خبرات، لا يحرم عطاءها إلَّا جاهل بقدرها..

* * * * *

ماذا يطفو على سطح النفس؟!

ما يطفو على سطح النفس ليس بالضرورة مثل ما يستكنّ في أعماقها!

فابحث في أغوار نفسك ماذا يطفو على سطحها؟! فالنفس في أحوال الراحة والأمن، والبسط والرخاء، والتقلّب في بحبوحة النعم، تغشّ لابسها، وتخدع صاحبها، فيحسب أنّه من أولياء الله الصالحيّن، وكمّل عباده المُتّقين.. ولكنَّها عندما ينزِل بها شيء من البَلاء تتكشّف حقيقة دعاواها، ويطفو على سطحها ما استكنّ في أعماقها، وخفايا متعلّقاتها؛ فإذا كانت النفس تحبّ الله تعالى وتؤثره، وتستحضر حقيقة وذوقاً حكمته في أقداره، وأنّ الخير قطعاً فيما يختاره لعبده، أسرع إليها الرضا عن ربّها، واحتساب الأجر فيما ابتلاها به..

وإذا كانت غافلة عن الله تعالى، تعبد الله على حرف، أسرع إليها الهلع والجزع، والتبرّم والسخط، وكأنَّ مصائب الدنيا حلَّت عليها، وظهر على لسانها خبيء ما فيها من علل ورعونات، وضعف إيمان قد يبلغ بها حدّ الخروج عن دين الله، والعياذ بالله..

* * * * *

ما أسهل إلقاء التهم جزافاً، ولكنّها صعبة جدّاً على من يذكر قول ربّه: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ١٩].

* * * * *

ابتلينا بمن يتكلّم بغير علم، ويفتي بغير تقوى، ويتزيّن بما لم يعط، ولا يعرف حدّه، ولا يحترم ذا فضل وسنّ.. لقد أصبح أدبُ الحوار في نظر أكثر الناس نقصاً وضعفاً، والتعالم في كلّ شأن دليل العلم والفهم! وإنّما هو بضاعة المَفاليس.. وإذا لم نجد من يعلم، فأين من يعقل؟!

* * * * *

المِحنة إمّا أن تسحق وتمحق، وإمّا أن تصهر النفوس فتتألّق.. والثبات من الله تعالى مقلّب القلوب..

* * * * *

خمس مهارات نبويّة؛ لا تحرم نفسك منها:

خمسة أحاديث نبويّة هي خلاصة خمس دورات تدريبية، لخمس مَهارات مهمّة في حياة كلّ مسلم.. لأنّها تجمع أصول الأخلاق والآداب، وفنّ إدارة الحياة، وهي ميثاق إيمانيّ، ودستور أخلاقيّ وتربويّ، وعلى المسلم أن يقيم حياته وعلاقاته على أساسها، وهي بهذا الترتيب من الأهمّيّة:

المهارة الأولى: «مَهارةُ سلامة العلاقة مع المؤمنين على أساس الأخوّة الناصحة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ..﴾ [الحُجُرات: ١٠]. وقال النبيّ ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه».

المهارة الثانية: مَهارةُ ضبط اللسان، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت».

المهارة الثالثة: مَهارةُ ترك الفضول.. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ [الفرقان:٧٢]، وقال النبيّ ﷺ: «مِن حُسن إسلام المَرء تركُه مَا لا يَعنيه».

المهارة الرابعة: مَهارةُ ضبط النفس، قال الله تعالى: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال رجل للنبيّ ﷺ: أوصني فقال: «لا تغضب»، فردّد مراراً، فقال: «لا تغضب».

المهارة الخامسة: مَهارةُ تنظيم الوقت واغتنامه.. قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ العَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ـ ١١٥]، وقال رسول الله ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ»..

وأخيراً: استعن بقدوم شهر رمضان المُبارك على التحلّي بهذه المَهارات، ومجاهدة النفس عليها.

* * * * *

رمضان شهر التغيير..

للتغيير الإيجابيّ في حياة الإنسان سعادة ولذّة، لا أدلّ عليها من أنّ حياة أهل الجنّة يكون فِيها التغيير والتجديد، يقول الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]. ورمضان شهر التغيير فهو شهر سعادة روحيّة مُتجدّدة، هي من نوع نعيم الجنّة.

* * * * *

أنا أؤمن دائماً وأردّد دائماً: أنّ جوهر الإنسان هو الإرادة.. إرادة العمل والتغيير، ونحن نتغيّر.. وكلّ ما حولنا يتغيّر.. إيجاباً أو سلباً..

والتغيير الإيجابيّ من أكبر أهداف المؤمن في الحياة.. ولكن كيف يتمّ التغيير الإيجابيّ؟

ـ مواقفُ الناسِ من التغيير في رمضان، أظهرها ثلاثة:

١ـ موسم للإكثار من الأعمال ثمّ الانقطاع.. وتعود النفس بعد رمضان كما كانت قبله

٢ـ التغيير باندفاع شديد، ثمّ الانقطاع أو الانتكاس.. ويغري بذلك مطالعة بعض أحوال السلف من إكثار النوافل في رمضان.. صلاة التراويح.. تلاوة القرآن.. ترك سماع الأغاني..

٣ـ التغييرُ وفق سنن الله، والمَنهج النبويّ.. فما المَنهج النبويّ في التغيير؟

* * * * *

هناك أربعة معالم للمَنهج النبويّ في التغيير:

١ـ مراعاة الأولويّات في التغيير. (ضرورة الفقه لمعرفة الأولويّات) مفرّط في الصلاة في غير رمضان.. حقوق الناس..

٢ـ التوسّط والاعتدال، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه..

٣ـ التدرّج في التغيير.. فإنّ المُنبتّ..

٤ـ الحرص على التغيير الذي يحدث الفرق الكبيرَ، وهذا أهمّ معلم يجب التفصيل فيه.

أنواع مِن التغيير الذي يحدث الفرق الكبيرَ:

(١) التوبَة الصادقة، وعلامتها الكبرى أنْ تغيّر مسار الإنسان بصورة كاملة.. ومن الصدق فيها: دقّة المُحاسبة للنفسِ.

(٢) الصلاة بآدابها وخشوعها.. الصلاة مفتاح كلّ خير في حياة المؤمن: (أتقن صلاتك، تسعد حياتك).

(٣) ترك الفضول وما لا يعني، وقد أصبحت حياة أكثر الناس قائمة على الفضول والاشتغال بما لا يعني، ووسائل التواصل وفّرَت ذلك بأسلوب فتّان، يحتاج إلى إرادة حديديّة، وعزيمة صادقة.. أبرز أنواع الفضول: فضول الكلام.. فضول النظر.. فضول السمع.. فضول العلاقات..

الإشارة إلى كتاب: «مَعركة كلّ رَجُل» هي غضّ البصر. وهو كتاب ألّفه اثنان مِن القَساوسة الغربيّين..

الفضول شرّ كلّه.. لماذا؟ وماذا وراءه؟ بعض آثاره وما فيه من شرّ: شتات الفكر، وضياع الواجبات.. وعدم الرضا عن الله.. والغلّ والحسد للناس..

قال بعضهم: فضول النظر يستهوي.. وفضول السمع يُعوّد على الاشتغال بما لا يعني.. وفضول العلاقات يجرّ إلى أبواب الهموم والخصومات.. وخير للمرء أن تكون كلّ خطوة له محسوبة بما يرضي الله تعالى.

(٤) دقّة المُحاسبة للنفسِ وصدقها.. كمحاسبة الشريك الشحيح: جرد كامل للسلوك والعلاقات، وتقويم ذلك بميزان الشرع.. ومعرفة أسباب المعاصي.

(٥) الرضا بالصلاح النسبيّ، وقياس النفس على المقصّرين الخطّائين. (ما ترك من الجهل شيئاً من رضي عن نفسه).. وضرورة الاتصال الدائم بالسيرة النبوية وتراجم الصحابة والسلف الصالح.

* * * * *

رمضان شهر التربية على الكلمة الطيّبة:

الكلمة الطيّبة حلوة جميلة، لأنّها مستمدّة من كلمة التوحيد، التي تقوم على الحقّ والعدل، والخير والبرّ.. ولكنّها تكون على بعض النفوس مُرّة مَكرُوهة، لأنّها لم تتأدّب بآداب

الإسلام، ولم تتهذّب بأخلاقه.. وهي عندما تأبى الكلمة الطيّبة لأنّها مُرّة فهي تلجئ نفسها وتختار لها ما هو أمرّ وأسوأ عاقبة.. فأين من يعقل أينا؟!

* * * * *

في الساعات الأخيرة من هذا الشهر المبارك لنفترق أيّها الأحبّة على عهد، يجعل أعظم بركات رمضان تصحبنا، ولا تفارقنا إلى رمضان من العام القادم، وإلى مدى حياتنا: لنكن أيّها الأحبّة من أهل التدبّر كلّ يوم للقُرآن، ولو لآية واحدة.. والعهد الصادق مع الله على العمل بالقُرآن.. وذلكم والله هو سرّ السعادة، ومفتاح التغيير في حياتنا.. وإن تواصينا بذلك وعملنا به سنرى حياتنا تصطبغ بالحياة الطيّبة في كلّ شؤونها، ولن تَكُون الغفلةُ والنكوصُ عن الهُدى بعدَ رَمضانَ علّتَها وعُنوانَها..

الحياة في مجتمع إسلاميّ عزيزة غالية على قلب كلّ مؤمن محبّ لله تعالى، ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم، غيور على دينه، حريص على إقامة أحكامه، والتمسّك بآدابه.. ولكنّها لا تكون بالأماني دون صدق وعمل، ولا تكون دعوى تدّعى، ويتغنّى بها في كلّ مناسبة..

إنّها تبدأ من بناء النفس وإعدادها، وتقويمها وتربيتها، وأخذها بهدي الإسلام في كلّ شأن من شؤونها.. ثمّ بتربية الأسرة المسلمة على ذلك، لتكون مجتمعاً إسلاميّاً مصغّراً، يقوم على قيم الإسلام وآدابه، ويقدّم النماذج الحيّة للمجتمع الكبير، متمثّلة في أخلاق شبابه وفتياته، وسلوكهم وعلاقاتهم.

* * * * *

من أيّام معدودات.. إلى ساعات معدودات.. ومن عقود السنين إلى لحظات الخروج من هذه الدار إلى دار القرار.. فهل من مدّكر؟! لا ملاذ لك أيّها الإنسان بعد تعلّق القلب بالله إلّا العمل..

* * * * *

بعد رمضان أصبحت المساجد تشكو من الهجران، وتقيم على الأحزان..
هدأت المساجد.. وقلّت الصفوف.. وعادت المصاحف إلى الرفوف..
وبقيت ثُلّة تقيّة خفيّة، جعلت حياتها كلّها كرمضان..

مصاحفهم لا تعرف الغبار والهجران.. وأيّامهم لا تنقطع عن الصيام والقيام وتلاوة القرآن.. قد زادهم رَمَضان قوّةً على قوّتهم..

فاكتسبوا من مدرسة الصيام الحرص على التنافس في الخيرات، وعمارة الأوقات بالصالحات، واغتنام العمر قبل الفوات.. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

حالهم كحال القائل:

في هواكم رَمَضان عمره ... ينقضي ما بين إحياء وطي

وإذا كان رَمَضان يعني لنا المغفرة والعتق من النار، فما أحوجنا إلى ذلك في جميع الأحوال!

وإذا كان رَمَضان يعني لنا التزوّد من خير الزاد التقوى فما أحوجنا إلى ذلك في جميع شهور العام!؟

وإذا كان رَمَضان يعني لنا قوّة الإرادة على التغيير وتجديد الحياة.. فما أحرانا أن تقوى عزائمنا تغيير السيّئ من عاداتنا، التي شلّت فاعليّتنا، وعطّلت كثيراً من طاقاتنا؟!

* * * * *

«خير عادة ألّا تتعوّد على عادة» مقولة شائعة.. ولكنّها غير صحيحة ولا واقعيّة.. إذ لا بدّ للإنسان من أن تُنسَجَ حياتُه من مجموعة من العادات، التي ينبغي أن تكون صحيحة حسنة.. ورفض الإنسان أن يتعوّد على عادة، يعني أن تكون حياته فوضويّة مُشتّتة، وهذا ما لا تستقيم به حياة إنسان، ولا يحقّق تلاحماً لمجتمع أو جماعة.. وتعديلها الصحيح أن نقول: «خير عادة ألّا تأسرنا عادة».

* * * * *

لمّا انفرد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعبوديّة لله تعالى، لم يسبقه إليها سابق، ولن يلحقه بمثلها لاحق؛ خصّه اللهُ تعالى بتكريم الإسراءِ والمعراج، الذي أدناه فيه وقرّبه، وناجاه وخاطبه، وأراه فيه من آيات ربّه الكبرى فما زاغ البصر، وما طغى.. فأليق بهذا المَقام والتكريم أن يرى ربّه بعين بصره، لتتمّ عليه نعمة ربّه وتكرمته..

* * * * *

سبحان من يهيّئ الأسباب، ويفتح الأبواب، ويرفع الحجاب بعد الحجاب، ويرفع أهل الخمول، ويخفض أهل العجب والظهور.

* * * * *

اعتنى الإسلام عناية كبرى بتربية قلب الإنسان وضميره، لتكون رقابة الله تعالى وخشيته هي الملهمة لمقاصده، وهي الموجّهة لسلوكه، وهي المهيمنة على حياته في جميع أحواله.. وعندما يصبح الإنسان كذلك، فهل يبقى في قلبه فراغ لتوافه الأمور؟ وهل يبقى في حياته متّسع لخصومات الناس ومنازعاتهم؟

ويأبى الناس ـ والناس معادن ـ إلَّا أن يشغلوك بتوافه الخلافات، ويستجرّوك إلى الخصومات والمنازعات، ويضّطرّوك إلى المماحكات والمحاكمات.. وتأبى هذه الدنيا إلَّا أن تكون دار المحنة والابتلاء، ودار الأكدار والمنغّصات.. وسبحان الذي خلق كلّ شيء بحكمته، وقدّر كلّ شيء بمشيئته، له الحكم، وإليه ترجعون.

* * * * *

كثيراً ما يختلط في أنفسنا الأمل وحسن الظنّ بالله تعالى مع التعلّق بالأماني، والتقصير بالعمل، وهذا نوع من العبث يتنزّه عنه العقلاء، والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ [النساء: ١٢٣].

* * * * *

الإنسان إرادة.. والإرادة هي العزيمة والطموح، والتغيير والنجاح، وهي السعادة وإسعاد الآخرين.

* * * * *

اكسر عن نفسك وهمّتك حواجز الشيطان ووساوس الأوهام، وألقِ بها في سلّة المهملات وظلمة النسيان..

* * * * *

إذا خدعت أحياناً قليلة فأنت غافل معذور..
وإذا خدعت مرّة فأنت مُستَهدَف من عدوّك فاحذر..
وإذا خدعت مرّتين فأنت مُستَغفَلٌ مغرور..
وإذا خدعت ثلاث مرّات فأنت مُستَغفَلٌ أهبل..
وإذا خدعت في كلّ مرّة فاقرأ على عقلك السلام، فلست في عداد العقلاء..

* * * * *

قال الماورديُّ رحمه الله: «العِلمُ عوضٌ من كلِّ لذةٌ، ومغنٍ عن كلِّ شهوةٌ؛ فمَن تفرَّد بالعلم لم توحشْه خَلوة، ومَن تسَلَّ بالكتب لم تَفُتْه سلوة». [أدب الدين والدنيا ص٩٢].

العِلمُ رُوحُه الإخلاص، وحياتُه العَمَل، فإذا فَقَدَ رُوحَه أصبحَ جُثّةً هَامدةً، ثمّ مُنتنةً، وإذا فَقَدَ حياتَه صار هو والجهل سواء، وصار صاحبه كمثل الحمار يحمل أسفاراً..

* * * * *

إن لم يتّسع قلبي لنصح أحبّتي فأنا غير صادق في محبّتي..

* * * * *

شاءت حكمة العليم الحكيم سبحانه أن يبتلي عباده بأنواع الابتلاءات، في شؤون الدين والدنيا، والنفس والناس، وفيها من الحكم ما لا يحصى؛ فهي تمحّص الصفّ، وتجدّد العزم، وتدعو إلى الحذر، وتصحّح المواقف، وتدعو إلى التقويم، وتختبر الصدق مع الله والإخلاص لوجهه الكريم، وتوقظ القلب من سِنة الغفلة، والركون إلى دعاوى النفس، وتكشف البهرج من الخالص الذهب، وتقطع عن القلب التعلّق بالناس، وتدعو المؤمن إلى التبرّؤ من الحول والطول، والاستسلام لله تعالى في كلّ شأن.

تلك عشرة كاملة، وما يخفى من حكمة الله فوق ما يتبدّى، فلله الحكمة البالغة، لا يسأل عمّا يفعل سبحانه، وهم يسألون.. ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وفي الابتلاء باب عظيم من أبواب الأجر والمثوبة، لا يدرك بشيء من الأعمال الصالحة مهما بلغت، وفيها رفع درجات المؤمن، والحطّ من سيّئاته وخطاياه. وهذه الدنيا دار الابتلاء والتكليف، فكيف يرتجى منها سوى ذلك.

* * * * *

إذا رأيت تغيّر من حولك فحاسب نفسك، وأعد النظر في علاقتك بربّك.. فالعلاقة الإيجابيّة مع الخلق مبتدأها وميزانها حسن العلاقة مع الخالق سبحانه.. «إن لَم يَكُن بكَ عليّ غَضَبٌ فلا أبالي، غَيرَ أنّ عَافِيَتَكَ أوسَعُ لي».

* * * * *

حبُّ الصور والتعلُّق بها طريق البلاء.. وحبُّ الحقائق والمعاني طريق الأصفياء..

واعتبر بما وقع ليوسف عليه السلام. صوّروا، ولا تسرفوا.. وانظروا إلى ما أحلّ الله، ولا تعلّقوا قلوبكم إلَّا بالله..

* * * * *

إذا تبلّد إحسَاسُ بَعض أعضَاء الجسَد، حَتّى بَلَغَ دَرجَة الموت.. فلا سَبيلَ لإنقاذ الجسَد إلَّا البَتر.. لأنّ اللّهَ تَعالى لا يُريدُ أن يَضيعَ الجسَدُ كلّه..

* * * * *

«مَن لا يَرحَم لا يُرحَم» حديث متّفق عليه، ويدخل في معناه: من لا يَرحَم نفسه بنور العلم والعمل والاتّباع، لا يُرحَم بنور الهداية والتوفيق. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللّهَ لَمَعَ المُحْسِنِين﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فمُجَاهَدةُ النفسِ عينُ الرحمَة بها، لما تنال من هداية الله وتوفيقه، وحسن المآل والعاقبة.

* * * * *

إذا تقدّم الإنسان بالسنّ، ولم يتعوّد على التغيير، وتجديد حياته بنفسه هرب من واقعه إلى ماضيه، وأصبح وأمسى يقتات على ذكرياته، ويتغنّى بأمجاده..

* * * * *

اجتماعنا على الحقّ دين.. وتعاوننا مع بعض عقل ورشد.. وتجرّدنا عن حظوظ أنفسنا وأهوائنا هو السبيل الأوّل للنجاح..

* * * * *

أظهر التوافه أن تتعلّق همّة الإنسان بالشهادة الدراسيّة مهما علت، ليتفاخر بها بين الأقران، ويتصدّر بها في المجالس، ويتّخذها حرفة للارتزاق.. ثمّ يتناسى ما تعلّم، وعلى الناس يتعالم، فهذا هو: الجهل المركب..

ولا خير في تعليم لا يسمو بهمَّة المتعلِّم..

* * * * *

كلّ تَشريع رَبّانيّ تَسنُدُه سُنّةٌ إلهيّة، أو عَدد من السُّنن..

* * * * *

حقاً المرء عدوّ ما جهل، ومن جهل.. ومن عادى من جهل فاته خير كثير.. ولا يجني جان إلّا على نفسه.. ومَن أَسَاءَ الظنَّ بالناس أَثِمَ وظَلَمَ، ومن خيرهم حُرم..

* * * * *

إذا ادّعيت لنفسك المثاليّة فأنت معجب بنفسك مغرور، واهم تجري وراء السراب والزور.. تكذب على نفسك قبل غيرك.. انزل من سماء وهمك انزل إلى واقع الحياة الطبيعيّة،

البعيدة عن التصنّع والتكلّف، وكن كما أنت بلا زيف ولا خداع، حقيقة لا وهماً.. وإلّا فإنّك تكتب الشقاء على نفسك بنفسك..

* * * * *

تبرّأ من حولك وقوّتك يمدّك الله بحوله وقوّته..

* * * * *

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون﴾ [الذاريات: ٢١]. ما أشبه اختتام العام باختتام الأجل! ينتابنا شعور بأنّ شيئاً ينتزع من أنفسنا، قد ألفنا وألفناه.. ثمّ ها هو يفارقنا إلى غير رجعة إلينا، وسيرجع إلى ربنا كما نرجع، فهل يكون شاهداً لنا أم شاهداً علينا؟!

* * * * *

لا يُغني المستَنفَرون على الجبهات عن المستَنفَرين بالسجدات..

فإن حُرمتَ من الأولى فلا تَحرم نفسَكَ مِن الثانية..

* * * * *

الحبُّ في الله، ولله رحمة، بل هو أوسع أبواب الرحمة.. وإنّ نتيجةَ المحبّة غير المشروعة معاناةُ عذابٍ بلا رحمة.. وانظر حياة أدعياء الحبّ ومفسديه تَرَ برهان ذلك أوضح من العيان..

جدّدوا الحبّ فيما بينكم، فإنّه يعتريه الذبول والضمور، والخمول والآفات، وتعدو عليه العاديات، وتعصف به رياح الخلافات.. أحبّكم في الله..

أحبّكم الله جميعاً، وجعلنا يوم القيامة على منابر من نور، وفي ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه.

* * * * *

الحياةُ الطيّبة سرّ السعادة المتجدّدة، ولا تكون حياةُ طيّبة إلّا بالإيمان والعمل الصالح، وقوّة العزيمة والمجاهدة، والمحاسبة الدقيقة، وحمل النفس على التغيير.

* * * * *

التألّي على الله تعالى درجات أقلّها، وهو محرّم ومن كبائر الإثم: أن يتألّى على الله تعالى في شؤون الدنيا: «فلان لا يوفّقه الله في عمله.. في تجارته.. في دراسته.. فلان لا يزوّجه الله في عشر سنين.. فلان سيبقى فقيراً مدى الحياة.. سيبقى فاشلاً طول حياته!

ثمّ ترى الله سبحانه يخزي هذا القائل المُتألّي لسوء أدبه، ويجبر من انتُقِص حاله، وكسر خاطره»، وسبحان المُربّي لعباده بالسرّاء والضرّاء، وله الأمر كلّه، دقّه وجلّه..

* * * * *

قضى اللهُ أن يبتلى الأذكياء بالأغبياء، والمؤمنون بالسفهاء، وجعل لكلّ داء دواء، لتكمل حقيقة الابتلاء.

* * * * *

الزم غرز الكبار تكن كبيراً..

* * * * *

كلُّ مفقود في هذه الدنيا يمكن أن يعوَّض، إلَّا الإنسان لا يمكن أن يعوَّض فقده أو انحرافه..

الإسلام يضنُّ بالإنسان، ويُغلي حياته.. وأعداء الإسلام أرخص شيء عليهم هو الإنسان..

* * * * *

الإخلاص روح الأعمال، وسرّ الفتح والتوفيق، وباب الرضا والقبول، ولا يزال المخلص محفوفاً بعناية الله ورعايته، فلا تزلّ له قدم، ولا يصرّ على زلل، وغير المخلص يتخبّط في ظلمات ومزلّات لا تنتهي، لأنّه يجري مع أهوائه، ويفلسف أخطاءه وسقطاته، وبينها وبين رقيّ المؤمن في مدارج الكمال، كما بين السماء والأرض..

* * * * *

طريق اتّباع الهوى طريق ملتوٍ متعرّج، كثير المشكلات والعقبات، له ضريبته الباهظة الفادحة، وهو مضمون الفشل، وفساد الآثار والنتائج..

وسبيل الحقّ مستقيم واضح، وهو مضمون النتائج، وقد تكفّل الله تعالى بولاية أهله ورعايتهم: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين﴾ [الأعراف: ١٩٦].

* * * * *

عناد الهوى طفولة عقليّة، لا خير فيها، ولا جدوى منها..

ولا خير في الإنسان إن لم يطوّع هواه لشرع ربّه، ومقتضى العقل والرشد، وإلّا فسيبقى في طفولة عقليّة، لا يخرج عن إطارها، ولو أصبح بجسم الأبطال، ووزن الجِمال..

وما يقبل من الأطفال لأنّه يتناسب مع سنّهم وبراءتهم، يعدّ من الرجال حماقة، تحطّ من قدرهم.. فاربأ بنفسك أن تكون بسنّ الرجال، وعقل الأطفال.

* * * * *

من وقف بصدق على أعتاب العبوديّة لله تعالى لا يضرّه على أيّ لون من البلاء تقلّب، سرّاء كان أو ضرّاء، وإن كان لسان مقاله وحاله يقول كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «غيرَ أنَّ عافيتَكَ أوسَعُ لي»، ويقول لأولئك المخذّلين والشامتين، والبائسين الخائفين، ولو كانوا في صورة المنتصرين:

إذا رضِيَت عَنّي كرامُ عَشيرتي ... فلا زالَ غَضباناً عليّ لئامُها

وليعلم هؤلاء وغيرهم جميعاً أنّ تمكّن أهل الباطل، والظلم والفساد، في غفلة من أهل الحقّ وعجز وقصور، لا يقلب الحقّ باطلاً، ولا الباطل حقّاً، وإنّا لعلى يقين بالله تعالى أنّ العَاقِبَةَ للمتّقين، والله وليّ المؤمنين: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، و﴿للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤]، وإنّا على العهد يا ربّنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

* * * * *

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ [الفرقان: ٢٠].

بين البلاء والتمكين مراحل ومفاوز، دونها عقود من السنين، يتجلّى فيها صدق الصادقين، وصبر الصابرين، وحكمة الأئمّة الربّانيّين، ويكشف الله زيف الأدعياء، ويتّخذ من عباده الشهداء، ويفضح المنافقين، ويبتلي الله الأمّة لتَصحوَ من سباتها، وتنتفض من غفلاتها، وتستدرك تقصيرها، وتعود إلى منهج ربّها.. أفتحسبون بعد ذلك أنّ الابتلاء شرّ لكم؟!

* * * * *

المؤمنون الصادقون يخرجون من كلّ بلاء كالذهب الخالص، لا تضرّهم محنة، ولا تفتّ عضدهم فتنة، ولا يزيدهم البلاء إلّا صبراً ويقيناً: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

* * * * *

أرض مكّة.. بأهلها وأصلها الطيّب، الضارب في أعماق التاريخ الإنسانيّ إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام.. وبادية جزيرة العرب، بقبائلها المتنوّعة، ولغاتها ولهجاتها، ومنازعها واهتماماتها.. كلّ ذلك كان منجماً ثريّاً، قد ادّخر الله فيه نفائس المعادن والكنوز.. ليأتي محمّد بن عبد الله، برسالة السماء، وبما قدّر الله له من الزمن، ليكشف خبيئها، ويزيل الركام عن كنوزها، ويميط اللثام عن عبقريّة رجالها ونسائها، ويصنع منها بإذن الله حبّات عقد ثمين، يطوّق به جيد الزمن أبد الدهر..

فكان ذلك الجيل الصورة العمليّة لرسالته، والمرآة المجسّمة عن جهاده ودعوته، فاستحقّ من الله وسام الجمع والاقتران: بين: «مُحمّد رسول الله والذين معه» واستحقّ من رسول الله تلك الشهادة الكبرى، التي تستغرق التاريخ كلّه: «خير القرون قرني».. وتقوم حجّة على الناس إلى يوم الدين..

* * * * *

أسرار الأذكار لا تحيط بها العقول والأفكار.

* * * * *

بين جلد الذات، التي هي «الأنا» الكبيرة، ومحاسبة النفس التي هي «الأنا» الصغيرة ساءت الظنون، وكثرت الافتراءات، وضاعت الحقوق، وتعطّلت المسؤوليّة، وعاش كثير من الناس في حلقة مفرغة.. وهذا غاية ما يريده شيطان الجنّ والإنس للإنسان، حتّى ينقله إلى مطبّ آخر، وحفرة أعمق..

* * * * *

عندما تتعلّم النجاح تعجز عن الغشّ ولا تستطيعه..

* * * * *

الغشّ بكلّ أنواعه ومجالاته برنامج إخفاق، لا يقدر عليه الجادّون الناجحون..

* * * * *

النجاح بالغشّ وهم خادع، وسراب كاذب؛ لأنّ سنن الله لا تقوم على الكذب والتزوير..

* * * * *

عندما تنهزم النفس في معركة الهوى والشيطان، فلن تنتصر في معركتها مع الإنسان!
عدوّك الخفيّ في داخلك أخطر من عدوّك الظاهر..

* * * * *

أعلى النموذج

في بداية سبعينيات القرن الماضي كنت شاباً ممتلئاً حماساً لا أدع مناسبة تفوتني في حلب، سوريا، مدينة الفنون والعلوم والصناعات.. عالم وفيلسوف فرنسي وجودي (لم أعد أذكر اسمه بدقة) يناقش الشيخ أحمد عز الدين البيانوني رحمه الله، وكنت حاضراً للنقاش..

يسأل الفيلسوف الوجودي: مساجدكم تنار بفضل أديسون واكتشافاته التي غيرّت وجه العالم، هل يعقل أن يذهب للنار هو، وراعي غنم منكم يكرمه ربكم بالنعيم الخالد في الجنة؟!

يرد عليه الشيخ أحمد عز الدين البيانوني رحمه الله وهو واثق فيقول: نعم سيذهب مخترعكم للنار، لأنَّ عقله هداه للكهرباء ولم يهده للخالق العظيم، وراعي غنماتنا سيذهب للجنَّة؛ لأنَّ عقله هداه للخالق العظيم.. مخترعكم تمنَّى نصباً تذكارياً بعد وفاته فكان له ذلك..

وراعينا تمنَّى جنَّة عرضها السموات والأرض فستكون له بإذن الله..

(عادل داود أوغلي)

نعم كنت شاهداً هذا الموقف، ولا زلت أستحضره، وكأنّه صورة حيّة أمام ناظريّ.. رحم الله شيخنا، وجزاه عنّا خير الجزاء، وجزى الله خيراً أخي عادل داود.

* * * * *

أكثر الناس عيوباً أكثرهم اشتغالاً بعيوب الناس، وافتراءً على الناس..

لأنَّ من اشتغل بعيوب الناس لا بدَّ له أن ينزلق إلى الافتراء على الناس..

* * * * *

شتَّان من يمضي حقيراً إلى مزبلة التاريخ، تشيّعه اللعنات والغضب.. وبين من يمضي مرفوع الرأس إلى دار الخلد في جنّات النعيم، نحْزَنُ عليهم هنا في عالم الأرض، وهم هناك فرحون، مُستبشرون..

* * * * *

العِيدُ أنْ تحلّقَ رُوحُكَ معَ الملأ الأعلى، ويُشرقَ قَلبُكَ بالحبّ الأسمَى، وتَصفُوَ نَفسُكَ مَعَ مَن صَفا، وتَهنأَ حَياتُكَ بقُرب الله وذِكرِه..

* * * * *

كثير من الحجّاج، إن لم نقل أكثرهم يأتيهم الحجّ هبة من الله ظاهرة، مفاجئة ميسّرة، وربّما لم تكن تخطر لهم على بال، بل يحسبونها من المستحيلات، نظراً لظروفهم غير المواتية، وهذا أبلغ في بهجة الحاجّ التي لا توصف..

ولعلَّها من مؤشّرات القبول عند الله تعالى.. ومن هنا شاع عند العامَّة قولهم إشارة إلى هذا المعنى: «فلان معزوم»! إذا قدّر له الحجّ دون تخطيط منه وترتيب..

* * * * *

إنَّ نواصيَ العزَّة معقودة بباب الله تعالى، لا بباب أحد من البشر، مواسمها عديدة، وموائدها ممدودة، وعواقبها محمودة، وبركاتها مشهودة..

* * * * *

البؤساء التعساء في هذه الحياة هم الذين تأتيهم النعمة يميناً فيرمونَها شمالاً، وتأتيهم بين أيديهم، فيَرْمونها خلفهم، ولا يزالون كذلك حتّى تُسْلَبَ منهم النعم، فيَندمُون أشدَّ الندمِ، ولاتَ سَاعةَ مَندم..

* * * * *

إنّما العِلم ما أورث خشيةَ الله تعالى، وكان سبيلاً للعمل الصالح، وكثير من علم الناس لا يكون إلَّا سبيلاً للجدل، وكثرة القيل والقَال في مسائل لا يمكن أَن يحسم أمرها، ولا يضرّ الجهل بها. وحقٌّ على طالب العِلم قبل أن يدخل في جدل عَقيم أن يبحث عن ثمَرة جداله، فإن لم تكن لَهُ ثمَرة أعرض عنه، فإنّه أَشبه بالجهل منه بالعلم.

* * * * *

انهض وجرِّد همما ... وللتداني يمِّما

أرادك الله رائداً من روّاد الطريق، فلا تقعد على قارعة الطريق..

دعاك الله لمجالس القرب، فلا تخدع ببوارق الحجب..

* * * * *

الأرض العطشى تتلقّى كلّ قطرة ماء بشغف، وتحتضنها بحبّ.. ويرجى لها أن يكثر إنتاجها، وتطيب ثمرتها.. هكذا هم أهلنا وإخواننا في المخيّمات، رجالاً ونساءً.. إقبال على العلم بهمّة، وقطع للعوائق بعزم وصدق.. أسأل الله تعالى أن يثبّتهم على الحقّ، ويسدّدهم وينفع بهم.

* * * * *

الحقيقة يدّعيها كلّ الناس.. وهي أعظم خصم يوم القيامة لأكثر الناس..

* * * * *

في لحظة الألم الصاعق، الذي تعجز لغات الأرض عن التعبير عنه.. لا يسع العظماء إلَّا السكوت في دنيا الناس، والتوجّه بصدق القلب إلى باب الربّ سبحانه.. وقد تحوّل أكثر الناس حولهم إلى ذئاب بشريّة، تنهش أجسادهم، وتفري أعراضهم..

وخير ما عبّر عن هذه الحالة الروحيّة الوجدانيّة، تلك الدعوات الضارعة، التي رفعها سيّد الأنبياء والمرسلين صَلواتُ الله وسَلامُه عليه إلى ربّه، بعد رحلة الطائف الدعويّة الشاقّة، التي أخفقت في ظاهر الأمر.. ولكنّها حملت في طيّاتها أبلغ الدروس الدعويّة عن صلة الداعية بربّه، وصدق تعلّقه بجنابه، والتجائه إلى بابه..

يقول المصطفى صَلواتُ الله وسَلامُه عليه: «اللّهُمَّ إليك أشكو ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو تحلّ بي سخطك، لك العُتبى حتّى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلَّا بك».

إنَّ لحظة الألم الصاعق، لا بدَّ أن تتحوَّل عند العظماء إلى عمل صادق، بعد أن كانت تخاصم العمل الجادّ كما تخاصم عدوّها..

* * * * *

إنَّ الداعية إلى الله تعالى لا يهمُّه إلَّا رضا الله وحده، فلا يهمُّه رضا الكبراء والزعماء، ولا رضا العامة والدهماء، ولا يتعلَّق قلبه بعرض من الدنيا، أو جاه بين الناس، وإنّما همُّه الأكبر أن يقبل الله جهاده، وأن يمنَّ عليه بمرضاته.. وليشمت بعد ذلك الشامتون، وليفرح أولئك العابثون المخدوعون: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧].

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* * * * *

«لا تيأس ولا تستسلم»، عندما تكون في الطريق الصحيح، والسبيل القويم..

أمّا عندما تكون في طريق معوجّ مظلم، تتيه كلّ ساعة في منحنياته وتعرّجاته، فليس لك أن تخدّر نفسك ومن حولك بمثل هذه الكلمات!

* * * * *

حسبنا الله ونعم الوكيل! لقد أخذ العجب والغرور بالنفس، مع قلّة العمل وضحالته من أنفس بعض الناس حجماً كبيراً.. فترى أحدهم لم يملك من العلم قطميراً، ويظنّ نفسه قد أصبح عالماً كبيراً..

الغرور بالنفس داء مزمن فتّاك لا يبالي به أكثر الناس..

* * * * *

رُؤية مَحاسِن الخلق:

من الكلمات المأثُورة عن أكابر السادة الصوفيّة قولهم: «رُؤية أعذار الخلق»، ويعدُّونه من أهمِّ آداب التصوُّف، وله من الأدلَّة الشرعيَّة ما يثبته ويصدِّقه..

وأظنُّ أنَّ هذا الأدب يتحدَّث عن العلاقة مع العامَّة.. أمّا العلاقة مع الخاصَّة فينبغي أن يحكمها ما هو أرقى من ذلك، وهو «رُؤية مَحاسِن الخلق».

وإنَّنا على مستوى العلاقات الإيمانيَّة والدعويَّة الخاصَّة إن لم نتعامل على هدي هذه القاعدة الإيمانيّة، التي يؤيّدها العقل والمنطق، ويؤكّدها الواقع، فلن تستقيم لنا علاقة أخوّة،

ولن تدوم لنا رابطة مودّة.. وسنجد أنفسنا مع الزمن نخسر كثيراً ممّن كانوا أقرب الناس إلينا، وأصفى أهل الودّ معنا.. ثمّ لا يدفعنا ذلك إلى تقويم أساليبنا ومواقفنا، بل نضع اللائمة دائماً على الآخرين، ولا نتورَّع عن وصفهم بكلِّ نقيصة..

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

ومَن ذا الذي ترضى سجاياه كلّها؟ ... كفى المرءَ نبلاً أنْ تُعَدَّ معايبه

* * * * *

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٣].

هذه الآية الكريم جعلها شيخنا الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني رحمه الله شعاراً لجماعته، يفتتح بها إخوانه لقاءاتهم الدعويّة ومجالسهم.. وهي حَريّة بذلك لما أنّها تعلن حكماً قاطعاً إلَّا أفضل عند الله، ولا أعظم عملاً ممّن يدعو إلى الله على بصيرة، فيهتدي على يديه من شاء الله له الهداية، فينقذه الله من الضلال إلى الهدى، ويخرجه من الظلمات إلى النور، ويزحزح بسببه عن النار ويدخل الجنّة.. فأيّ عمل أحسن وأعظم من ذلك؟!

ولا يكون المؤمن من أهل هذه الآية الكريمة إلَّا إذا تحقّقت فيه شروط هذا الشرف العظيم، كأيّ عمل صالح، لا بدَّ أن تتحقَّق فيه شروط صحَّته وقبوله..

وأهمُّ هذه الشروط: الإخلاص، وموافقة العمل لهدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسنّته، وأن يتجرّد العمل عن حظوظ النفس وشوائب الهوى، ممّا يتنافى مع الإخلاص وكماله..

* * * * *

البِرُّ عنوان النفوس الزكيَّة، والأخلاق الرضيَّة.

* * * * *

لا يزال الرجل طفلاً بين يدي والديه، فلا تتنكَّر لطفولتك.

* * * * *

برُّ الوالدين ليس تناوباً وظيفيّاً، بين الأولاد على خدمة الوالدين، بل هو تنافس وتزاحم على أبواب الجنَّة.. وهي تتّسع لما لا يحصى من الناس.. فطوبى لمن سبق وفاز..

* * * * *

﴿مِنكُم مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

تقسم هذه الآية الناس فريقين: مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا، وَمن يُرِيدُ الآخِرَةَ.

ولو دقّقنا النظر بهذين الفريقين لرأينا أنّهما ينقسمان إلى نوعين:

مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا بعمل الدنيا.

وَمن يُرِيدُ الدنيا بعمل الآخِرَةَ.

وَمن يُرِيدُ الآخِرَةَ ويهمل الدنيا.

وَمن يعمل في الدنيا، ويسخّرها للآخِرَةَ.

وكُلُّ نوع يتدرَّج درجات، لا يعلم عددها ومداها إلَّا الله..

* * * * *

اجعل من دعائك عدوّاً لدوداً لبلواك، لا يغادرها حتّى تغادرك.

* * * * *

«أنا»

حجاب غليظ عن باب العبوديّة.. وحاجز كثيف عن مراقي الأدب ومقاماته.. ومرتع وخيم للنفس ورعوناتها.. يتخمها بالدعاوى، فتقعد عن العمل، إن عاجلاً أو آجلاً.. أو ترضى بما هي عليه فلا تستجيب للخير، ولا تستزيد..

وإذا أراد الله للـ «أنا» أن ترقى وتتهذّب أذابها في «نحن» الراشدة المهديّة، فتربّت في محضنها، وكسرت غلواءها، وتفيّأت ظلالها، ونعمت بآدابها، وجمعت فضائلها إلى إمكاناتها، وكانت حصنها الحصين بإذن الله من كلِّ زيغ أو انحراف..

ألـ «أنا» مَظنّة لكلّ شرّ وانحراف، وما كان نكرانها مع العمل مَظنّة شرّ أو انحراف.. فكيف لمؤمن عاقل بصير، يعرف مداخل الشيطان وخطواته، ودسّ النفس وتمويهها، أن يقف معها مدافعاً، أو يبرّر لها مسالكها..

إنّها السمّ الذي يأتي على الطعام الطيّب فيفسده، والعلّة التي تتسلّل إلى الجسد فتقتله..
وأظهر ما يظهر تمرّد ألـ «أنا» المفسدة وتمكّنها عندما تستنكف عن قبول الحقّ، وتستعصي على الاستجابة للنصح والتذكير. من «دِيوان الأدَوَات».

* * * * *

عَبَقُ الذكريات!

لكلّ منّا ذكرياته الخاصّة من سالف أيّامه، تختزن في ذاكرته، وتستعصي على النسيان، مهما تقادم عليها الزمان.. تلك الذكريات لها عبقها الخاصّ، ولها لذّتها الخاصّة، التي يستمتع بها، ولو لم تأخذ ذلك الاعتبار والاهتمام عند الآخرين.

عَبَقُ ذكرياتِك يجعل لبعض الطعام والشراب مذاقه الخاصّ، ولبعض اللباس مأثرته وخصوصيّته، ولبعض الأعمال والمشاعر نكهتها الخاصّة.. ولا مقام هنا للحديث عن عكس ذلك من ذكرياتِ الألم، ومخزون البلاء، فلكلٍّ مقام مقال..

ومن الذكريات ما يشترك فيه المجتمع، ومنها ما تجتمع عليه الأمّة، فيكون جزءاً من تراثها الحضاريّ، ومخزونها الثقافيّ، الذي يتغنّى به الرجال، وتتناقله الأجيال..

وعندما لا يكون لأمّة مّا مخزون ثريّ من الذكريات الجميلة، التي تعتزّ بها وتفخر، فإنّ مفكّريها وأدباءها ينقّبون في ماضيها، وينسجون الكثير من المفاخر على قليل ما عندها من الأمجاد، ويعملون على بثّها في الجماهير، لتكون الثقافة الحاضرة، التي ينسج عليها الخيال ما شاء من المآثر والذكريات..

عبق الذكريات يتّصل بالزمان والمكان والإنسان، ويحرّك الوجدان.. وهو أمر من فطرة الله لهذا الإنسان، له أصل أصيل من كتاب الله تعالى، وسنّة نبيّه صلّى الله عليه وسلّم..

عبق الذكريات يضفي على الأحكام الشرعيّة صبغة خاصّة، ويضفي على المكان روحاً، تربط الحاضر بالماضي، وتمنح المكان خصوصيّة متجدّدة، من قدس النبوّة، وبركة الوحي، وقيم الحقّ.

أليست شعائر الحجّ تحمل عبق ذكريات المكان والزمان والإنسان.. وتضع ذلك في إطار التشريع الربّانيّ، الذي يتقرّب به العبد لخالقه، وهو يستحضر تلك الذكريات، فيكون للتشريع مذاقاً خاصّاً، ونكهة روحيّة، وكأنّه شخص صديق حبيب، يحدّثك وتحدّثه، ويناجيك وتناجيه..

عبق الذكريات يلقي ظلالاً من الحبّ والأنس على الواقع الذي يعيشه الإنسان، مهما بلغ من بؤسه وضرّائه، فيخفّف من ثقله ولأوائه، بل يحيله متعة روحيّة خالصة، لا مكان فيها لمشقّة التكليف والابتلاء.

عبق الذكريات لا يعني الشطط والغلوّ في تقديس ذي الخصوصيّة، وإنّما يعترف بحقّ ذي الفضل، ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه.

عبق الذكريات يضفي على هذا الدين بعقيدته، وعباداته، وتشريعاته وأخلاقه، روحاً من الحبّ والأنس، لأنّ كلّ حقيقة من حقائق هذا الدين تحمل ذكريات من حياة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وسيرته العطرة، وحياة الرعيل الأوّل الذين تمثّلوها بكلّ صدق وإخلاص، وعاشوها بأرفع مشاعر الحبّ والالتزام، والتضحية والفداء.. فهذا بلال رضي الله عنه يبتلى في عقيدته أشدّ الابتلاء والعذاب، فلا يزيد على قول: «أحد.. أحد» يُعذّبُ بها مُعذّبيه.. وهذه سميّة زوجة ياسر رضي الله عنهما، تعذّب حتّى تستشهد تحت العذاب.. وهذا ابنها عمّار رضي الله عنه يعذّب حتّى لم يعد يطيق شدّة العذاب، فينطق بكلمة الكفر، وقلبه مطمئنّ بالإيمان..

والرعيل الأوّل أُمِرَ بقطع كثير من التقاليد والأعراف والعادات، التي ألفها إلى درجة التقديس، وكانت جزءاً من شخصيّته وحياته، فتركها غير مبال بها، ولا آسف عليها.. أُمِرَ بترك الخمر فأراقها.. وأُمِرَ بأحكام جديدة كلّ الجدّة في علاقاته الأسريّة والاجتماعيّة ل فسارع إلى الالتزام بها.. وكان لسان حاله في كلّ شأن، ومقاله: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقس على ذلك كلّ العبادات والقيم والأخلاق، وطالع نماذج ذلك في حياتهم، لترى كيف تتضوّع لك بعَبَقِ الذكريات.. فتصل حاضرك بذلك الماضي المجيد، وتضفي عليه حياة، لا يشبهها شيء من هذه الحياة..

واعجب بعد ذلك كلّه، من قوم يريدون أن يحجبونا عن عَبَقِ الذكريات الجميلة، بأوهام وترّهات عليلة..

* * * * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ـ ٣].

الكلام إن لم يتبعه العمل، فهو هباء لا وزن له.. وليس في شيء من سنن الله تعالى أنَّ سلاح الكلام يغلب قوَّة الحسام، إلَّا إذا كان وراء الكلام فعلاً أوقع من بأس الحسام..

* * * * *

ما أحسن عزّة المؤمن عندما ترسم له منهج حياته!

* * * * *

الحُبُّ رُوحٌ تزيد الحَسَن حُسناً، وتخفّف من وقع ما ليس بحَسَن وتأثيره..

* * * * *

ما أخذ الله ما أخذ إلَّا لحكمة، وما أبقى ما أبقاه إلَّا لرحمة، ولن يضيع المؤمن بين حكمة ربِّه ورحمته، فاللّهُمَّ اجعلني لا أغفل عن حكمتك، ولا أقنط من رحمتك.

* * * * *

المواقف الخاطئة، والممارسات المنحرفة عن دين الله تعالى ليسَت حَكَماً عليه، ولا حُجّة لمناوئيه، بل هو الحجَّة على فاعليها، بحقائقه القاطعة، ومبادئه الراسخة.

* * * * *

لله درّ المروءة تأبى أن تخفى، وليس لصاحبها إلَّا الجزاء الأوفى.

* * * * *

علّمني حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّي لن أكون مؤمناً حتّى أعيش مُحِبّاً، فقال صلّى الله عليه وسلّم: (لا يُؤمِنُ أحدُكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنَفْسِه). رواه البخاري.

ولا أدخل الجنّة حتّى أكون مؤمناً مُحِبّاً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ». رواه مسلم.

* * * * *

لكلّ إنسان منظاره الخاصّ ورؤيته، لواجباته ومسؤوليّاته، وأولويّاته..

ونحن عندنا ولوع مَرَضِيّ مزمن قاتل أن نعلّق مشكلاتنا على الآخرين، ونوجب عليهم ما لا يجب، ونهمل واجباتنا، ونبرّر لأنفسنا تقصيرنا.

ألم يقل حكماؤنا:

ما حكّ جلدَكَ مِثلُ ظُفرِك ... فتَولَّ أنتَ جميعَ أمرِك

* * * * *

صَفَاءُ القلب من صَفَاء المعرفة، وكدره من اشتغالك بهموم الخلق:

من أعظم النعم التي لا يعرف كثير من الناس قدرها: نعمة صفاء القلب والحال مع الله تعالى، الذي هو أثر عن صَفَاء المعرفة بالله تعالى.. ولا ينال العبد كلا الصَّفَاءين إلَّا بتوفيق الله تعالى ومحاسبة النفس ومجاهدتها، وصفاء القلب من هموم الخلق وشؤونهم.

فدعك من كلّ ما يكدّر قلبك، ويحرمك من نعمة صَفَائه.

* * * * *

العلماء الربَّانيُّون هم الجسر الواصل بَيْنَ الأمَّة وبين الكتَاب والسُّنَّة، وهم أهل الذكر بنصّ القرآن، وورثة الأنبياء بنصِّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، الذين أمرنا بالرجوع إليهم، والأخذ عنهم، ومن انتقص من مكانتهم فكأنَّما يطعن بمن زكَّاهم.

* * * * *

أنت تصنع «الفعل» أحياناً، ولكنَّك لا تملك «ردَّة فعل» الطرف الآخر، ولا تدري كيف تكون؟! فاحرص على أن يكون فعلك لا بدَّ منه..

* * * * *

عندما يتمكَّن حُبُّ الطاغوت من قلوب أوليائه فلا عجب أن يروا كلَّ البشر فداءً للطاغوت الذي يقدِّسونه، وتلكم هي العبوديَّة لغير الله في أظهر صورها، مهما حاول أصحابها أن يلتفُّوا عليها بتبريرات سخيفة..

* * * * *

واضرب لهم مثلاً يوسف عليه السلام.. فكن مع الله تعالى يَصنَع لك أجمل الأحلام، ثمَّ يَصنَع لك الأقدار، ويسخِّر لك كلَّ شيء لتحقيقها.. وكان ربُّك قديراً..

* * * * *

يأبى الله تعالى بحكمته ورحمته إلَّا أن يجعل مع زينة الدنيا ومتعها شدائد ومنغّصات.. ومع شدائدها وابتلاءاتها ألطافاً ومعونات.. إنّه الرحمن الرحيم سبحانه..

* * * * *

العيد شعائر ومشاعر.. يقف الزمان على أعتابها خاشعاً متبتّلاً.. تفرض على الأمّة حقائقها، وتسمو على أحزان النفس وآلامها، وتستبدل بأشجان الروح طاقة من الحبّ والشوق، والرحمة والرفق، وتفرض على النفس تجديد الحياة مهما فرضت الحياة أثقال ابتلاءاتها..

ومن أراد العيد لهو الدنيا وعبثها فحسبه أنّ العيد حرمه من أسمى معانيه، ولم ينل منه إلَّا أقلّ ما فيه..

* * * * *

هل تعلم أنّ أولى الأولويات في حياتك أن تعمل على إنقاذ نفسك، ولا يكون لك ذلك إلَّا بتربيتها وتزكيتها على منهج الحقّ، من كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم،

وأخذها بعزائم المجاهدة حتّى يسلس لك قيادها.. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩ـ ١٠].

* * * * *

إذا أراد الله بعبد خيراً جعله ينظر إلى عباده المؤمنين بعين الخصوصيّة، وينظر إلى نفسه بعين النقد والاتّهام.

* * * * *

إنّ أمّة تسترخص دماءها في سبيل حرّيّتها وكرامتها لن تنكسر إرادتها، ولن تموت بإذن الله، ولن تغلب، مهما طال طريقها، واشتدّ ابتلاؤها، وتكالب عليها أعداؤها..

* * * * *

المحور الأكبر الذي يدور عليه كتاب الله العزيز هو العبوديّة، ويتجلّى في ربوبيّة الله تعالى، وعبوديّة الخلق لله أجمعين، وما يتبع ذلك من تقرير النبوّات والشرائع، والمعاد والحساب، والمسؤوليّة والجزاء.

والمقصد الأكبر الذي تقوم وتبنى عليه العبوديّة هو التقوى بمعناها الكبير، وحقائقها الشاملة..

ورأسُ التقوى أن يُخشى الله ويتّقى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر ولا يكفر، ويطاعَ ولا يعصى..

* * * * *

رحم الله شيخنا الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني، ورفع منزلته عنده، فقد كان علماً من أعلام التربية الإسلاميّة العمليّة، مع الشمول في الفهم، والتجديد في الأساليب والوسائل، والحرص على الأخذ بالعزائم.

* * * * *

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

الهداية بِأَمْرِ الله وتشريعه أعلى شأناً وأجلّ قدراً من الهداية بالقول، وما هداية القول إلَّا وسيلة إلى هداية العمل.. وهداية العمل من مقتضى الإيمان واليقين بالله تعالى؛ فاليقين بأجر العمل وبركاته، وثمراته وآثاره لا بدّ أن يحفّز إلى العمل، ويدفع إليه، ويقطع العوائق، التي تحول بين العبد وبينه..

* * * * *

هديّة الحبّ والوفاء المعنويّة أدوم زمناً، وأقلّ تكلفة، وأبلغ تأثيراً، ونحن أحوج ما نكون إليها لإصلاح علاقاتنا، وحلّ مشكلاتنا..

والهديّة المعنويّة يمكن أن تشمل ما لا يحصى من الناس، وهي لا تحتاج إلَّا إلى صدق المشاعر، والعفويّة وعدم التكلّف.. وكلّ الناس بحاجة إليها بلا استثناء..

* * * * *

قصّة الشهادة تجتمع في شهيد، وتتفرّق في شهداء..

شهداؤنا الأبرار صورة ناصعة، وأدلّة دامغة، وحجّة بالغة على طهر هذه الثورة ونقائها، مهما أحاط بها من دخن، وشوّه صورتها المشوّهون.. وليس ذلك بدعاً في أيّ مجتمع بشريّ، وبخاصّة في مراحل استضعاف الأمّة، وكثرة الأعداء وتسلّط المنافقين.

بوركت يا دمَ الشهيد! فلأنت معلم الطريق ومناره، ومجده وعنوانه!

ولئن تاهت عقول أقوام، وغشيت من كثرة لافتات الخداع والتزوير، فإنّ في زكيّ عملك، وطَهُور دمائك ما يغسل غواشي الزيف والتضليل..

لقد حسب الأغبياء أنّهم أنهوا حياتك إذ قتلوك، وما علموا أنّهم قدّموا لك وسام العزّ والخلود.. وكتبوا لأنفسهم حياة الذلّ وهوان العبيد..

يخافون ذلّاً من خَيال مُرقّق ... ويَقضُون ليلاً بالهواجس والدمِ

* * * * *

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [الفتح: ١٨].

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ها هنا السرّ.. وما أكثر الذين يخادعون أنفسهم ويخادعون الناس.. ثمّ يستبطئون ما ليس لهم إليه أدنى سبب؟!

* * * * *

الألم يعتصر القلب عندما نرى غرباء يقتحمون الأهوال والأخطار ليقدّموا شيئاً من المساعدة الإنسانيّة لشعبنا المنكوب، وأبناء الأمّة يتذرّعون بشتّى الذرائع ليتهرّبوا من واجبهم الشرعيّ والأخلاقيّ..

* * * * *

ما أطول ليل أولئك الذين لم يبد لهم ضوء النهار، بعد كلّ هذه الأنوار، وبعد فضائح الأشرار والفجّار؟! لعلّهم من أهل تلك البلاد، الذين يطول عليهم الليل، ولا يعرفون النهار..

* * * * *

من عاش مع الله: (طاب عيشُه) ومن عاش مع هواه: (طال طيشُه).

* * * * *

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾، شرط جوابه: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٠]. «فعلى قدر صلاح النّوايا تأتي العطايا». ابن القيم.

كلُّ خير أُخذ منك أو كنت ترجوه وحُرمته.. فثق بوعد الله أنَّه سيؤتيك خيراً منه إن لزمت الشرط، والله لا يُخلف الميعاد.

* * * * *

﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

العُبوديّة الصادقة تقود إلى الربّانيّةِ الخالصة، ومن ذاق لذّة تكليف العُبوديّة انتقل إلى لذّة تشريف الربّانيّةِ.. فأنّى له أن ينافس المتنافسين في اهتماماتهم الصغيرة، المغمورة بمستنقع الدنايا؟! وإنّ موازين الرَّبَّانِيِّينَ لا يعرفها أسرى الدنيا وأهوائها..

ورُبَّ أسير طليق حُرّ.. وحُرّ في ظاهر الأمر لم يَفتكّ من الأسر..

الحُرّيّة حُرّيّة القلب.. والأسر أسر القلب.. وهل السجّان إلّا أسير سجينه؟

* * * * *

يستفيد الإنسان من تجارب الحياة بأحد طريقين:

إمّا من تجربته الشخصيّة حلوة كانت أو مُرّة.. وقد يدفع فيها ثمناً باهظاً..

أو بالإصغاء إلى تجارب العقلاء، بعقل منفتح ورغبة صادقة بالانتفاع.. وما أقلّ هؤلاء..

أكثر المستمعين لتجارب العقلاء الحكماء يستمعون، وهم يردّون في سرّهم على كلّ كلمة يسمعونها.. فأنّى لهم أن ينتفعوا؟!

* * * * *

كن من جند الحقّ ولا تبالي:

الألم لحظة حاضرة، لا تلبث أن تدخل ماضي الذكريات.. فإذا اقترن بالإيمان والرجاء ذهبت غصصه وأحزانه، وبقيت مشاعر الإيمان الإيجابيّة المحلّقة، وأهمّها الشعور بقوّة الاتّصال بحبل الله المتين، والاعتزاز بالانتماء للحقّ، ولذّة الانتصار على ضعف النفس، وشياطين الجنّ والإنس.. والتطلُّع إلى المستقبل المشرق، بالوعد الربَّانيّ الصادق: ﴿وإنَّ جُندَنا لهُمُ الغَالِبُونَ..﴾ [الصافات: ١٧٣].

* * * * *

لا عجب أن يرميك البعيد بالسهم الجارح، ولكنَّ المؤلم غاية الألم أن يرميك القريب.. من تُكنّ له الحبّ والإخلاص!! وتقف معه في كلِّ ابتلاء مخفّفاً ومواسياً..

فاعمل لله، ومع الله.. فإنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً..

* * * * *

﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٥ـ ٧].

وبعدُ.. وبعدُ.. وبعدُ.. فبكلّ يقين واطمئنان: لا بدّ من نهضة الأمّة من كبوتها، لا بدَّ بعد هذا الليلِ القاتم من فجر باسم.. وإنَّ غداً لناظره قريب..

فتلك سنّة الله تعالى في خلقه، وليست عاطفة جامحة، أو مراهنة خاسرة، أو سفه عقل أو معاندة..

فضَع بصمتك على هذا الغد القادم، وكُن من صُنّاعه، لا من صُنّاع الظلمات.. كُن من صُنّاع النور، ولا تكُن من مُروّجي الظلمات..

* * * * *

الواعظُ المؤثّر مَن يَعظُ الناسَ بحاله لا بقَاله.

* * * * *

الحرية الحقيقيّة لا تكون إلَّا بالتحرّر عن أسر النفس وأهوائها، والدنيا وشهواتها، وشرار الخلق من الإنس والجنّ.

وهو الذي تتحقّق به العبوديّة الحقّة لله تعالى، ويستحقُّ به المؤمن الرضا والتكريم.

* * * * *

بين عمل القلب وعمل الجوارح:

العلاقة بين عمل القلب وعمل الجوارح هي علاقة تأثير متبادلة، سلباً وإيجاباً..

فالقلب ملك الجوارح، فهو يؤثِّر فيها ابتداء؛ فتتحرَّك لما يمليه عليها من العمل، والعمل ينعكس على القلب بمزيد من النشاط والفاعليّة والتأثير، فتنشط الجوارح أكثر وهكذا..

والتدبُّر لكتاب الله تعالى، وللسنَّة النبويَّة يقرِّر لك هذه الحقيقة بأجلى بيان.

* * * * *

من أهمّ المقاصد في العبادة أن يسبقها الشوق، وتقترن باللذّة، وتختم بالإشفاق والوجل.. فلا تسل بعد ذلك عن ثمراتها وآثارها..

* * * * *

أسر العادة ربّما جرّد الإنسان من إنسانيّته، وأفسد حياته.. فيأتي الصوم تحريراً.. لمن أراد أن يتحرّر..

* * * * *

خيّم الليل بسكونه، وبزغ البدر بنوره، وخلا كلّ حبيب بحبيبه، ونأى من عَمَرَ الدار من الأحبّة والسمّار، واستوحش القلب، وهو يستعرض الذكريات، وأحاط به الغمّ لحظات، ثمّ صحا من غفلته، وسما عن كبوته.. كيف يغتمّ وبين جوانحه أعظم حبيب؟! أم كيف يستوحش ومعه أجلّ أنيس؟! إنّها الغفلة تشغل قلبك بمن لا يملك لك ولا لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، وتجعلك تأنس بمن لا يؤنس

* * * * *

المُخلِص يعمل ولا يتكلَّم.. والمُفلِس يتكلَّم ولا يعمل..
المُخلِص يعمل بقدر الطاقة، ويتكلَّم بقدر الحاجة، ويشغله العمل عن الكلام..
والمُفلِس يتكلَّم عكس ما يؤمن، ويعمل عكس ما يتكلَّم..

* * * * *

الشعور بالفرح بما ينال الإنسان من النعم الحسّيّة والمعنويّة، الدنيويّة والأخرويّة أمر فطريّ، لا يمنع منه دين الله تعالى، بل يرغّب به، ويحثّ عليه، على أن يترجم إلى شكر لله تعالى على ما أنعم وتفضّل، وعلى أن يكون الفرح منضبطاً بشرع الله تعالى، ولا يخرج عنه.. هذا هو الأصل الذي لا محيد عنه، ومن ادّعى خلافه فعليه أن يقدّم أدلّة المنع الخاصّة، لا الأدلّة العدميّة، فهي تدلّ على الأصل ولا تنفيه..

* * * * *

أحرار في زمن العبيد.. يقدّمون مهر الحقّ من رقابهم، وهم راضون مبتسمون، فرحون مغتبطون، ولو وجدوا أغلى من ذلك لسارعوا.. ولا أجد لهم كلمةً معبِّرة عن حالهم إلَّا قول المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، لصهيب الروميّ رضي الله عنه يوم هجرته، إذ ترك أمواله للمشركين: فَقَالَ له: «رَبِحَ البَيْعُ أَبَا يَحْيَى».

* * * * *

إذا سلّمنا أنّ أمّة: «اقرأ..» تقرأ، بل وتكثر من القراءة، فإنّ أمامنا سؤالين كبيرين: ماذا تقرأ؟ وهل تنتفع بما تقرأ؟

* * * * *

يحكم القضاة المحكومون، ويقول الجاهلون الأغبياء: حكم عليه بالإعدام.. ولا يعلمون أنّ قرار الاصطفاء جاء من العليّ الأعلى، الذي يعلم السرّ وأخفى، فما أسخف موقف البشر؟ عندما يقول الله، ويقول الإنسان ما يتحدّى قول الله..

* * * * *

بين التلبية والتكبير

«لبّيك اللّهُمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، «الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلَّا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد».

بين التلبية والتكبير صنعت أمّة، وقامت حضارة، وتغيّر وجه الحياة من جاهليّة ظالمة عابثة، إلى حياة إنسانيّة طيّبة..

من جاهليّة استعباد الإنسان لأخيه الإنسان وظلمه وقهره، إلى إنسانيّة الإسلام في مساواته وعدله، وإحسانه ورحمته..

من جاهليّة العبوديّة للأهواء والطاغوت، واتّخاذ الناس بعضهم أرباباً لبعض، إلى العبوديّة لله الواحد الأحد، خالق الكون والإنسان، وهو أعلم بمن خلق..

التلبية معناها الإجابة بعد الإجابة، والطاعة حبّاً ورغباً، وأوّل ما تتجلّى في مفارقة الهوى، وإيثار طاعة المولى..

والاستجابة أثر عن التعظيم والخوف والخشية.. وهي تقود إلى مزيد من التعظيم.. والتعظيم يزيد في الاستجابة، ويرقى بها كمّاً ونوعاً.. تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

* * * * *

التحرُّر الظاهريُّ لا يتحقَّق إلَّا تبعاً للتحرُّر العقليّ والقلبيّ، ومن تجاهل التحرُّر الباطنيّ فلن يكون عمله وسعيه إلَّا عبثاً..

* * * * *

أمّة تدافع عن نبيّها بأرواحها من أوّل يوم.. وتبقى كذلك إلى هذا اليوم أمّة لن تموت بإذن الله.. مهما فعل أعداؤها، ومهما خطّطوا ومكروا، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم.. والله متمّ نوره، ولو كره الكافرون..

* * * * *

انصح.. ولا تتوقّف عن النصح، فما لم ينفع اليوم ربّما نفع غداً.. وقل: «معذرة إلى ربّكم، ولعلّهم يتّقون». فالشيطان يريدك ألَّا تنصح..

* * * * *

التجارب تلقّح المواهب، وتمحو المعايب، وتزيد البصير بصيرة، والعاقل عقلاً وحكمة، ولا يأنف عنها جاهل غرير، أو مغرور جهول.

* * * * *

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ـ ٨٣].

سيَّان عند الله تعالى خَلْقُ الكثيرِ والقليلِ؛ خَلْقُ الكثيرِ مهما بلغت كثرتُه، والقليلِ مهما بلغت قِلَّته.

وبقدرته ظهورُ كلِّ شيء: فلا يحدث شيء، قَلَّ أو كَثُرَ، إلَّا بإبداعه وإنشائه، ولا يبقى شيءٌ إلَّا بإبقائه، فمنه ظهور ما يُحْدِث، وإليه مصير ما يخلق.

* * * * *

رسائل حكيمة عاجلة:

ـ لا تأمن الفتنة على نفسك، ولا على غيرك.. فأكثر من افتتنوا كانوا يأمنون الفتنة، ويتحدَّثون عن المفتونين..

ـ كلَّما تعبت ونصبت في سبيل الآخرة زادت راحتك فيها أكثر.. فلا تملّ من التعب، ولا تستثقل..

ـ المؤمن لا يمسك ما لا يغنيه، ولا يؤذي من يؤذيه، ولا يخوض فيما لا يعنيه..

ـ المؤمن لا يعرف اليأس ولا التشاؤم، عزيز بدينه، قويّ بإيمانه، كثير بإخوانه، سَرِيٌّ بأعوانه.

ـ طوبى لمن شغله عَيبُه عن عيوب الناس، وبكى على ذنبه، واستعدَّ للقاء ربِّه.

ـ لا تقف مع اللحظة العابرة.. ولا تكن نظرتك طفوليَّة قاصرة.. فللقدر كلمته العليا القاهرة..

ـ لا يخذُلُ «سَادةً» في محنة.. إلَّا «عَبيدٌ» في نعمة.

* * * * *

الإسلام بستان عظيم، طاب ثمره، وعمّ خيره، وجلّ أثره، كلّما قدّم من بنيه شهيداً، أنبت الله في رباه مزيداً..

* * * * *

ما هي الغثائية؟ وماذا تعني؟!

عن ثوبانَ رضي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم: «يوشِكُ الأُممُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها»، فقال قائل: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغثاء السَّيلِ، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِن صدورِ عدوِّكم المهابةَ

منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ». فقال قائلٌ: يا رسُولَ الله، وما الوهنُ؟ قال: «حبُّ الدُنيا وكراهيةُ الموتِ». [رواه أبو داود في سننه. ٦: ٣٥٥، وهو حديث حسن].

يجري هذا الحديث على السنة كثير من الخطباء والدعاة والواعظين، ولكنّه غالباً ما يجري في سياق التقريع والذمّ، والإيحاء بما يشبه استحالة التغيير للواقع المهين، الذي سيمضي إلى غاية ما يريده أعداؤنا، الذين تداعوا علينا من كلّ فجّ عميق، وتحكّموا فينا، فكأنّنا نساق كالقطيع..

والحقّ أنّ أمثال هذا الحديث، التي جاءت في سياق التحذير ينبغي أن تقرأ قراءة شاملة، تضمّ الرؤية العامّة لصورة الأمّة، وحضور الدين في حياتها، ومدى تأثيره فيها كيلا تعطي أمثال هذا الحديث صورة سلبيّة، قائلها صلوات ربّي وسلامه عليه يبرأ منها.. إنّ التمثيل بالغثاء صورة من البلاغة النبويّة، للتحذير من حالة انعدام الوزن، وفقد التأثير والفاعليّة، التي تتردّى فيها أيّة أمّة نتيجة ركونها إلى الدنيا، واستمرائها لحياة الراحة، والدوران في فلك الشهوات، واللهاث وراء خلائق الأثرة، والترف بعد الترف، الذي فيه داء أجسادها، وفساد حياتها..

الغثائيّة هي الخفّة في العقل، والاستكانة واتّباع الهوى، والتسرّع في الحكم، والسطحيّة في الفهم والتفكير، والخداع للنفس بما هي عليه من تخلف وقصور..

إنّ غثائيّة السطح تعني العامّة لا العموم، ولا تعني غثائيّة القاع، ولا غثائيّة كلّ شيء.

* * * * *

الرشد هو الإيمان والهدى:

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [الكهف: ١٠].. سألوا الله تعالى الرشد فأعطاهم الإيمان والهدى.. ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ [الكهف: ١٣].

* * * * *

لا يكون الرشد في فتى إلّا وله حظٌّ من ميراث النبوّة وفير: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١]، ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيم﴾ [الأنبياء: ٦٠].

* * * * *

رسائل عاجلة..

ـ في كلّ شأن: «مَن لم تَكُن له بدايةٌ مُحرقةٌ، لم تَكُن له نهايةٌ مُشرقةٌ».

ـ إذا كانت همّتك تقف عند الدنيا، لا تحرِّكها إلَّا همومها، ولا تتحرّك إلَّا لها.! فاعرف من أنت..

ـ من أراد أن يكون كبيراً في ميزانِ الله تعالى فليكن كبيراً في همّته وعمله.

ـ إذا أردت أن تحصّن نفسك من الشيخوخة المبكّرة فاقرأ سير أصحاب الهمم، وأخبار قادة التغيير الإسلاميّ والإنسانيّ.

* * * * *

العبادات أغذية وأدوية، وبناء وتحصين، وكما أنّ الغذاء الصحّيّ والدواء الناجع لهما مقادير وأوقات وصفات، لا يمكن تجاوزها، أو الخروج عنها، فكذلك العبادات لا تؤتي أكلها، ولا تحقّق المقصود منها إلَّا إذا أخذت وفق ما شرع العليم الحكيم سبحانه..

وإذا رأيت عابداً لا تظهر آثار العبادة على سلوكه وعلاقاته فاعلم أنّه لم يذق طعم العبادة، ولا لذّة العبادة.

* * * * *

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].

الحقيقة الجوهريّة في أزمة التعليم هي حاجة المُعلِّم إلى التعليم: موضوعاً وأسلوباً وتطويراً.. إذ فاقد الشيء لا يعطيه.. وكلُّ إناء لا ينضح إلَّا بما فيه..

* * * * *

القلب هو العضو الذي يحسم مشكلات الحياة.. فإذا عُمر بالإيمان واليقين فكلُّ جارحة جنديّاً من جنوده، لا تخرج عن طاعته..

* * * * *

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

إنّ الله تعالى أصدق القائلين.. فعندما يقول الله سبحانه: ﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيب﴾، فعلينا أن نكون على يقين من ذلك، ونستشعر بإيماننا ويقين قلوبنا أنّ النصر بين أيدينا، نكاد نتناوله بلحظة.. ولكنّ الواقع أنّنا نحن البعيدون عن النصر، لأنّنا لم تمتدّ أيدينا إلى أسبابه المادّيّة والمعنويّة، التي نستطيعها، ولم نبذل وسعنا واستطاعتنا، ولا يكلّف الله تعالى نفساً إلّا ما آتاها.. بل إنّ بعضنا يستدبر أسباب النصر، ويعمل على عكس اتّجاهها.. فأنى لنا أن ندرك النصر القريب؟!

* * * * *

قَوَانِينُ الله سنن محكمة، جَادّةٌ صارمة، حقّ وعدل، وقَوَانِينُ البشر عابثةٌ ظالمة.. ولا بدَّ أن يُدالَ من العبث والظلم للحقّ والعدل.

* * * * *

إذا أراد الله بعبد خيراً جعله ينظر إلى عباده المؤمنين بعين الخصوصيّة.

ومعنى هذا الكلام أنّ كلّ إنسان وبخاصّة المؤمن، مهما دنا حاله، وظهرت لك مثالبه، أودع الله فيه خصوصيّة ما.. فمن وقف عند سلبيّات الآخرين ومثالبهم حرم من معرفة خصوصيّاتهم، والاستفادة منها.. وفي ذلك خسارة له لا لهم..

وعلاج ذلك بالتربية على الأدب مع الآخرين وبخاصّة الكبار: سنّاً، وعلماً، وتجربة..

* * * * *

للباطل رأس وذنب، ورؤوس متفرِّعة عن الرأس وأذناب، وأتباع رعاع.. هم في جميع الأحوال أتباع لكلِّ ناعق.. فيا بؤس أولئك الأذناب والرعاع.. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَاب﴾ [البقرة: ١٦٦].

* * * * *

كتب الله تعالى بحكمته ألَّا يدوم على الإنسان أنس وصفاء، ولا شدَّة وبلاء، وأن تتقلَّب بالإنسان الأقدار بين السرَّاء والضرَّاء، حتَّى يبلغ أجله.. وعجباً لأمر المؤمن؛ إنّ أمره كلَّه له خير.. ولا يغترُّ بهذه الدنيا إلَّا جهول أحمق..

* * * * *

أيُّها الشارد عن الحقِّ!

هل تصدِّق؟ أنَّني أحبُّ رجوعك إلى الحقِّ أكثر ممَّا أحبُّ من سقوط الباطل..

لأنَّ سقوط الباطل عندي يقين، فسيسقط ولو بعد حين.. ورجوعك إلى الحقِّ مشكوك فيه.. وأخشى أن تطالك فتنة ما أنت فيه حتَّى الممات..

* * * * *

«خدم الدنيا، ثمَّ خرج منها صفر اليدين»، كم في الناس من ينطبق عليه هذا القول..

ثمَّ ترى الناس يتغنَّون بالحديث عنه، والثناء على إنجازاته؟!

إنَّه اختلال الموازين.. الذي يتيه به الناس وراء الأوهام..

* * * * *

الرَّحمةُ المهداةُ إلى العالمين

﴿وَمَا أَرسَلنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

حيرة وقلق.. وفتن هوجاء، وظلم وفساد.. في كلّ أرض، وتحت كلّ سماء..

وأمم من البشر كالقطعان، تهيم في الظلام، تقدّس الأوهام، يقتلها الركام.. والكون حيث كان في حيرة ولهان..

أيُعقلُ أن يستبدّ الشيطانُ بالأرض، ويَنثرُ الشرّ والفساد حيث شاء؟!

أيُعقلُ أن يعيشَ الكونُ كلّه تحتَ وطأة الجهل، وفي بحار الظلمات؟!

أيُعقلُ أن تُطمَسَ أنوارُ المَعرفة الإلهيّة من قلب الإنسان إلى الأبد! ويتلاشى نورُ الإيمان واليقين، ويَنمحي الحقُّ وآثارُه، فلا تجدُ إلاّ حجراً يقدّس حجراً، ولا صنماً إلاّ يَهيمُ في هوى صنمٍ؟

أيُعقلُ أن يُصبحَ الإنسان وحده أسير شهوته، مستعبداً للظلم والفساد، والشرّ والخرابِ، والوهم والخرافة؟! يلهثُ وراءَ نوازف الدماء، ويَلعقُ الجراح، لا يشبعُ.. ولا يَرتوي؟! وسائر الوجود من حوله يسبّح بحمد ربّه، ويقدّس له..

أيُعقلُ أن تكونَ فلسفةُ العبث، وغيبةُ المَسؤوليّة، ونزوةُ الشهوة، هي العُملة الرائجة، والبضاعةُ المَرغوبةُ، والغايةُ الكبرى، تَرفعُ رأسَها، وتُعلي في الأرض الباطل، وتعلن صوتها؟! وتستعبد البشر حتّى الموت؟! ولا يقف في وجهها أحد؟!

أيُعقلُ أن يكونَ هذا الوجودُ الجميلُ، البديعُ الحكيم، في كلّ كيانه وشؤونه: بإنسانه وحيوانه، بأرضه وسمائه، وشمسه وقمره، وأنهاره وأشجاره، وجباله وبحاره، وسائر خلقه.. مَرتعاً للظلام، وخادماً لعَبث الظالم، وسِلاحاً لسحق المَظلوم؟!

أيُعقلُ أن يُصبحَ الإنسانُ أتفهَ شيء في الوجود، بما آل إليه أمره؛ من تقديس الشهوات، والعبوديّة للظلم والظلمات.. وهو سيّد الوجود بما حباه الله من خصائص ومواهب؟!

أيُعقلُ أن تُصبحَ الحياةُ مَكروهةً حتّى من عابديها، مَذمُومةً حتّى من مُزيّنيها؟! يَملُّ الإنسانُ وُجودَه، ويجهلُ مصيره؟!

أيُعقلُ أن تُزيَّنَ سَماءُ الأرض بمَصابيحها، ولا تُزيَّنَ سَماءُ المَعرفة بشمسِها وكواكبها، ونُجومها وأقمارها؟! وأن يُقفرَ القلبُ من سَيّده ومالكه، وساكنه ومسيّره؟!

يا ربّ قد ضاعَت مَعالم الحقّ، والتبسَت السبلُ، وعمّ الشرُّ وطمَّ.. وأرغى الباطل وأزبد..

الكونُ كلّه يَبحثُ عن النور.. ويَتطلّع إلى النور.. ويسعى إلى النور.. ويَنتظرُ النورَ، وقد نفد صبرُه.. فهل يُعقلُ أن يَضنّ عطاءُ الله عليه، فلا يجد أشواقَه العليا، التي هي قبس من عطاء الله وفضله، بعد صدق الأمل، وطول الانتظار؟!

ها هي أعطاف الأرض تهتزّ شَوقاً لانبلاج النور.. وأرجاءُ السماء تَضجُّ بالتسبيح والرجاء، أن تأذنَ العِنايةُ الإلهيّةُ بقُدوم الفَجر الصادق مِن وراء زئير العَتَمات، وأزمةِ الهرج والمَرج، وتِيهِ الجهالات..

والإنسانُ.. وَيحَ الإنسان! إنّه وحدَه سَادرٌ في جهالاته، غارق في أوحاله، سَكرانُ مِن كؤوس غيّه وبغيه..

اللّهُمَّ إلاّ بقيّة من أهل كتاب، بَينَ أيديهم بقيّةٌ مِن حقائق مُغيّبة، مختلطةٍ بشَتّى الأكاذيب، وأخبار مُضطربة، تُمنّي بها نفسَها، في خِضمّ هذا البحر اللجّيّ من الفَسَاد العَريض..

وبقيّةٌ أخرى قليلةٌ قليلة.. مِمّن لا يَزالُ نُور الفِطرة يُضيءُ جَنباتِ نفسه، فيَميز بَينَ الحقِّ والباطل، ولكنّه لا يَستطيعُ أن يَكتشفَ شيئاً مِن مَعالم الحقّ مِن بَين رُكام الأباطيل..

وأمّةُ الجزيرة العَربيّة، بأهلِها ورجالِها، ومَكّةَ أمِّ القُرى وسَراتِها، غافيةٌ غَريرة، مُنطويةٌ على نفسِها، عاكفةٌ على تُرّهاتِ أصنامِها، وأوهامِ أمجادها، لا تَدري ما تُخبّئ لها الأيّامُ.. ولكنّها كانَت يُعدُّها القدر.. لتَصنَعَ القَدر..

قَد هَبّت الأصنامُ مِن بَعدِ البِلى ... واستَيقَظَت مِن قَبل نَفخ الصور
والكعبةُ العُليا تَوارَى أهلُها ... فَكأنَّهم مَوتى بغَير شُعُور
وقَوافلُ الصحراء ضَلَّ حُداتُها ... وغَدَت مَنازلُـها ظِلالَ قُبور
كلّ الوجودِ له انتظارٌ للهُدَى ... يا رَبّ!! أنقِذه مِنَ الديجور

يا ربّ! يا مَن أضأتَ هذا الوجُود باسمِكَ الحيّ القيّوم.. أرسِل إليه سَحائِبَ رحماتك ونَسَائِمَ بركاتِكَ، باسمِكَ الرحمن الرحيم، يا عزيز يا قُدُّوس! أنِر جَنباتِه بنُورك الذي لا يخبُو، وتجلّ عليه بحكمتِكَ العُظمى، وأسرار أسمائِكَ الحُسنى.. ومُنّ عليه بمَن أعدَدتَه لحمل نُورك المُبين.. بعبدك المُصطفى المُختار، بمَن يَعبُدُكَ وحدَكَ، ويُقدّسُكَ وحدَكَ، وَيَرجُوكَ وحدَكَ.. بمَن لا يَنحني بجبهَتِه إلّا إليكَ.. بمَن يهدي إلى صراطك المستقيم، ويحملُ رسَالةَ الحياةِ الطيّبة، ويَصنَعُ على عينكَ، وباسمِكَ الحقّ أمّةَ النور والهُدَى..

يا ربّ يا رحمن! الكونُ كلُّه يجأرُ إليك بالدعاء: (يا ربّ! إنّ المُؤمنين قد انتَثرُوا، وكادَ المُخلصون أن يَندَثِرُوا، ولم تَعُد هذه الأرضُ تَرى حَداةَ القَوافل، ولا المُتعبّدينَ لك في المَنازل.. أعِدِ الطيورَ المُغرّدة إلى أغصان الصنُوبر، فقَد فرّت مِن رَوضها، وهي تنتظر البلبل الذي يحمل في قلبه ضَجّةَ القِيامة وهَول المَحشَر.. أعِدِ الأوراقَ الذابلةَ إلى رَوضِها الأخضر، وجَدّد في الإنسانيّة ظَمأَها إلى حِياض المَحشر)..

وُلد الهُدَى وتَوالَتِ الآلاءُ ... وتَزَيّنَت بجمَاله الأسماءُ
وتَسَربَلَ الطاغُوتُ في كهف الردَى ... وتَدثّرَت بغَبائها الظلمَاء
والنورُ يَسطعُ غامِراً مُتَلألأً ... والحقُّ أبلَجُ ظاهِرٌ وضّاءُ

وأشرقَتِ الأرضُ بنُور رَبّها.. وتلألأت جَنباتُ الأرض بانبِعاثِ نُور الوحي إليها من جديد.. وجُنّدَت كتائبُ المَلائكة الكرام، جُنُوداً مُجنّدة، لتحرُسَ النبيّ الخاتَمَ، صَلّى اللهُ عَليه وسَلّم، وتَكونَ في ركابه، وخِدمةِ دينِه ودَعوتِه.. ليس في حياته فحسب، بل إلى ما شاء الله

وقدّر.. ﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٤].. ﴿وَللهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٧]..

لمّا أطلّ محمدٌ زكتِ الرُّبَى ... واخضَرَّ في البُستانِ كلُّ هَشيمِ

وأذاعَتِ الفِردَوسُ مَكنُونَ الشذَى ... فإذا الوَرَى في نُضرة ونَعيمِ

لقد فتحَ اللهُ للعَالمينَ، ببعثةِ محمّدٍ صَلّى اللهُ عَليه وسَلَّم رحمةً لا مُمسِكَ لها، ونشرَ نُوراً لا يُطفأُ، ولا يخبُو.. وعمّهُم بخَير لا رَادّ له.. ولن يَستطيعَ أحدٌ كائناً مَن كانَ أن يَقِفَ في وَجهِ هذا الخيرِ أو يَصدَّه، أو يَسُدَّ مَنافِذَه.. لأنّه أمرُ اللهِ جَلّ وعَلا وقدرُه..

فهَل يُحسّ الناسُ كلّ الناس بهَذه الرحمة، ويشعُرونَ بها، ويَعترفُونَ بفَضلِها، ويَتنسّمُون أنسَامَها الرخيّةَ الندِيّةَ؟ إنّ المُؤمنين السعَداءَ هُم الذين يَعيشُونَ فيها، ويَنعمُون بظلالها، ويَلمَسُون في حياتهم وعلاقاتهم بَركاتِها.. وغَيرُهم ينالُه قِسطٌ منها في الدنيا، إذ تَكُونُ أماناً له مِن عذاب الله العَاجل، أو انتقاص شَيء من حقّه، ثمّ تكون عليه حجّة في الآخرة، لأنّه كفرَ نعمة الله تعالى عليه، ولم يشكرها..

ألا إنّ العَقلَ الذي حمله رسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم، وسِعَ به العُقولَ، والقَلبَ الذي مَلكَه مَلَكَ به القُلُوبَ، والروحَ التي خَفقَت بَينَ جَوانحِه في هذا العَالم هفَت إليها الأرواحُ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وعشقتها المَشاعر، وتَرامَت بَينَ يَديها هامَات العُظماءِ والكُبراء، تتقرّب إلى الله تعالى بحبّه، والحرص على الحظوة عنده..

فطُوبى للإنسانيّة كلِّها بهذا الرسول الإنسان صَلَّى اللهُ عَليه وسَلَّم، الرحمة المُهداة للعالمين .. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً. مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ [الفتح: ٢٨ـ ٢٩].

* * * * *

دستور الخالق لإصلاح الخلق:

﴿إِنَّ هَذَا القُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٩].

القرآن الكريم: كتاب ختم الله به الكتب، وأنزله على نبيّ ختم به الأنبياء، بدين عام خالد، ختم به الأديان.

إنَّه دستور الخالق لإصلاح الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض، أنهى إليه مُنزله كلَّ تشريع، وأودعه كلَّ نهضة، وناط به كلَّ سعادة.

وهو حجة الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم وآيته الكبرى، يقوم في فم الدنيا شاهداً على رسالته، ناطقاً بنبوَّته، دليلاً على صدقه وأمانته.

وهو ملاذ الدين الأعلى، مصدر عقائد الإسلام وعباداته، وحكمه وأحكامه، وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه ومعارفه.

وهو عماد لغة العرب الأسمى: تدين له العربيَّة في بقائها وسلامتها، وتستمدُّ منه علومها، على تنوعها وكثرتها، وتفوق به سائر اللغات العالميَّة في أساليبها ومادَّتها.

وهو القوَّة المحوِّلة، التي غيرت صورة العالم، ونقلت حدود الممالك، وحوَّلت مجرى التاريخ، وأنقذت الإنسانية العاثرة، فكأنما خلق الوجود به خلقاً جديداً.

* * * * *

إنَّما يريد الإسلام أن يكون المسلم روحاً يبعث الروح، وعقلاً يقود العقول، وقلباً يسع القلوب، وحياة تملأ الحياة، ورسولاً من رسول الرحمة والسلام صلَّى الله عليه وسلَّم..

فإن لم يكن المسلم كذلك، فقد خان ربَّه، وعقَّ دينه ونبيَّه..

* * * * *

دواء البشرية..

هذا الدين هو حاجة الإنسانية، ودواء البشرية، وكمال الفرد، وصلاح الجماعة.. إنَّه دين الدنيا والآخرة، دين عقيدة وعمل، وعبادة وقيادة، وعلم وخلق، وحكم وعدل، ورحمة وحقّ، ومصحف وسيف!

إنّها حقائق أوَّليَّة بدهيَّة في طبيعة الإسلام، ولكنَّها أصبحت غائبة أو مغيَّبة عن عقول كثير من أبناء المسلمين، فضاعت بوصلة اتِّجاههم شرقاً وغرباً، وحجبوا عن حقيقة الإسلام بسلوك المسلمين.

* * * * *

مرض الروح!

يبتلى الإنسان بمرض الجسد فيظنُّ أنَّ مرضه أسوأ شيء، والحقُّ أنَّ المرض النفسيَّ أخطر وأسوأ من مرض الجسد بما لا يقاس.. وأخطر منهما مرض الروح، وهو الجهل بالله تعالى والبعد عنه، وسببه الأكبر الغفلة عن الله تعالى، والبعد عن العلم النافع، وإشغال النفس بما يضرُّ ولا ينفع، فيضيع العمر وراء توافه الأمور.

وأخطر ما في الغفلة أن يستمتع بها، ولا يحسُّ ببلائها ووحشتها.. وقد قال الشاعر:

يُقضَى على المرء في أيّام محنته ... حتّى يَرى حَسَناً ما ليسَ بالحَسَنِ

* * * * *

حبُّ الرئاسة!

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيم. قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي. فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ﴾ [الزُّمَر: ١٣ـ ١٥].

حبُّ الرئاسة والزعامة داؤنا الأكبر.. لقد طغى على الإخلاص لله في العمل.. والحبّ في الله في العلاقات.. وأصبح قصارى ما نتمنَّاه في علاقاتنا أن يصدق أحدنا مع أخيه فيما يعرض من رغبة في التعاون بما يحقِّق المصلحة العامَّة، دون أن يكون وراء الأكمة ما وراءها..

* * * * *

أمَّة تدافع بأرواحها عن نبيِّها صلَّى الله عليه وسلَّم من أوَّل يوم.. وتبقى كذلك إلى هذا اليوم، أمَّة لن تموت بإذن الله.. مهما فعل أعداؤها، ومهما خطَّطوا ومكروا، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم.. والله متمُّ نوره، ولو كره الكافرون..

* * * * *

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

الكذب والتزوير، والإجرام والظلم، والإفساد في الأرض مطايا أهل الباطل في محاربة أهل الحقّ وكيدهم.. ولا يفلح أهل الحقّ إن أخذوا بشيء من ذلك.. فالإفساد والشرّ لا يصنع الخير..

* * * * *

قالوا: من روائع الشهيد عمر المختار رحمه الله:

عمر المختار عندما ماتت زوجته قبل القبض عليه وإعدامه...

بكى عليها بكاءً شديداً. فقالوا له: ما الذي يبكيك فيها قال:

كنت إذا عدت من غزواتي ضدّ الإيطاليين ترفع باب الخيمة عالياً.. فلمَّا سألتها عن سرِّ ذلك قالت: حتَّى لا تنحني إلَّا للخالق.

قلت: أهي من روائع الرجل أم من روائع الزوجة المسلمة، وذوقها العالي، وأدبها الجمّ؟!

* * * * *

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُون﴾ [النحل: ٢٦].

بمن مكروا؟ إنّهم مكروا بأنبياء الله ورسله.. مكروا بأولياء الله والدعاة إلى دينه.. مكروا بدين الله تعالى، واغترّوا بقوّتهم.. وما علموا: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ العَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وما علموا أنّ الله: ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

* * * * *

﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

اللّهُمَّ لا تحجبنا بما عندنا عمّا عندك..

الحقّ أنّنا ما عندنا شيء؛ لأنَّ ما عندنا بسبيله إلى النفاد.. ولكنَّ الواقع أنَّنا نضخِّم ما عندنا، ونتعلَّق به، وكأنَّه كلُّ شيء.. ونغفل عمَّا عند الله، وهو حقيقة كلِّ شيء..

كما أنَّنا نضخِّم ما عندنا، ونقلِّل ممَّا عند الآخرين من خير، وربَّما كان خيراً ممَّا عندنا.. إنَّه غرور الإنسان وادِّعاؤه..

* * * * *

إنَّ الإنسان أحوج ما يكون إلى مراجعة نفسه بين الحين والآخر ومصارحتها..

لأنَّ دوَّامة اللهاث مع اللاهثين، الغارقين في لجَّة البحر الملح.. لا تدع الإنسان ينسحب قليلاً من بين الجموع، ويتفيَّأ ظلال شجرة بعيداً عن الناس، يناجي نفسه وتناجيه، ويصدقها النصح والتقويم.. أو يصفو وقته وقلبه لمذاكرة أخ في الله تعالى مخلص، صادق في نقده ونصحه، كصدقه مع نفسه أو أكثر..

* * * * *

يُكثرُ الإنسانُ مِنَ القول على قَدر إفلاسه في العَمل، أو تَقصيره فيه..

فمن عدَّ كلامه من عمله، قلَّ كلامه إلَّا فيما أتقن عمله.

* * * * *

إنَّ بناء الإنسان له الأولويَّة على كلِّ شأن، وهو حجر الزاوية في كلِّ نهضة..

وبناء الإنسان لا يقف عند حدٍّ، ولا يقيَّد بزمن، لأنَّ أجيال الناس تتواصل وتتداخل، والحياة تمور بالمتغيِّرات والمستجدَّات، التي تتطلَّب رؤىً متجدِّدة، ومواقف جديدة، وتطويراً في الأساليب والوسائل، يتناسب مع شرف الغاية، وسموِّ الأهداف..

* * * * *

تذلَّل بأقصى ما تستطيع، وأصدق ما تستطيع بين يدي خالقك، وأفض إليه بسرِّك، ومكنونات نفسك.. وما يضيق بصدرك.. فعلى قدر ما تتحقَّق بذلك تتحقَّق بالعبوديَّة لربِّك.. واسجد بين يديه، واذرف دموعك بوجل وخشية، وحبٍّ ولوعة..

وتجمَّل أمام الخلق وتجلَّد، وأرهم من قوَّة نفسك، ورباطة جأشك ما ييئس عدوّك ويغيظه، ويقوِّي صديقك ويعزّه.. وعلى قدر شكواك للخلق تنأى عن الخالق.

* * * * *

في الأخلاقِ والسُّلُوك

ثلاث من أبواب السعادة:

كتمان الحاجة، حتّى يظن الناس من عفّتك أنّك غنيّ، وكتمان الغضب، حتّى يظنّ الناس أنّك راضٍ بما أنت فيه، إلَّا ما كان غضباً لله ولدينه، وكتمان الابتلاء، حتّى يظنّ الناس أنّك في عافية.

* * * * *

المُبالغة في تقدير النقد والاجتهاد تفسد الأعمال، وتدخل النفس في متاهة من ضعف الثقة بمن حولنا.

* * * * *

إذا لم تنجح في رفع الآخرين إلى مستوى أخلاقك، فلا تجعلهم ينجحون في التدنّي والإسفاف إلى مستوى أخلاقهم.

* * * * *

الصدق لا يذيب الجليد فحسب، بل يجعل منه مادة وقود.

* * * * *

إذا أحسنت لمَن لم يُحسن إليك فأنت من أهل البرّ والعطاء..

وإذا أحسنت لمَن أحسن إليك فأنت من أهل الكرم والوفاء..

وإذا أحسنت لمَن أساء إليك فأنت من أهل السموّ والصفاء..

وإذا أسأت لمَن أحسن إليك فأنت من أهل اللؤم والجفاء.. وفي جميع الأحوال أنت المُحسن إلى نفسك أو المُسيء..

* * * * *

لا وزن لعلمك وذكائك ومواهبك، وما تمتاز به على غيرك إن لم تزيّنه المروءة، التي تجعلك تسارع في نصرة الضعيف، وبذل المعروف، وإغاثة اللهفان، وتقديم المصلحة العامّة على مصالحك الخاصّة.. وعظماء الناس هم أعظم الناس نفعاً للناس.. المؤمن نفّاع..

* * * * *

ليس من المروءة أن تزيد البلاء على أخيك، وهو يعاني من محنة في نفسه أو أهله.. قف معه أوّلاً في محنته بصدق.. ثمّ انصحه بما شئت، وهو طيّب النفس، هادئ البال..

* * * * *

إذا وضعنا إخواننا تحت مجهر النقد خسرناهم بين يوم وليلة.. فلا بدّ من غضّ البصر، وكثرة التغاضي دون تفريط بالنصح..

* * * * *

لاءات ثلاث: تنظّم حياتك، وتقترب بك من أبواب السعادة والنجاح:

لا تتكلَّم عن الماضي إلَّا بقدر ما تأخذ العبر، وتتعلَّم الدروس، وتتجنَّب تكرار الأخطاء، فلا تقف عند الماضي أكثر من ذلك.

ولا تتكلَّم عن المُشكلات والعوائق إلَّا لإيجاد الحلول المناسبة لها.

ولا تتكلَّم عن أخطاء الآخرين وواجباتهم، فأنت لا تعلم أعذارهم.. ولا عمَّا ليس تحت حكمك، وفكِّر دائماً بواجبك..

هذه الحقائق، وما فيها من إيجابيَّة تجعلك تعمل ولا تيأس، وتنتفع بوقتك، دون تضييع لمسؤوليَّتك، وتقوِّي ثقتك بالله تعالى، فتقوى همَّتُك وعزيمتك.

* * * * *

بين العاقل الحكيم والجاهل السفيه!

لا تلازم بين العقل والحكمة كما أنَّه لا تلازم بين الجهل والسفه..

فالعاقل ليس بالضرورة أن يكون حكيماً، فالحكيم هو الذي يستثمر عقله فيما يحقِّق له المصالح، ويدفع عنه المفاسد، ويحسن التعامل مع الواقع بما يستجدّ فيه من المشكلات والمتغيّرات.. وعكس ذلك السفيه..

وربَّما كان الجاهل معترفاً بجهله، مقرّاً بقصوره، ممَّا يدعوه إلى التواضع لمن هو أعلم منه، فيعوِّض بذلك نقصه، ويستفيد من علم غيره وحكمته، ويكون كالأرض الطيِّبة المنخفضة، التي تشرب ماءها وماء غيرها..

وهذه بعض المفارقات بين العاقل الحكيم والجاهل السفيه:

العاقل الحكيم يتَّهم نفسه ويحاسبها، ليراجع عمله، ويقوِّم سلوكه.. والجاهل السفيه يدَّعي لنفسه ما ليس فيها، من الكمال وصحَّة المواقف وسدادها، فأنَّى له أن يراجع عمله، أو يقوِّم سلوكه؟!

العاقل الحكيم يغالب المشكلات التي تعترضه فيغلبها، ولا يسمح لشيء أن يعطِّل خططه وأهدافه.. والجاهل السفيه يصطنع لنفسه المشكلات، ويلقي باللائمة على الآخرين، ليبرِّر عجزه وتقصيره.. العاقل الحكيم يحمل راية التغيير لنفسه والتطوير، ولا يكلُّ عن حملها ولا يملُّ.. والجاهل السفيه يرضى لنفسه الدنيَّة، ويفلسف قعود الهمَّة..

العاقل الحكيم ينظر إلى كلِّ شيء في الحياة بإيجابيَّة وتفاؤل، فيعمل ويجدُّ، ويكاثر الإيجابيَّات وينشرها، ولا يتشاءم ولا ييأس.. والجاهل السفيه شغله الشاغل أن يصطنع السلبيَّات، ويلتقط السيِّئات، ويشيع اليأس والتشاؤم، ولا يرى في أعمال الآخرين سوى ذلك..

العاقل الحكيم يلوذ بالصدق في كلِّ موقف؛ لأنَّه يحترم نفسه، ويحترم عقول الآخرين، ويعلم أنَّ الصدق أسلم عاقبة، وأقوم قيلاً.. والجاهل السفيه يكذب ويكذب.. لأنَّه هانت عليه نفسه، واستخف بعقول الآخرين، ولم يعلم أنَّه بالكذب يضرُّ نفسه، وأنَّ حبل الكذب أقصر ممَّا يتصوَّر..

العاقل الحكيم لا يغرُّه معسول الكلام، ولا تخدعه المظاهر عن الحقائق، ولا يغلبه سوء الظنِّ، ولا يستخفُّه سراب الوعود.. والجاهل السفيه يجري وراء أوهام الكلام والمظاهر، وعندما تصدمه الحقائق، يغلبه سوء الظنِّ بأقرب الناس إليه..

العاقل الحكيم أصدق ما يكون مع نفسه، وأعدل ما يكون مع عدوِّه، فربَّما انقلب عدوُّه بالصدق وليّاً حميماً.. والجاهل السفيه أوَّل ما يغشُّ نفسه ويخونها، ويظلم عدوَّه فيكون ظلمه سلاحاً يقوِّي عليه عدوّه..

وقديماً قال آباؤنا حكمة ذهبت مثلاً: (يفعل الجاهل بنفسه ما لا يفعل العدوُّ بعدوِّه).

* * * * *

الحكمة والخبرة زملاء أوفياء..

ولا يبحث عن الخبرة إلَّا من عرف قدر الحكمة، وكفى بالحكمة قدراً أن تجمع العقول إلى العقل، والأعمار إلى العمر، والعلوم إلى العلم، وأن تأتيك مجّاناً بغير كلفة ولا عناء، بينما مدرسة الحياة لا تعلّمك شيئاً إلَّا على حساب وقتك وجهدك، وصحّتك ومالك، وربَّما كان ذلك بأعلى التكاليف.. ومهما غاليت في قدر خبرة العقلاء فأنت الرابح..

* * * * *

الطعنُ بعلم الطبيب لا يغني المريض عن طلب الشفاء لعلّته، إلَّا إذا كان يريد أن يموت بها.

* * * * *

العطيّة مهما عظمت إذا اقترنت بالمنّ فلا أجر لصاحبها ولا مثوبة، بل عليه الوزر، ويستحقّ العقوبة.. فكيف إذا كان المنّ بعطاء كاذب لا أصل له، ولا حقيقة؟!

إنّه بيع للوهم مع الكذب، واستغفال للعباد ومخادعة، ونوع من الإفساد لحقيقة الإحسان والبرّ.. والله لا يصلح عمل المفسدين..

* * * * *

﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

هذا الدعاء عدا عمَّا فيه من العبوديَّة لله تعالى، فإنَّه يعلِّم المؤمن ويؤدِّبه بأخلاقيَّة عالية ألا وهي الاعتراف بفضل أهل السبق بالإيمان والعمل الصالح، والتحذير من حمل الغلِّ على المؤمنين، إذ هو مبدأ تفرُّق الكلمة والتقاطع والتدابر.. فأين نحن من هذا الأدب القرآني الأمثل؟

* * * * *

من مناقب علَّامة الشام، وأعجوبة زمانه، الشيخ بدر الدين الحسنيّ، رضي الله عنه: أنَّه حضر درسه رحمه الله تعالى شابٌّ حليق، حاسر الرأس من شبان (الموضة)، وكان الشيخ على عادته مطرقاً، فقال له أحد الثقلاء من الحاضرين: سيّدي ما حكم الشبَّان الذين يتشبَّهون بالنساء، ويتزيَّنون بزي الكفار؟!

فأدرك الشيخ بذكائه النادر أنَّ في المجلس غريباً، فرفع رأسه فلمح الشابّ، فدعاه فأجلسه بجواره وأكرمه!! وقال للسائل مؤنِّباً بأسلوبه الناعم: يابا... هذا يتبارك به، يعني: أنَّ شابّاً مثله، يطلب العلم، ويؤم مجالسه، ويستهدي الطريق إلى الله أهل لأن يتبارك به أمثال هذا الثقيل، الذين يقطعون الطريق إلى الله تعالى بغلظتهم، وقسوة قلوبهم.

* * * * *

﴿فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَة. وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَة﴾ [البلد: ١١ـ ١٢].

فَما العقبة التي تدعو الآية إلى اقتحامها؟ إنّها ما بيّنته الآيات التالية: ﴿فَكُّ رَقَبَة. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَة. يَتِيماً ذَا مَقْرَبَة. أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَة﴾ [البلد: ١٣ـ ١٦]. إذ تنصّ هذه الآيات على أنّها من نوع علاقة الإنسان بأخيه الإنسان.. وتلك العلاقة تتعدّد وتتنوّع، لتشمل كلّ علاقة، ولا تقتصر على نوع منها..

وقد سمّاها الله تعالى عقبة، لأنّ طبيعة التنافس بين بني البشر، والاختلاف في الآراء والأهواء تصدّ الإنسان عن التعاون مع أخيه الإنسان، وخدمته ونفعه، وتفرض على أكثر الناس أو تدعوهم إلى المشاحّة والأثرة، إن لم تدعهم إلى الظلم والبغي..

فللنفس في علاقاتها مع الناس عَقَبَات وعَقَبَات.. والعاقل الحكيم من يكتشف عَقَبَات نفسه من خلال مواقف الناس معه، ومواقفه مع الناس.. ولا يذهب مذهب التقديس لنفسه، والوقوف مع نقائص الناس، بل يحرص على أن يكون نفّاعاً للناس مهما رأى منهم من

الأثرة والإساءة.. لأنّه في الحقيقة ينفع نفسه، ويعبّر عن معدِنه، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٤].

* * * * *

إذا لم ينفع التلطُّف بالقول، وقول «الحسنى» مع إخوانك المؤمنين، فلن تنفع الغلظة والجهر بالسوء.. إلَّا عكس ما تريد..

فهل تسعى إلى الإساءة لفكرتك، ونقض رأيك؟!

* * * * *

قال لي: «لولا الله، ثمّ ما أمر من خلق البرّ والوفاء، واحتساب ذلك عند الله لكان لي شأن آخر في تعاملي مع فلان.. وأنت تعلم أنّه منذ سنوات أحسن إليه، ويسيء إليّ، وأخدمه بما أستطيع، ولا أرى منه إلَّا الإساءة ونكران الجميل»..

فقلت له: هنيئاً لك بهذه الأخلاق القرآنيّة النبويّة، التي تنكّر أكثر الناس لها، ونفتقدها في أخلاقنا وتعاملنا.. إنّها تحتاج إلى برامج تربويّة مكثّفة، يعمل عليها مربّون أكفاء، وتحشد لإنجاحها كلّ الوسائل والأساليب المبدعة..

* * * * *

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ [الكهف: ٦٦].

تواضع لعباد الله.. وبخاصّة لمن هم أعلم منك.. فلا ينتفع بخصوصيّات الآخرين، ويقتنص خبرات الحياة إلَّا من تواضع، ولم يترفّع..

بالتواضع يحترم الإنسان نفسه، ويزيد علمه ولا ينقص، وترتفع مكانته في قلوب الناس ولا تنزل، ويجمع إلى عقله عقول العقلاء، وحكمة الحكماء..

* * * * *

في طريق عودتي من المسجد كلّ يوم ألتقي عاملاً ينتظر سيّارة عمله.. فسلّمت عليه أوّل مرّة فردّ ردّاً، لا يكاد يُسمَع، وفي المرّة التالية ردّ ردّاً مَسمُوعاً، وبعدها ردّ ردّاً فيه حرارة الترحيب مع بَشاشة ظاهرة.. وبعدها ردّ ردّاً مع الترحيب، وإضفاء صفة التقدير والاحترام على شخصي الضعيف.. فقلت في نفسي: هذه سنّة نبويّة واحدة، فعلت فعلها في نفس هذا الرجل، فكيف لو أخذنا بهدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى، وفي علاقاتنا عامّة؟!

بعد كلمة التوحيد، أجمل كلمة طيّبة هي مفتاح كلّ خير وبرّ: تحيّة الإسلام، تحيّة أهل الجنّة دار السعادة والرضا والسلام..

* * * * *

لَطَائِف ونَفحَات قُرآنيَّة

وقفة مع حقيقة التدبر

التدبُّر الذي خصَّ الله به القُرآن وأمر به، وحثَّ عليه في مواطن عديدة، وبدونه تصبح تلاوة القُرآن صورةً لا حقيقة لها ولا روح فيها..

وفي الآية الكريمة أعلاه يأمر الله تعالى عباده بتدبُّر كتابه، والتدبُّر هو التأمُّل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك. فإنَّ تدبُّر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنتج كلُّ خير، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنَّه يُعرِّف بالربِّ المعبود، وما له من صفات الكمال والجلال والجمال، وما يتنزَّه عنه من سمات النقص، وبه يعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عنده من التكريم والنعيم، وبالتدبُّر يُعرف العدو الذي هو العدو الحقيقي، وتعرف الطرق الموصلة إلى العذاب وأهلها.

وكلَّما ازداد العبد تأمُّلاً في القُرآن ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله به، وحثَّ عليه، وأخبر أنَّه المقصود بإنزال القُرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ولو تدبَّر الناس كتاب الله تعالى حقَّ التدبُّر؛ لدلَّهم على كلِّ خير، ولحذَّرهم من كلِّ شرٍّ، ولَملأ قلوبهم من الإيمان واليقين، ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهب الغالية، ولَبيَّن لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى مرضاته وجنَّته، والطريق الموصلة إلى العذاب وسخطه، ولعرَّفهم بربِّهم سبحانه وأسمائه وصفاته، وعظيم نعمه وإحسانه، ولشوَّقهم إلى جزيل ثوابه.

ومن فوائد التدبُّر لكتاب الله: أنَّه يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنَّه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو يصدِّق بعضُه بعضاً، ويوافق بعضُه بعضاً. فترى الحِكَم والقصَّة والأخبار تعاد في القرآن في عدَّة مواضع، وكلُّها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضُها بعضاً، فبذلك يُعلم كمالُ القرآن الكريم، وأنَّه من عند من أحاط بكلِّ شيءٍ علماً، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢] أي: فلمَّا كان من عند الله لم يكن فيه أيّ اختلاف أو تناكر.

والله تعالى يتساءل في استنكار: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ﴾.. وتدبُّر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرِّك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير..

والبديل عن التدبُّر أن تكون القلوب مقفلة مغلقة:

﴿أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ [محمد: ٢٤] فهي تحول بينها وبين القرآن، وبينها وبين النور، فهي قد أغلقت على ما فيها من الشر وأقفلت، فإنَّ استغلاق القلوب كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور!

قال ابن جرير رحمه الله: أي: أفلا يتدبَّر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في القرآن الذي أنزله على نبيِّه عليه الصلاة والسلام، ويتفكرون في حججه التي بيَّنها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون؟ ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؟ أي: فلا يصل إليها ذكر، ولا ينكشف لها أمر.

وتنكير القلوب للإشعار بفرط جهالتها ونُكرها، كأنها مبهمة منكورة. والأقفال مجاز عما يمنع الوصول. وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميّز لها عمّا عداها، وللإشارة إلى أنّها لا تشبه الأقفال المعروفة؛ إذ لا يمكن فتحها أبداً.

ويقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: وإذا سمعت كلمة (أفلا) فاعلم أنَّ الأسلوب يقرِّع من لا يستعمل المادة التي بعده. ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ﴾ أي كان الواجب عليهم أن يتدبَّروا القرآن. فهناك شيء اسمه: (التدبُّر)، وشيء اسمه: (التفكُّر)، وثالث اسمه: (التذكُّر)، ورابع اسمه: (العلم)، وخامس اسمه: (التعقُّل).

ووردت كل هذه الأساليب في القرآن: ﴿أفلا يعلمون﴾، ﴿أفلا يعقلون﴾، ﴿أفلا يتذكرون﴾، ﴿أفلا تتفكَّرون﴾. هي إذن: تدبر، تفكر، تذكر، تعقل، وعلم.

والحق يقول: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ﴾ والتدبر هو كل أمر يُعرَض على العقل له فيه عمل، فتفكر فيه لتنظر في دليل صدقه؛ هذه أول مرحلة، فإذا ما علمت دليل صدقه فانظر النتيجة التي تعود عليك لو لم تعملها. و(تتدبر) تعني أن تنظر إلى أدبار الأشياء وأعقابها، فالرسول يبلِّغك: الإله واحد، ابحث في الأدلة بفكرك، فإذا ما انتهيت إليها آمنت بأنَّ هناك إلهاً واحداً.

فالتدبُّر مرحلة بعد التفكُّر، فالتفكُّر مطلوب أن تتذكَّر ما عرفته من قبل إن طرأ عليك نسيان. فالتفكُّر يأتي أولاً، وبعد ذلك يأتي التدبُّر.

فأول مرحلة هي: التفكُّر، والثانية هي: التدبُّر، فإذا غفلت نقول لك: تذكر ما فكَّرت فيه، وانتهيت إليه، وتدبَّر العاقبة، فهذه كلُّها عمليَّات عقليَّة: فالتفكير يبدأ بالعقل، والعقل ينظر أيضاً في العاقبة، ثمَّ تعمل الحافظة لتذكِّرك بما فات.

* * * * *

القرآن الكريم يعلِّمنا أن نعود إلى أنفسنا عندما نرى النتائج لا تتوافق مع ما نطمح إليه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]! وذلك يعني بكلِّ وضوح أنَّنا لا نستحقُّ تلك الطموحات، التي لم نؤدّ شروطها، ولم نتجنّب أسباب إخفاقها، إنَّها سنن الله التي لا تحابي أحداً.

* * * * *

سورة الكهف تمثِّل الصراع بين الحقِّ والباطل، والخير والشرِّ، وفتنة الدنيا واستعلاء الهدى، وسرّ القدر، ما ظهر منه وما استتر، وهي زينة سور القرآن ونورها..

وزينتها وخلاصتها قول الحقّ سبحانه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [الكهف: ١٠].

* * * * *

﴿وَللهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧]. مهما طالت بك الحياة فالحساب كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ.. وربَّما عاجلك شيء منه في الدنيا قبل الآخرة..

إذا لم تستح فاصنع ما شئت، وقل ما شئتَ.. فالحساب هناك لا هنا.. وإذا لم ترجُ لله وقاراً، ولم تحسب للآخرة حساباً، فأيّ شيء يردعك عن قول الإثم والزور.

* * * * *

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]

كلَّما استَشعَرتَ شمول ملكوت الله تعالى لكُلِّ شَيْءٍ استَشعَرتَ حقيقة عبوديَّتك لله تعالى واضطرارك وافتقارك، وافتقار الخلق جميعاً لله، وأنَّهم مهما ملكوا من القوَّة ومظاهرها وأسبابها، فإنَّ القوَّة لله جميعاً.. ومن يدَّعي لنفسه أو لغيره القوَّة والبأس، وملك شيء من أمر النفس فليُؤخِّر عن نفسِه الموت..

* * * * *

﴿مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

في الطريق إلى قدر الدعوة الحقِّ سيتساقط كثير من الناس، من المؤمنين بها، لأنَّهم كانوا يظنُّون الطريق قصيراً أو آمناً، وأنَّه مغانم تشرئبُّ لها النفوس، فلمَّا بعدت عليهم الشقَّة، ورأوا ضخامة التكاليف، شكَّكوا فيما نزل بهم من البلاء، وآثروا الدنيا على الآخرة، فأحجموا وجمجموا، ثمَّ نكصوا على أعقابهم وانقلبوا، واصطفُّوا مع المرجفين المثبِّطين..

ولم يعلموا أنَّ هذا الطريق مبناه على الحبِّ، وبذل المُهج والأرواح بصدق، وأنَّ السلبيَّات والأخطاء لا تعالج إلَّا بأيدي المُصلحين البنَّائين، ولا تفرض من المُفسدين الهدَّامين، وأنَّ سنَّة الله تعالى في خلقه أن يصطرع البناء مع الهدم في كلِّ ميدان، ثمَّ تكون العاقبة للمتَّقين..

* * * * *

﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

الجدال بِالبَاطِلِ نوعان: جدال عن الفكرة البَاطِلةِ، وجدال بالأساليبِ البَاطِلةِ، وكلا النوعين جدال بهوى النفس لا بالعلمِ.

الجدال بالباطل يَبْدأ من القلب حيث يتعالى ويأنف عن قبول الحقِّ، فذلكم هو الكبر، الذي يقوم على رفض الحقِّ والتعالي على أهله، لأيِّ اعتبار كان.. وماذا يرتجى من متكبِّر أن يخضع للحقِّ، ويحرص على قبوله؟!

ولربَّما وقع بعض المسلمين بأحد نوعي الجدال بالباطل، لضعف العلم والتهذيب وضيق النظر في الفهم، أو لغلبة الهوى على النفس..

وعلى المؤمن أن يحرِّر قصده قبل أيِّ جدل، كيلا يكون جداله سبباً لوقوعه في الكبر، من حيث يدري أو لا يدري..

* * * * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ﴾ كلمة قالها من قبل عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ، فصدقوا في قولها، وأعلنوها بيعة لله لإعلاء كلمته، ونصرة دينه، فأثابهم الله بالغلبة على عدوِّهم، على الرغم من قلَّة عددهم، وجعل لهم العاقبة ما داموا أوفياء مع الله على هذا العهد.. ويستنهض الله تعالى في هذه الآية همم المُؤمنين من هذه الأمَّة، ليقتدوا بتلك الثلَّة الكريمة من حواريّي عِيسَى عليه السلام، وليقرِّر لهم في الوقت نفسه أنَّ تلك الحقيقة ليست موقفاً عابراً، بل هي سنَّة من سنن الله الماضية في الأوَّلين والآخرين، لا تغيير فيها ولا تبديل.. ويؤكِّد هذه السنَّة آيات أخرى من كتاب الله تعالى، منها قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم﴾ [محمد: ٧].

واليوم يستصرخ دين الإسلام ضمائر أبنائه الأحرار الصادقين، وقد أحاطت به قوى الشرِّ من كلِّ جانب، وخذله بعض أبنائه، وخانه آخرون، وتاجر به المُتاجرون، وافترى عليه المفترون، وانحاز إلى ركب الباطل المُنحازون.. فأين الذين ينتدبون أنفسهم لأشرف الغايات، وأين أصحاب الغيرة والمروءات؟! وأين الرجال الذين: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

* * * * *

مشهد من مشاهد الآخرة..

﴿يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ.

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣ـ ١٤].

تصوِّر هاتان الآيتان مشهداً حواريّاً من مشاهد الآخرة بين المؤمنين والمنافقين.. حين يسعى المؤمنون بنورهم، ويتوسَّل إليهم المنافقون، وهم في ظلمات ما كانوا عليه في الدنيا، من خداع وكذب، وتلبيس وتضليل.. يتوسَّلون إليهم: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالتَمِسُوا نُوراً﴾ إنَّ نور الآخرة هو نور الإيمان الصادق، والعمل الصالح، ولم تكونوا حريصين عليه في الدنيا.. ولكنَّ المنافقين لا يستيئسون من إدراك شيء من النور، فيقولون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ﴾؟! في حال من أحوال الدنيا، فيجيئهم الجواب الحاسمُ: ﴿بَلَى، وَلَكِنَّكُمْ﴾: انتكستم عن الهدى، وسرتم في طريق الردى، ثمّ يُعدِّدُونَ لهُمْ أربعة أسباب لما آلوا إليه من خزي وحسرة يوم القيامة:

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.. بإيثار الدنيا ومغرياتها على مرضاة الله والآخرة..

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.. تطلَّعتم إلى انتصار الكافرين، وفرحتم بنزول البلاء بالمؤمنين..

﴿وَارْتَبْتُمْ.﴾.. بوعد الله بانتصار الحقِّ على الباطل، وأنَّ العاقبة للمتَّقين..

﴿وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾.. وما أكثر الأمانيَّ الخدَّاعة، التي يلقي بها الشيطان إلى أوليائه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [النساء: ١٢٠]

﴿حَتَّى جَاء أَمْرُ اللهِ﴾.. بالموت، أو الآخرة، وما فيها من أهوال الحساب والجزاء..

﴿وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ﴾: فسقطتم في شباك الشيطان، وكنتم من أهل الخزي والخسران..

إنَّه مشهد من مشاهد الآخرة، وكأنَّه يتجسَّد اليوم فيما يجري من أحوال الناس وتقلّباتهم، وانتكاساتهم التي قد تفاجئ بعض الناس، ولكنّها لا تخرج عن طبيعة هذه الحياة، التي تقوم على الفتنة والابتلاء.. والحسَابُ عندَ البَيدر، كما يقول الحسن البصريّ رضي الله عنه.. ولا يغترّ ويفتن بهذه الدار إلَّا جاهل أحمق..

اللّهُمَّ يا مقلِّب القلوب والأبصار ثبّت قلوبنا على دينك، ونعوذ بك اللّهُمَّ من النفاق، ومن مضلَّات الفتن.

* * * * *

الجدَل المذموم..

﴿..مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٥٨].

﴿..وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٤].

هناك خمسة أنواع من الجدَل المذموم الكريه:

الجدَل العقيم، وهو الجدَل بلا علم ولا هدف..

والجدَل السخيف، وهو الجدَل فيما لا معنى للخلاف فيه..

والجدَل للجدَل، وهو الجدَل لإظهار النفس، والترفّع في المجالس..

وجدَل المراهقين، وكأنّهم يقولون لمن حولهم: نحن هنا! لقد أصبحنا مثلكم..

والخامس جدَل المتكبّرين وهو الجدَل للحطّ من أقدار الآخرين وانتقاصهم، وإرضاء غرور النفس وتعاليها، وهو الجدَل الإبليسيُّ، وهو أسوأ الأنواع وأخبثها..

* * * * *

والوفاء له رجال!

أخ عزيز، وصديق قديم، انقطعت عنّي أخباره أكثر من ثلاثين عاماً، حتّى ظننت أنّه أصبح من أهل الآخرة.. ثمّ فوجئت باتّصاله عبر «الفيس»، وإنّ الفيس نعمة لا تقدّر.. فاطمأننت عنه، وحمدت الله تعالى على أن متّعه بطول العمر والصحّة والعافية، ولو لم ييسّر تباعد الديار لقاءه..

عِلمي به أنّه صديق ودود، لم تعكّر صفو العلاقة به الأيّام، ولم يُنسِه الودّ تقلّبُ الزمان، وأنا اليوم ألتمس له العذر عن عدم التواصل، ويلتمس لي الأعذار..

وكلّما جمعتنا صفحات «الفيس» في لقاء عابر، نجدّد عهدنا القديم، وتعود بنا الذكريات بالنفس إلى الأيّام الخوالي، ويعدني بالزيارة قريباً.. وتمرّ الأيّام ولا يزور..

واتّصلت به لأزوره، وقد أصبحت قريباً من دياره، فاعتذر عن الزيارة!

ففوجئت أوّلاً، ثمّ قلت: لعلّ له عذراً، وأنت تلومُ.. ثمّ وعدني بالزيارة قريباً.. ولم يزرني، ولم يتّصل! فالتمست له العذرَ مرّة أخرى..

وأنا أرى بصدق أنّ حبل الودّ بيننا أوثق الحبال، فلا أزال ألتمس له الأعذار تلو الأعذار.. ولا أعلم شيئاً عن أعذاره وخفايا أمره..

ثمّ علمت من بعض ذوي قرابته أنّ زوجته مريضة، وأنّه مشغول بمرضها، فاتّصلت به أواسيه، وأسأله عن مرضها، فما زاد على أن قال: نعم، إنّها مريضة.. ودعواتكم لها بالشفاء والعافية.. وحاولت أن أقتحم أسوار الأسرار، فتحفّظ، وما زاد على ما قال.. وكرّر طلب الدعاء..

وفوجئت بخبر وفاة زوجته، فذهبت إليه معزّياً.. ويا للعجب! لقد علمت يومها أن زوجته كانت مريضة منذ أكثر من خمس سنوات، وأنّه كان يقوم على خدمتها بنفسه، فلا أحد من أهلها أو أولادها قريب منها.. وكان لا يعلم بذلك إلّا خاصّة القريبين منهما..

فقلت في نفسي: الحمد لله، أنّي لم أسئ الظنّ بصاحبي أوّلاً.. والحمد لله على ما تعلّمت منه من الوفاء ثانياً.. والحمد لله على ما رأيت من صاحبي من إيثار الستر، وكتم السرّ ثالثاً.. وحقّاً! إنّ الوفاء له رجال.. فطوبى للأوفياء..

وما أحسنَ ما قالَ الشاعر:

سَألتُ الناسَ عَن خِلّ وَفِيّ ... فقَالُوا: مَا إلى هذا سَبيلُ

تمسّك إن ظَفِرتَ بذَيلِ حُرٍّ ... فإنّ الحرّ في الدنيا قَليلُ

ورفقاً بنا أيّتها النساء! لا تظلمن الرجال، فتقلن: ليس فيهم أوفياء.. وأعِنّ الرجال أن يكونوا أوفياء..

ولكنّ هذه الخلائق التي أصبحت من الندرة بمكان في هذا الزمان، في الرجال وفي النساء، تحتاج إلى نوع خاصّ من التربية والتعهّد، والغرس والرعاية، من رجال يربّون بأخلاقهم قبل أقوالهم، في وسط مجتمعات غلبت عليها المادّيّة، وسادت فيها خلائق النفعيّة، وتمكّنت فيها الأثرة وتقديس الذات، حتّى أصبح لسان حال كلّ إنسان: نفسي! نفسي! وأصبحت أوثق العلائق تقطع بأتفه الأسباب.. وإذا تقرّب إليك متقرّب اكتشفت بعد أيّام أنّ له مصلحة مادّيّة سرعان ما ينساك إذا نالها..

إنَّ الوفاء أيّها الناس! سرٌّ من أسرار السعادة النفسيَّة، والأمن الأسريّ والاجتماعيّ، ولا يعرف ذلك إلّا من عرفه وذاقه!

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على خاتم الأنبياء سيّد الأوفياء.. معلِّم الرجال والنساء: كيف يكون الوفاء..

* * * * *

درس في ساعة!

درس في ساعة يعدل تعليم سنة: منذ أكثر من أربعين سنة جمعني طريق السفر من حلب إلى دمشق بطالب علم، أكبر منّي بسبع سنوات فيما أقدّر..

كنت أسمع به من قبل وأحبّه، لما أسمع عن تقواه وسمته الصالح دون أن أراه..

وكان طريق السفر بالباصات الشعبيّة طويلاً مملّاً.. وكنت أرغب بالنوم فيه لأمضّي الوقت، ولكنّ هذا الصاحب الكريم لم يدع لي فرصةً للنوم لحظة، فمن حديث إلى حديث، ومن سؤال وتعارف، إلى توجيه ونصح، وإزجاء تجارِب في ثوب المدح..

كان حديث الرجل عذباً فكهاً، يدخل القلب بلا استئذان..

فأقبلت عليه باهتمام، وأشحت عمّا عزمت عليه في سرّي من مجاملة، لا أرى وراءها إلّا تمضية وقت السفر المملّ..

كان نصح الرجل وتوجيهه يقطر أدباً وتواضعاً، قد اكتسبهما من صحبة أكابر المشايخ الذين تتلمذ عليهم، لا كبعض الناس الذين يقدّمون النصح فيما يزعمون، وهو متسربل بثياب الكبر والتعالي على الناس، فيكون من نتن الكبر ما يصدّ عن قبول النصح، ولو كان حقّاً لا غبار عليه..

والقلوب تجسُّ على القلوب، والنفوس ولو كانت عليلة، تشمُّ أمراض النفوس، فتقبل عليها أو تدبر.. ورحم الله امرءاً حاسب نفسه قبل أن يلقي للناس نصحه..

وكان ممّا سمعت من نصح هذا الرجل الحكيم وتوجيهه، نقلاً عن بعض مشايخه، ثلاث نصائح لا تزال في نفسي ماثلة، وأرجو من الله أن أقوى دائماً على العمل بها:

ـ المؤمن الربَّانيُّ يلتمس ما يحبّ الربّ سبحانه، في كلّ شأن من شؤونه.. وهل يكون ربّانيّاً بغير ذلك؟! وهذا يعني أنَّه يسعى دائماً للتجرُّد عن حظوظ نفسه.. فاحذر هوى النفس، فإنَّه يصمُّ عن الحقِّ ويعمي..

ـ كيف يعرف المؤمن أنّ الله معه؟! عندما يكون بالرحمة والشفقة مع الضعفاء والمساكين من عباد الله، فإنّ الله معه بالتأييد والتوفيق، لأنَّ الخلق كلَّهم عيالُ الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله..

ألم يقل الحبيب المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم: (إنّما تُنصَرونَ وتُرزَقُونَ بضُعفائكم)، ويقول في الحديث المسلسل بالأوّليّة عند علمائنا المحدّثين: (الراحمُون يَرحمُهُم الرحمنُ، ارحمُوا مَن في الأرض، يَرحَمكُم من في السماء).

فإذا ضاقت عليك أسباب الرزق فالتمسها بخدمة الضعفاء والمساكين، تجد الله تعالى ييسّر لك أسباب الرزق من حيث لا تحتسب، وأسرع ممَّا تتوقَّع وتتصوَّر..

والله كريم يحبُّ من عباده الكرماء، ويجعل منهم أبواب الرزق وأسبابه للفقراء..

وتأسيساً على هذه النصيحة فإنَّ أرزاق الفقراء والضعفاء والمساكين مباركة نافعة بإذن الله، ولا بركة فيما غلا ثمنه، ولم يكن للفقراء فيه حظٌّ أو نصيب..

ـ لا يزال الصالحون يوصون ويتواصون: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» ولا يعني ذلك ما يفهمه بعض الناس من السلبيَّة وترك النصح، وإنَّما المقصود أن يبتعد الإنسان عن الحديث عن عيوب الناس بنشرها وتعدادها، ممَّا يهوِّنها في نظر السامعين، ولو لم يذكر فاعلها، فلو ذكر فاعلها لكان الأمر أسوأ وأشنع.. ووقع في كبيرة من كبائر الإثم..

سلام عليك أيُّها الناصح حيث كنت، فلا أزال أنتفع بكلماتك ونصائحك..

ويا أيُّها الخطباء والوعَّاظ! قليل من النصح مع التواضع، والقول الليِّن مع العمل، خير من كثرة الكلام من قلوب مليئة بحبِّ الدنيا وحظوظ النفس الأمَّارة بالسوء..

ربَّ موعظة عابرة خير وأنفع من محاضرات طويلة..

* * * * *

نَصَائح ذهبيَّة في الحيَاة الزَّوْجِيَّة

مثل الشريكين كالكأسين، امتلأت كلٌّ واحدة إلى نصفها، فيكمِّل كلُّ شريك صاحبه بما عنده، حتَّى يكتمل عملهما وينجح، ويحقِّقا أهدافهما على أحسن وجه..

وكذلك الزوجان، لا يكتمل الوجود الإنسانيُّ ويستمرُّ إلَّا باجتماعهما، وتكامل شخصيَّتهما وأثرهما، وهذا يعني أنَّ في الرجل نقصاً لا تسدُّه إلَّا المرأة، وفي المرأة نقصٌ لا يسدُّه إلَّا الرجل.. ومن تعامى عن ذلك أو تنكَّر له فإنَّما يعاند فطرة الله تعالى ويعاكسها، ولن يجني من وراء ذلك إلَّا الإفساد لحياته، والشقاء لنفسه، ولمن يسير على شاكلته.. والله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي القوم الظالمين..

* * * * *

المؤسّسات التي يراد لها الرسوخ والتألّق تحتاج إلى قائد ومدير، ولا يغني أحدهما عن الآخر، وإذا نازع أحدهما الآخر مسؤوليّته تعثّر عمل المؤسّسة، وفسد نظامها، كما لا بدّ من التوافق بين عمل القائد وعمل المدير، ليطّرد سير العمل في طريق النجاح وتحقيق الأهداف..

وينطبق هذا الأمر على مؤسّسة الأسرة تمام الانطباق؛ فالله تعالى قضت حكمته أن يقوم الزوج بمسؤوليّة القيادة، وتقوم الزوجة بمسؤوليّة الإدارة، ويتعاونا بما يحقّق نجاح المؤسّسة وأهدافها.

وتلك باختصار حقيقة القوامة التي نصّ عليها الله تعالى عليها في كتابه، وحقيقة الدرجة التي خُصّ الرجلُ بها.

وإذا كان لأحد أن يعترض على حقيقة القوامة وحقيقة الدرجة التي نصّ عليها الله تعالى عليها في كتابه، فليعترض على مفهوم القيادة ومفهوم الإدارة، اللتين لا ينازع فيهما أحد في أنظمة المؤسّسات والشركات.

* * * * *

«وَراءَ كلّ امرأة عظيمة رجلٌ عظيمٌ» أم «وَراءَ كلّ رجل عظيم امرأةٌ عظيمةٌ» مقولتان متضادّتان، نسبيّتان في صلتهما بالحقيقة المطلقة، يتنازع الناس حولهما.. ويكتب كلّ فريق

من الناس وفق رؤيته الخاصّة وتجربته، أو بما يعبّر عن تحيّزه لأحد الطرفين، وغضّه من شأن الطرف الآخر.. وأرى أن وَراءَ الرجل العظيم أو المرأة العظيمة توافقاً نفسيّاً مع الطرف الآخر، يكشف شيئاً ممّا أودع الله تعالى من أسرار خلقه المعجز في عباده، ممّا أقسم الله به في كتابه بقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [الليل: ٣]. ولولا التوافق النفسيّ غالباً لما تجلت عظمة الرجل، ولا عظمة المرأة.

ويعبّر عن التوافق النفسيّ أبلغ تعبير قول الله تعالى في كتابه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾ [الروم: ٢١].

* * * * *

بين المحظوظات (وهنّ نساؤنا الكريمات) والمخطوطات تبديل بنقطة واحدة، تنتقل فيها المحظوظات آنيّاً إلى عالم نفائس المخطوطات، التي لا تقدّر بثمن..

هذه النقطة هي رمز عن تجاوز النفس وحظوظها، إلى عالم لا تحدّ آفاقه، ولا تنقطع ثمراته..

وتبقى المسؤوليّة الأكبر على الرجل، الذي لا يطعم زوجته من عالم المعنويّات مثل ما يطعم، ويجتهد في تلبية مطالبها في عالم الحسِّيَّات الفانية..

* * * * *

أروع النسَاء من تدلِّل زوجها كطفل، وتحترمه كأخ، وتخافه كأب، وتهابه كسلطان، وتحبُّه كروح تسكن في داخلها. منقول.

تعليق: والطفل حَقُّه الرحمة والرفق، والأخ حقُّه الخدمة وحسن الخلق، والأب حقُّه الأدب والبرُّ، والسلطان حَقُّه التعظيم والطاعة..

والحبُّ قوامه التضحية بحظوظ النفس، والإيثار والوفاء، وما يلقى المحبُّ الصادق من لذَّة ذلك هو حظٌّ للروح لا تعدلها لذَّة.. شؤون الشقائق.

* * * * *

أيّتها المرأة المسلمة! بيتك مملكتك الجميلة.. عنوان شخصيَّتك.. سرُّ جمالك وتألُّقك.. مفتاح نجاحك وسعادتك.. مبعث الراحة والسكينة لأسرتك.. له الأولويَّة في رعايتك واهتمامك، وحرصك وعنايتك، ولو أظهر لك زوجك الصبر والتحمُّل، والتغاضي والتسامح.. ولكنَّه يتغاضى اليوم.. وأيّاماً، ثمّ ما يلبث أن ينفجر بعدما تتراكم في نفسه الملاحظات والسلبيّات..

* * * * *

إضاءات في طريق السعادة الزوجية ١

أليس من حقّنا أن نتطلّع إلى الحياة الزوجيّة المثاليّة في أبنائنا وبناتنا، وإن كنّا قد عجزنا في أنفسنا عن بعض مظاهرها، أو أكثر مظاهرها؟! أوليس مثل هذا التطلُّع يعدُّ فطرةً في الإنسان، تملأ كيانه، وتشمل كلّ جانب من جوانب حياتِه؟! ولكنْ ما مفهومنا عن المثاليّة التي نتغيّاها؟ هنَا تكمنُ المشكلة، التي يفترق الناس فيها طرائق قدداً.. فكان لا بدّ من الحديث عن أسس الحياة المثاليّة ومبادئها، ليُعرَفَ فهمُنا لها، وتصوّرُنا عنها، عن تصوّر غيرنا وفهمه. وإنّ التطلّع إلى الحياة الزوجيّة المثاليّة من الممكن أن يكون حصناً للحياة الزوجيّة عن التردّي في متاهات الاهتمَامات المُسِفّة عَن الحياة الكريمة الهادفة، التي نتوخّاها، ونتطلّع إليها عند بناء أسرةٍ جديدة..

وإنّ ممّا يؤرّق كثيراً من العقلاء ما يؤول إليه كثير من حالات الزواج من نهاية بائسة.. من طلاق ظاهر أو خفيّ، وهو ما يسمّى: (الطلاق العاطفيّ).. وتتّجه أنظار كثير من الباحثين إلى الأسباب المادّيّة، ولا يفكّرون بما وراءها ممّا يفرضها أو يلغيها، وما يُحكّمها ويتحكّم بها.. وما يحار به كثير من الباحثين أنّ كثيراً من حالات الزواج البائس المدمّر بدأ في ظاهر الأمر زواجاً سعيداً ناجحاً.. ثمّ انتهى تلك النهاية المؤسفة.. فكيف كان ذلك؟! ولو فكّرنا بعمق، وتجاوزنا الظواهر لرأينا الزواج البائس المدمّر في النهاية هو زواج لا يملك أسباب السعادة، ولم يقم على أسسها منذ البداية، ولو ملك بعضها، فإنّه يملك منها ما لا يكفي، ولا يغني.. فالزواج البائس المدمّر بعد سنة هو زواج بائس مدمّر منذ اليوم الأوّل.. والزواج البائس المدمّر بعد عدّة سنوات ربّما ملك بعض أسباب السعادة منذ الأيّام الأولى، ولكنّها كانت كالغرسة الغضّة، إذا أهملت بعد أيّامها الأولى فسرعان ما يدبّ إليها دبيب الذبول والفناء..

فلا يغرّنكم السراب الخادع فليس فيه ماء، ولا البرق الخلّب فليس فيه وابلٌ صيّب، ولا ثمر طيّب..

(١)

إنَّ المعاني الإيجابيّة في الزواج تجعله بعبارة نبويّة جامعة إكمالاً لشطر الدين، ولا بديل للإنسان عن ذلك إلَّا الخروج عن الفطرة السويّة، وتعطيل طاقات الإنسان الحيويّة، والرضا بحياة العنت، والوقوع في أبواب من الإثم، وإعلان الحرب على مطالب النفس، واحتياجاتها الحيويّة، ويتجلّى ذلك في شلل فاعليّة الإنسان الاجتماعيّة، وأن يكون عبئاً على الأمّة وكلاً..

ففي الحديث عن أَنَس رضي الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال: (مَنْ رَزَقَهُ اللهُ امْرَأَةً صَالِحَةً فَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى شَطْرِ دِينه، فَلْيَتّقِ اللهَ فِي الشّطْرِ الثّانِي) [١]. وفي هذا الحديث لفتات نبويّة كريمة، يحسن الوقوف عندها قليلاً:

الأولى: التعبير عن الزوجة بالرزق، فهي بحدّ ذاتها رزق من الله تعالى، وهي سبب من أسباب الرزق، كما جاء في الحديث الصحيح عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: رَأَى سَعْدٌ رضي الله عنه أَنّ لَهُ فَضْلاً عَلَى مَنْ دُونَهُ فَقَالَ النّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ) [٢].

وأهمّ الضعفاء في نظر دين الله: اليَتِيمُ وَالمَرْأَةُ، كما جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ اليَتِيمِ وَالمَرْأَةِ) [٣].

والثانية: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم خصّ المرأة التي تكون نعمة على زوجها بوصف الصلاح؛ لأنّ المرأة الصالحة تعرف حقَّ ربِّها، فتحفظ دينها وعرضها، وتعرف حقّ زوجها، فتطيعه فيما يرضي الله، وتعينه على طاعة الله تعالى.. وغير الصالحة وإن كانت تعفّ زوجها عن الزنا، لكنّها ربما حملته على التورّط في المهالك، وكسب حطام الدنيا من الحرام، وهي تشوّش فكره وقلبه بكَثرةِ مَطَالبها، التي قد لا تتّسع ذات يده لأدائها..

والثالثة: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لفت أنظار المؤمنين إلى أثر المرأة الصالحة في دين زوجها، وأنّها بحدّ ذاتها زيادة عظيمة في دينه، عبّر عنها صلوات الله وسلامه عليه

---

[١] . رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين في النكاح ٦: ٢٨٩.

[٢] . رواه البخاريّ في كتاب الجهاد والسير باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب برقم (٢٧٣٩).

[٣] . رواه ابن ماجه في كتاب الأدب باب حقّ اليتيم برقم (٣٦٦٨).

بالشطر، ولم يقل إنّها زيادة في دينه فحسب.. والأصل في الشطر أنّه النصف، ويُستعمَلُ في الجزء من الشيء، ولكنّ نصّ الحديث يؤكّد على مَعْنى النصف، إذ يذكر في مقابله الشطر الثاني؛ فكيف تكون المرأة الصالحة عوناً لزوجها على شطر دينه؟ الذي يبدو لي والله تعالى أعلم أنّ ذلك باعتبار أنّ حياة الإنسان فيها جانب فرديّ، وجانب اجتماعيّ، وأنّ أوّل علاقة في الجانب اجتماعيّ وأهمّها هي العلاقة الزوجيّة، التي هي لبنة المجتمع، وأساس بقاء النوع الإنسانيّ، فإذا صلحت هذه العلاقة واستقامت صلح شطر حياة الإنسان، وما يتّصل به من علاقات واسعة متشعّبة، وبقي الشطر الأوّل الذي يتعلّق بأخلاقه وسلوكه الشخصيّ، فعليه أن يتّقي الله فيه.. وكم رأينا من صلح سلوكه الشخصيّ بعد زواجه، نتيجة استقرار نفسه، وهدوء باله، وصفاء فكره!

(٢)

مفتاح الدخول إلى عالم المرأة وقلبها: من الحقائق الثابتة في علم النفس، ويؤيّدها الواقع: أنّ المرأة أكثر كلاماً من الرجل، وأنّها بحاجة عندما تتكلّم إلى من ينصت إليها باهتمام، وكلّما كان الإنسان أقوى عاطفةً كان أكثر كلاماً، وكان أحوج إلى تفريغ شحنات عواطفه برؤية من يستمع إليه، ويهتمّ بحديثه، والمرأة بخاصّة عندما تواجه المواقف الصعبة مع الآخرين والأخريات تصبح في قمّة انفعالاتها، وتكون أحوج شيءٍ إلى من يبدي لها التعاطف والاهتمام.. فعلى الزوج العاقل أن يتفهّم هذه الحقيقة، ويحسن التعامل معها، ولا ينظر باستصغار وقلّة أهمّيّة إلى ما تعطيه المرأة اهتماماً أكبر.. فكثير من أزمات المرأة النفسيّة والاجتماعيّة هذا مفتاحها، ويمكن أن تحلّ بهذه الطريقة. ولا يحتاج الرجل إذا استمع إليها سوى أن يبدي التعاطف، ولو بصورة ظاهرة مع ما تقول ليفرّغ لها شحنة عواطفها، ويهدّئ من روعها، ثمّ يعالج معها موقفها بموضوعيّة وحكمة في جلسة لاحقة.. ويمكن للرجل إلّا يزيد تعليقه بعد أن يسمع ما يسمع على أن يقول لها: فما الحلّ الأمثل في نظرك؟ وعندها سيجد المرأة ستهدأ بنسبة ثلاثين في المئة على الأقلّ، وستعود إلى التفكير الهادئ بالحلّ الصحيح، ممّا يجعلها تنتصر على هذه المشكلة، دون كبير جهدٍ أو عناء..

(٣)

منَ الخطأ الفاحش الذي يقع فيه كثير من الرجال والنساء: أن يتصوّروا أنّ مقياسَ الحياةِ الزوجيّةِ المثاليّةِ أن تبقى العلاقَة الزوجِيّة العاطفيّة ـ بمعنى الجنسيّة ـ متأجّجة كما كانت في المرحلةِ الأولى من الزواجِ، وهَذَا التصوّر القاصر الساذج عن الحياة الزوجيّة هو

السبب في كثير من حالات التفَكّكِ الأسريّ، التي يؤول أمرها إلى الطلاق، وهو ناجم عَنْ فهْم مُسفّ للعلاقَة الزوجِيّة، إذ هي أسمى وأرفع من العلاقَة الجنسيّة المادّيّة، كما أنّه يخالف سنن الله تعالى في تطوّر الإنسان منْ ضعفٍ إلى قوّة، ثمّ منْ قوّة إلى ضعفٍ، ومع هذا التطوّر تتغيّر ـ في الأكثر الأغلب ـ اهتمامات الإنسان وتتبدّل، وينضج فهمه، وتتّزن مواقفه. وإذا كانت العَاطفة الزوجيّة في مرحلة القوّة والشباب تتمثّلُ في الرغْبةِ الجنسيّة، فإنّها ليست كذلك بالتأكيد في مرحلة الكُهُولَة والشيخوخة.. إنّها تصبح في حَالةٍ من السموّ الإنسانيّ، والنضج العاطفيّ، إن أحسنت رعايتها والعناية، فتسمو عن مجرّد الرغبَة الجنسيّة، والاحتباس في إطارها.

(٤)

الحَياةُ المثاليّة أم الحياة الناجحة: في حوار عَائليّ مع بعض الأرحام حول ما جاء في هذه المذكّرات قالت إحداهنّ: إنّك تطلب في الحياة الزوجيّة المثاليّة في العَلاقة، ونحن نتمنّى أن نصل إلى نجاحٍ مَعقول، تسير به الحياةُ الزوجيّة بصورةٍ مُرضية جيّدة.. أفلا ترى إذن أنّ ما تطلبه من الزوجين هو نوع من المثاليّة غير الواقعيّة؟ ممّا يضعف بحثك كلّه؟!

فقلتُ لها: إنّ المثاليّة التي أتحدّث عنْها وأطلبها مصدرها كتاب الله تعالى، وهدي نبيّه صلى الله عليه وسلم، والأدلّة على كلّ نقطةٍ ممّا أعرضه واضحة بيّنة، ثمّ ألم يقل الله تعالى في دعاء عباد الرحمن: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ [الفرقان: ٧٤]، وكيف يكونون أئمّة للمتّقين إذا لم تكن حياتهم وعلاقاتهم مثاليّة؟ وأمر آخر لابدّ من الإشارة إليه، وهو أنّ الإسلام يدعو إلى علوّ الهمّة، ويشجّع على الطموح، وأكثر الناس يقلّ واقعهم عن همّتهم وطموحهم، فأنّى لمن كانت همّته النجاح فحسب أن يناله ويدركه؟ فمن هنا كان علوّ الهمّة والطموح محفّزاً للإنسان على تحقيق النجاح، وإلّا يقف عند نجاح واحد يحقّقه، ولا يرضى به، وإنّما يترقّى، ولا يزال يترقّى، حتّى يبلغ المثاليّة المنشودة، ويبقى الترقّي ليس له انتهاء..

ومن رزايا عصرنا المسفّة بالإنسان ومنزلته في الكون: أنّ الأنظمة الأرضيّة على اختلاف مشاربها تغري الإنسان بالإسفاف والهبوط، وتبرّر له سقوطه وانحرافه، وتدغدغ مشاعرَه الحيوانيّة ليبقى حبيسَ التفكير بالبطن والفرج. ممّا ينبغي أن يعيَه كلّ من الرجل والمرأة أنّ هناكَ اهتمامات خاصّة بالرجل، لا تعني المرأة، ولا تهمّها، وهناك اهتمامات خاصّة بالمرأة، لا تعني الرجل، ولا تهمّه، وهناك اهتمامات إنسانِيّة مشتركة عامّة، ينبغي أن تُهِمّ الرجل

والمرأة، هذهِ الاهتمامات هي التي ينبغي أن يعيرها كِلا الطرفين اهتمامه، ويحرص على تنميتها وتطويرها، ويتعاون معَ الطرفِ الآخر على ذلك.

فمن الاهتمامات الخاصّة بالرجل، ولا تعني المرأة في الأغلب، ولا تهمّها: علاقاته الاجتماعيّة طبعاً مع غير النساء، واهتماماته السياسيّة والاقتصاديّة، ونجاحه الوظيفيّ، هواياته وطموحاته الخاصّة.. والأصل أن تشارك المرأة زوجها مشاعره واهتماماته، لأنّها تنعكس بالإيجاب أو السلب على حياتهما وعلاقاتهما، ولكنّ هذا هو الواقع..

ومن الاهتمامات الخاصّة بالمرأة، ولا تعني الرجل في الأغلب، ولا تهمّه: ملبسها وزينتها ومستجدّات ذلك، صداقاتها الاجتماعيّة مع النساء وعلاقاتها العاطفيّة، تعديل ترتيب البيت، الجديد في عالم الطبخ..

ومن الاهتمامات الإنسانِيّة المشتركة بين الرجل والمرأة: الرقيّ الإيمانيّ والروحيّ، العمل الخيريّ الاجتماعيّ، التنمية الثقافيّة، تنْمية الهوايات وَالمهارات الخاصّة..

(٥)

(على رسلكما! إنّها صفيّة..) ( ). فِكرةٌ صفيّة.. فِعلةٌ صَفيّة.. ذاتٌ صفيّة.. ما أسوأ أن يفعل الإنسان الفعل يريد به وجه الله تعالى، ينبع في نفسه من معين تقواه وخشيته، ويعيش به جوّاً من صفاء الروح، وبهجة القلب، ويغمر الأنس كيانه، وتكون السعادة فيما يظنّ طوع بنانه.. ثمّ يكون حظّه من أقرب الناس إليه سوء الفهم وسوء الظنّ! وسوء الظنّ خيط أسود غليظ، لا يزال يتضخّم ويتكاثر، ويجمع إليه أمثاله وأخواته حتّى يكون ذلك النسيج الكريه جزءاً من شخصيّة الإنسان، وسمةً من سماته، وحجاباً غليظاً، وجداراً متيناً لا أمل لأحد في اختراقه، لأنّه يصبح جزءاً من تصوّر الإنسان وقناعاته الراسخة، وطبيعة تفكيره وتحليله! ومبدأ ذلك الخيط نقطة، هي(الفِعلة الصفيّة)، التي ما كان يتوقّع لها هذه الثمرة، وكان ينبغي أن يسبقَها أو يعقبها مباشرة: (على رسلكما)!

وإنَّ هذه الجملة النبويّة الكريمة هي جزء من منهج، وهي تعبّر عن منهج.. جزء من منهج يقوم على تقدير المشاعر، ومراقبة الهواجس البشريّة، وتفسير السلوك السويّ قبل أن يفسّر بما لم يقصد الإنسان ولم يرد، والواقعيّة في التعامل مع الناس، الذين لا يفترض فيهم المثاليّة في الفهم، ولا الإحاطة بالمواقف.. وهي تعبّر عن منهج حكيم، يوازن بين حقّ الإنسان

( ) – جزء من حديث فيه قصّة رواه البخاري في كتاب بدء الخلق برقم (٣٠٣٩) ومسلم في كتاب السلام برقم (٤٠٤١) وغيرهما.

في إتيان ما يباح له، وحقّه بل واجبه في حفظ سمعته، وصون شرفه، وحقّ الآخرين إلّا يسبق إلى وهمهم سوء الفهم وسوء الظنّ.. لما ينجم عن ذلك من سوء العلاقة، وفساد ذات البين..

وهذا ما يجيبنا عن السؤال: لماذا عندما يختلف الزوجان تصبح الصغائر كبائر، والمناقب مثالب، ولغو القول يُعطَى أبعاداً، ويحمّل أوزاراً!؟ ولا يرتضي من يفعل ذلك أن يعامل بمثل ذلك.

(٦)

في العلاقة الزوجيّة المثاليّة نُريدُ أن يتّصلَ ضعفُ المرأة بقوّة الرجل، ونقصُها بكماله، واندفاعها العاطفيّ الشديد بعقله وحكمته.. وأن يكون للرجل القدرة الكبيرة على المعالجة الحكيمة، وهذا يتطلّب مِنه بُعْد النظر، والتجرّد عن الهوى..

وأن يكون الرجلُ حسنَ الظنّ ساميَ التفكير، إن لم يغلبْه هوى زوجته، فلا يغلبنّه هوى أخواته وأمّه، فهذا الهوى من ذاك، وكلّ أهواء النساء سواء.. ولا تنافي بين برّ الأمّ ومُدَارءة هواها بما لا يخدش البرّ، ولا يعكّر صفاءه..

وكما نريد الرجل المثاليّ، ومن حقّنا أن نريده.. فإنّنا نرِيدُ المرأة المثاليّة، التي وصفها النبيّ صلى الله عليه وسلم بأنّها إذا نظر إليها زوجها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله.. إنّه لا يرى منها إلّا البسمة الحلوة، ولا يسمع منها إلّا الكلمة الطيّبة، ولا يجد عندها إلّا السكينة والمودّة..

وعندما نريد المثاليّة والكمال، ونطمح إليهما فلعلّنا نبلغُ من أمنيتنا حدّها الأدنى، ونقف من طموحنا الحقّ عند سمات الأدب، ورعاية الحقوق، وحسن التعامل مع الواقع، في زمنٍ تعصف فيه أمواج الجُحود شرقاً وغرباً، وتهبّ فيه رياح النزاع والصراع عَلى كلّ شيء..

لقد لخّص بعض المفكّرين الأدباء الأفاضل ( ) صفات المرأة المثاليّة في نِقاطٍ شرحها في كتابه وفصّلها، فكان خلاصة ما ذكر من الصفات أنّ المرأة المثاليّة هي التي تطيع زوجها وتبرّه، وتتقرّب إلى الله تعالى بخدمته، وتبرّ أمّه وتكرم أهله، وتتودّد إلى زوجها، وتحرص على رضاه، ولا تفشي له سرّاً، ولا تعصي له أمراً، وتقف إلى جانبه في الشدائد، وتشاركه الرأي، تلقاه بالبشر والاحترام، عفيفة مُعفّة، غضيضة الطرف، جمّة الأدب، تعين زوجها على طاعة الله، وتشجّعه على الإنفاق في سبيل الله، تغضّ عن الهفوات، وتسمو عن سفساف الأمور، ولغو القول، ورديء الكلام.. وهي بذلك عنوان سعادة المؤمن في هذه الحَياة. ألم يقل النبيّ صلى الله

( ) . هو الدكتور محمّد علي الهاشميّ في كتابه: (شخصيّة المرأة المسلمة كما يصوغها الإسلام في الكتاب والسنّة).

عليه وسلم مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ، مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: المَرْأَةُ الصّالِحَةُ، وَالمَسْكَنُ الصّالِحُ، وَالمَرْكَبُ الصّالِحُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ: المَرْأَةُ السُّوءُ، وَالمَسْكَنُ السُّوءُ، وَالمَرْكَبُ السُّوءُ) [٦].

* * * * *

إضاءات في طريق السعادة الزوجية ٢

(٧)

أنا أنصَحُ كلّ المُقدِمين على الزواجِ أنْ يُطِيلوا فترة الخطُوبة إلى ستّة أشهر كَحدّ أعلى، ليتحقّقَ التعارف والتآلف بين الزوجينِ، ولتطمئنّ المَرْأَةُ على وجه الخُصوص على دين الرجل وَخُلقه، وألّا تقلَّ تلك الفترةُ عن شهر، على أن تكونَ الزيارات مُكثّفةً خلالَه.. ولعلَّ أحد أسباب ارتفاعِ نسبةِ الطلاقِ هوَ التعجُّلُ في الخطوبةِ ثمَّ في الزواجِ..

وأتوقّع بعد ذلك أن تبحر سفينة الحياة الزوجيّة في محيط الرسوخ والنجاح بعد سنة من الزواج بصورة متوسّطة: إذ تحتاج إلى أربعة أشهر ليفهم كلّ واحد صاحبه، وأخرى ليتقبّل عقليّته ومزاجه، وثالثة ليتحقّق الانسجام والتحوّل.. التحوّل إلى مواقف الطرف الآخر والالتزام بها.. ولكنّ هذه المدّة تعدّ دقيقة حرجة، لأنّ ضعف خبرة كلا الطرفين، بالحياة عامّة، وبالعلاقة الزوجيّة على وجه الخُصوص، يضعهما أمام عقبات متعدّدة، وامتحانات مختلفة، وربّما كان بعضها منزلقاً خطراً نحو نفرة القلوب وفصم عرا العلاقة الزوجيّة.. ومن هنا كان حقّاً على الأبوين من كلّ جهة أن يرعيا هذه الأسرة الناشئة، ولا يتركاها ضحِيّةَ التَجارِب الفجّة، حتّى يشتدّ ساعدها، ويصلب عودها، وتتقن فنّ إدارة الخلاف الأسريّ على أحسن الوجوه..

(٨)

الزواج ولادة جديدة للإنسان رجلاً كان أو امرأة: وولادة الإنسان لها ظروفها ومتطلّباتها، ورعايتها الخاصّة ولقاحاتها، وشروطها الذاتيّة والموضوعيّة، لاستمرار الحياة الآمنة الكريمة.. وإلّا نفقد الوليد، أو يكون معوَّقاً مشوَّه الخلقة، فنعضّ أصابع الندم، ويتحوّل الفرح إلى مأتم..

---

[٦] . رواه أحمد في المسند برقم (١٣٦٨) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه.

أنواع ولادة الإنسان:

ـ الولادة الإنسانيّة (ولادة الإنسان ودخوله إلى عالم الدنيا)

ـ الولادة الأسريّة الوجدانيّة (الشعور بالأسرة والانتماء إليها)

ـ الولادة الاجتماعيّة (الاتّصال بالجماعة والانتماء إليها)

ـ الولادة الزوجيّة (الزواج وتكوين الأسرة)

ـ الولادة الحضاريّة ونعني بها: (التأثير الفاعل في الحياة الاجتماعيّة والإنسانيّة، وهي خاصّة بأفذاذ الرجال والنساء).

أفلا يحقّ لنا أن نتطلّعَ إلى هذه الولادة ونتمنّاها، لتلك الأسرة الناشئة في رحاب الإسلام ومحضن الدعوة؟! أم أنّ أمانينا كتب عليها أن تذبحَ أو تتبخّرَ على أعتاب دنيا رخيصة؟!

(٩)

والحقّ أنّ العلاقة بين الزوجين مفهومة غامضة، ظاهرة خفيّة، هي أسمى من أن تكون علاقة بين شريكين، وأعمق من أن ترسم حدودها حقوق وواجبات تقف عندها.. وقد كانت لغتنا الحبيبة دقيقة موحية عندما منحت كلا الزوجين صفة واحدة، فعبّرت عنه بكلمة مشتركة، وهي كلمة: (زوج)، فكأنّ كلا الطرفين شيء واحد، وعبّر القرآن الكريم عن عمق تلك العلاقة، بما قامت عليه من تمازج ووثيق اتّصال، بأسلوب أدبيّ معجز، إذ قال تعالى: ﴿..وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾ [النساء: ٢١]، وليتأمّل كلا الزوجين هذا التشبيه البديع، البليغ المعجز: ﴿..هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة]. ونحن نعلم أنّ اللباس لا يحقّق غايته إلّا بشروط أهمّها: أن يكون ساتراً، لا يكشف عورة، وكماله أن يكون سابغاً، يأخذ كلّ عضو منه حقّه، وأن يكون طاهراً، ليس فيه شيء من دنس، وكماله أن يكون نظيفاً برّاقاً، حسناً جميلاً، يزيد الإنسان رونقاً وحسناً.. وأن يكون خاصّاً بصاحبه، ليكمل له استمتاعه به، فالثوب المستعار غصّة في النفس ما كان على جسد مستعيره، وأن يكون اللباس مناسباً لمنزلة الإنسان ومكانته الاجتماعيّة، إذ لكلّ فئة من الناس ما يناسبها من لباس..

(١٠)

يدخل الرجل بيته بعد مواجهة أسباب عديدة للتوتّر والانزعاج والغضب، فكيف تستقبله زوجته؟ إنّ الواقع يقول: إنّ أكثر الزوجات لا يحسنّ استقبال أزواجهنّ في مثل هذه الحال.. واسمحوا لي أن أقدّم لكم أنواع الزوجات في هذا الباب:

ـ زوجة لا تستقبل زوجها، ولا تحسّ بدخوله، وما هو عليها من حال، لأنّها غارقة في عملها أو مطبخها.

ـ زوجة لا تحسن استقبال زوجها، ولا تحسن الحديث معه:

أ ـ زوجة قد أعدّت قائمة طويلة للحساب والعتاب.. عفواً العقاب..: القدر المشترك بين الكثيرات لماذا تأخّرت؟ وأين كنت؟

ب ـ زوجة تزفّ إلى زوجها الأخبار السيّئة: هل بلغك الخبر من مات؟

ج ـ زوجة عابسة باسرة، مقطّبة مكفهرّة، في هيئة منكرة، تؤثر الصمت، وتنشر المقت، يتلطّف معها زوجها: مالك! مالك! فلا يسمع منها إلَّا هجراً،

ولا يجد عندها إلَّا نكراً وكثيراً ما يكون غضبها وانزعاجها الشديد لأتفه الأمور..

ـ زوجة تحسن استقبال زوجها، ولا تحسن الحديث معه

ـ زوجة لا تحسن استقبال زوجها، ولكنّها تحسن الحديث معه

ـ الزوجة الذكيّة العاقلة تحسن استقبال زوجها وتحسن قراءة مشاعره.. وتقدر على تغييرها بسرعة: فهي لا تلبث أن تداويه سريعاً:

فماذا نتوقّع من الزوج أن يكون موقفه بعد ذلك؟

(١١)

وإليكم هذا الموقف من بعض الزوجات الفاضلات:

دخل الرجل البيت، فوجد زوجته في بهو البيت وكأنّها تنتظره.. لقد خرجت من المطبخ من فورها.. إنّها تريد استقباله.. فألقى السلام، وعلى وجهه علامات الغضب والانزعاج، فردّت زوجته السلام، وقالت له: خيراً! مالك؟! ابتسم من فضلك..

ـ دعيني في همّي!

ـ وما ذنبنا نحن لتحرمنا من ابتسامتك الحلوة؟

ـ أرجوك دعيني!

ـ لا أدعك حتّى تبتسم.. نحن بشوق لابتسامتك.. وتنفرج أسارير الزوج، ولكنّه لا يستطيع الابتسام.. (يبدو أنّه واجه موقفاً صعباً هذا اليوم)..

ـ يا هالة! يا حبيبتي! أضحكي أباك لأعطيك هديّة!

وتقترب البنيّة المدلّلة من أبيها، وتمدّ يدها لتسلّم عليه كما علّمها، ولكنّه عندما يمدّ يده تهرب منه، فلا يتمالك نفسه إلَّا أن يضحك، ويقول لها: (لقد لعبت عليّ يا هلّولة)!

وتقترب مرّة أخرى، وتمدّ يديها كهيئة المستجدي: (يا بابا! يا كريم! نحن مساكين فتصدّق علينا)! فيضمّها إليه، ويعتنقها، وهو يضحك، وتنفرج أساريره..

ـ مرحى لك يا هالة! لقد كسبت الهديّة..

وأؤكّد لكم أنّ هذا الموقف من (هالة) ليس وليد هذه الساعة، وإنّما هو ثمرة تربية سويّة، تربّت عليها هذه الفتاة بنت الرابعة من العمر فحسب! فكان لها دورها الفاعل، وتأثيرها الحيويّ في بثّ السعادة في أرجاء البيت..

لقد تعلّم هذا الزوج والأب أن يحسب حساباً لهيئته عندما يريد دخول البيت! لأنّه في الأحوال الطبيعيّة يدعو زوجته وأولاده إلى أن لا يرى الآخرون منهم دائماً إلَّا الابتسامة المشرقة العذبة، فكيف لا يكون أسوة حسنة لهم؟

(١٢)

بين حقّ الأبوين وحقّ الزوج:

لا مراء أنّ حقّ الوالدين في البرّ أوجب الحقوق وآكدها، وعندما تتزوّج المرأة يصبح حقُّ زوجها بالمعروف مقدَّماً على حقّ أبويها، وحقّ أبويه عليه لا ينقص بل يزيد، وتلك قضيّة لا خلاف فيها ولا جدال.. وذلكَ لتقوم الأسرة على أقوى الأسس وأرسخها، وتأكيداً لذلك وتوثيقاً تقول السيّدة عائشة رضي الله عنها: (يا مَعشرَ النساءِ! لو تَعلمنَ بحقّ أزواجِكنّ
عليكُنّ لجعلَتِ المرأةُ مِنكُنّ تمسَحُ الغُبارَ عَن قَدَمي زوجِها بحرِّ وجهِها) ( ). ٧

وإنَّ المرأة المسلمة المثَاليّة تعرف هذا الحقّ وتعترف به وتقدّره، والرجلُ المثاليّ لا يستغلّه، ولا يكون سبب سوء خلقه، وشطط مُعَاملَتِه!

(١٣)

وفي رحلة الحياة الزوجيّة الهانئة يدخل القطارَ البنون والبنات، وتدخل معهم حياة تختلف عن الحياة الماضية في أمور عديدة، بدءاً من التسمية، وما تحمل من أعباء المسؤوليّة، ومروراً بالعلاقات الجديدة.. وبدءاً وانتهاءً بمسؤوليّة التربية، والأعباء التي يلقيها على الوالدين بناءُ الإنسان وتكوينُه وإعدادُه.. فالزوجان يصبحان مع إطلالة المولود الأوّل أباً وأمّاً، وهما في هذا الباب أغرار مستجدّون، ومهما قرؤوا من الكتب في هذا الباب، وتعلّموا ودرسوا فالمبادئ النظريّة، والخبرة العمليّة قلّما يعيها الإنسان، ويقدّر أبعادها إلَّا من خلال

( ) – رواه ابن حبّان في صحيحه، والبزّار بإسناد جيّد، رواته ثقات مشهورون، انظر أحكام النساء لابن الجوزيّ ص٣١١.

التجربة الذاتيّة.. وربّما زاد الهوّة اتّساعاً بين الطرفين عندما يحمل أحدهما أو كلاهما أفكاراً نظريّة برّاقة، يظنّها مسلّمات قطعيّة، يتحمّس لها، ويخاصم عليها صاحبه، وربّما لا تقف على قدميها لحظة أمام أيّ اختبار عمليّ..

وربّما تنجح الفتاة زوجة، وتخفق أمّاً، وربّما ينجح الشابّ زوجاً، ويخفق في الفترة الأولى على الأقلّ أن يكون أباً.. وربّما يدخل الأطفال حياة الزوجين السعيدين، فيدخل معهما النكد والاختلاف، ويكون الاختلاف في منهج التربية وأسلوبها سبباً لسوء التربية وفساد عاقبتها.. وكلّ ذلك يدلّ على هشاشة البناء، واختلال أسسه.. أفليس الزوجان إذن بحاجةٍ ماسّة إلى أسسٍ وقواعد، وأصولٍ ومبادئ، ليتهيّآ لاستقبال الأطفال، ليكوناً قدوة مثلى لهم، وليكون تعاملهم معهم نهجاً سويّاً، ولتبقى علاقاتهما على أحسن ما تكون، إذ إنّ حاجة أطفالهما إلى ذلك لا تقلّ عن حاجتهم النفسيّة إلى دوام السكينة، وزيادة المودّة والرحمة..

(١٤)

ولا بدّ أن يكون بين الزوجين قدر مقبول من الانسجام الروحيّ، والتوافق النفسيّ، التوافق الذي يقوم على الالتقاء على المنهج، والتقارب في الأخلاق والأفكار والأهداف، ممّا يقدّم أرضيّة مناسبة للتعامل مع هذه الأسس والمبادئ بجدّيّة وفاعليّة، ويكفل حلّ المشكلات بأسرع ما يمكن..

* * * * *

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

كلمتان معجزتان أحاطت بالحياة الزوجيّة من أطرافها.. لا أكتم القارئ الكريم أنّني حرت زمناً في اكتشاف سرّ هذا الجمع القرآنيّ بينهما، ولطالما سمعت الخطباء والمتكلّمين يتحدّثون في مناسبة الأعراس عن هذه الآية، ويمرّون بهاتين الكلمتين مروراً عابراً، لا يستكنه شيئاً من أسرار ذكرهما، والجمع بينهما، واستعنت بما لديّ من كتب اللغة والتفسير، فلم أهتد إلى ما يروي ظمأي بوضع الكلمتين في نصابهما الصحيح.. وخير ما وقفت عليه من التفريق بين المودّة والرحمة، من أقوال السلف من المفسّرين قول السّدّي: «المودّة: المحبّة، والرحمة: الشفقة».

ومن أقرب ما وقفت عليه من أقوال المفسّرين السابقين والمعاصرين من ذلك:

قول الإمام الرازيّ: قال بعضهم: محبّة حالة حاجة نفسه، ورحمة حالة حاجة صاحبه إليه، وهذا لأنّ الإنسان يحبّ مثلاً ولده، فإذا رأى عدوّه في شدّة من جوع وألم قد يأخذ من ولده، ويصلح به حال ذلك، وما ذلك لسبب المحبّة وإنّما هو لسبب الرحمة.

ويمكن أن يقال: ذكر من قبل أمرين أحدهما: كون الزوج من جنسه، والثاني: ما تفضي إليه الجنسية، وهو السكون إليه، فالجنسية توجب السكون، وذكر هاهنا أمرين أحدهما: يفضي إلى الآخر؛ فالمودّة تكون أولاً، ثمّ إنّها تفضي إلى الرحمة، ولهذا فإنّ الزوجة قد تخرج عن محلّ الشهوة بكبر أو مرض، ويبقى قيام الزوج بها.. [مفاتيح الغيب ٢٥: ٩٢].

ويقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله: فإن المودّة وحدها آصرة عظيمة وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما: والرحمة وحدها آصرة منها الأبوّة والبنوّة، فما ظنّكم بآصرة جمعت الأمرين، وكانت بجعل الله تعالى، وما هو بجعل الله فهو في أقصى درجات الإتقان. [التحرير والتنوير ١: ٦٢٦].

ويقول أيضاً: جعل بين كلّ زوجين مودّة ومحبّة؛ فالزوجان يكونان من قبل التزواج متجاهلين، فيصبحان بعد التزواج متحابّين، وجعل بينهما رحمة، فهما قبل التزواج لا عاطفة بينهما، فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة، ولأجل ما ينطوي عليه هذا الدليل وما يتبعه من النعم والدلائل جعلت هذه الآية آيات عدّة في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وهذه الآية كائنة في خلق جوهر الصنفين من الإنسان: صنف الذكر، وصنف الأنثى، وإيداع نظام الإقبال بينهما في جبلتهما. [التحرير والتنوير ٢١: ٣٢].

ويقارب مؤلّفو التفسير الواضح المعنى المقصود إذ يقولون: والإنسان الذي يجتمع مع المرأة في الحلال يدرك بوضوح معنى السكنى إليها والميل لها، والهدوء النفسيّ عندما يزورها، ومن هنا سُمّي المكان الذي يلتقي فيه الرجل بالمرأة سكناً ومسكناً، لأنّ فيه تسكن النفس وتهدأ، ويطمئنّ الرجل، ويستريح من وعثاء الطريق، ومشاقّ الحياة الكادحة..

وجعل بينكم مودّة ومحبّة، وصلة روحية قويّة، قد تفوق في غالب الأحيان صلتك بأقرب الناس إليك، والشرع الشريف يلاحظ هذا جيداً في تقدير الميراث والنفقات والمخالطة الداخليّة، والإسرار إلى الزوجات بذات الصدور.

وجعل بينكم رحمة وشفقة، وعطفاً عميقاً، ليس مصدره الغريزة الجنسيّة، والاتصال الماديّ، بل مبعثه اختلاط الأرواح، واتّصال النفوس، والاجتماع لغرض واحد وبناء عش

الزوجيّة على أسس كريمة، ودعائم قويمة: ﴿هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ، وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]. [التفسير الواضح ٣: ٢٢].

كما قارب ذلك الدكتور الزحيلي في التفسير المنير إذ يقول: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً..﴾ وجعل بين الجنسين المودّة أي المحبّة، والرحمة أي الشفقة، ليتعاون الجنسان على أعباء الحياة، وتدوم الأسرة على أقوى أساس وأتمّ نظام، ويتمّ السكن والاطمئنان والراحة والهدوء، فإنّ الرجل يمسك المرأة ويتعلّق بها؛ إمّا لمحبّته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك.. [التفسير المنير للزحيلي ٢١: ٦٩].

وقال سيد قطب رحمه الله: والتعبير القرآني اللطيف الرفيق يصوّر هذه العلاقة تصويراً موحياً، وكأنّما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحسّ: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾.. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.. فيدركون حكمة الخالق في خلق كلّ من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر، ملبياً لحاجته الفطريّة: نفسيّة وعقليّة وجسديّة، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودّة والرحمة، لأنّ تركيبهما النفسيّ والعصبيّ والعضويّ ملحوظ فيه تلبية رغائب كلّ منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثّل في جيل جديد.. [في ظلال القرآن ٥: ٢٧٦٣].

ويقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: «ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة (يعني: السكن والمودّة والرحمة) لوجدنا السكن بين الزوجين، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى الآخر، ويطمئن له ويسعد به، ويجد لديه حاجته.. فإذا ما اهتزّتْ هذه الدرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبّة التي تُمسِك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قَدْراً كافياً من القبول.. فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة، فيرحم كل منهما صاحبه.. يرحم ضَعْفه.. يرحم مرضه.. وبذلك تستمر الحياة الزوجية، ولا تكون عُرْضة للعواصف في رحلة الحياة.

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل، فلم يَعُدْ بينهما سَكَن ولا مودّة، ولا حتّى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرة، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر.. وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات، ومع ذلك جعله ربّنا سبحانه أبغض الحلال، حتّى لا نقدم عليه إلَّا مُضطرّين مُجْبرين. [تفسير الشعراوي ص: ٤٩٧٠].

ويختلف الكاتب مع الشيخ الشعراوي رحمه الله في تحليله للآية الكريمة، فالقرآن الكريم دقيق غاية الدقّة في تعبيره، إذ هو يفصل بين حاجة الرجل خاصّة، وبين أمرين مشتركين بين كلا الزوجين؛ فالسكن خصّه القرآن بالرجل، فقال تعالى: «لِتَسْكُنُوا إِلَيْها».. وأمّا المَوَدّةُ وَالرّحْمَةُ فقد جعلهما أمراً مشتركاً بينهما، وذلك لحاجة كلّ منهما الفطريّة إلى ذلك، فقال تعالى: ﴿..وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً..﴾..

وألخّص فهمي لموقع هذه الكلمات: «السَّكَنُ، المَوَدَّةُ، الرَّحْمَةُ » من العلاقة بين الزوجين، في النقاط التالية:

١ـ «السَّكَنُ» ممّا تتطلّبه فطرة الرجل، وتركيبه النفسيّ أكثر من المرأة، ولذا خُصّ به الرجلُ في هذه الآية، وهُو ما يدعُو الرجلَ إلى البحث عن المرأة، والسعي إليها.

٢ـ و«السَّكَنُ» النفسيّ يمثّل خطّ الدفاع الأوّل عن العلاقة بين الزوجين، فإذا انهار هذا الخطُّ أصبحت العلاقة على شفا جرف هارٍ..

٣ـ وأمّا «المَوَدَّةُ، وَالرّحْمَةُ» فهما مشتركان بطبيعتهما بين الزوجين، فلا يتصوّر أن تقوم علاقة إنسانيّة بهما، أو بأحدهما من طرف واحد.

٤ـ ففي حال الصحّة والشباب تتجلّى علاقة الحبّ والمودّة بين الزوجين، لأنَّ كلاً منهما يعيش في ربيع العمر.. والحبّ ينعش هذه العلاقة ويؤلّقها..

٥ـ وفي حال الكبر والضعف تتجلّى علاقة الرحمة؛ لأنّ ضعف الصحّة في الشيخوخة يجعل الإنسان بحاجة إلى رحمة الآخرين وشفقتهم، وأقرب الناس إلى الزوج زوجه.. فهو يطّلع على ما لا يطّلع عليه والد ولا ولد، ومن هنا كانت الرحمة ضمانة مهمّة لحياة ينال فيها الإنسان الرعاية الكريمة من شريك حياته، ومن كان يصفوه المودّة حال شبابه.

٦ـ كلّما تألّقت علائق المودّة في حال الصحّة والشباب توثّقت عُرَا الرحمة في حال الكبر والضعف، فالرحمة هي البوّابة العميقة للحبّ، أو هما وجهان لحقيقةٍ واحدة.. تظهر ثمراتها في أوقات الشدّة، والضعف والحاجة.

٧ـ ومن وجهة أخرى فإنّ المودّة هي الفضل، والرحمة هي العدل، المَوَدَّةُ هي الحدّ الأعلى، وَالرّحْمَةُ هي الحدّ الأدنى، فإن لم يستطع الزوجان أو أحدهما أن ينعما «بالفضل» في العلاقة بينهما، فلا أقلّ من أن تقوم على «العَدلِ»، وهو الرحمة..

وإلى ذلك يشير قول عمرَ رضي الله عنه: «ليسَ كُلُّ البُيوتِ تُبنَى على الحبّ، ولكنّ الناسَ يَتعاشَرُونَ بالإسلامِ والأحسَابِ».

٨ـ فإن لم تستقم العلاقة على ذلك، وفقد الرجل السكَنَ النفسيّ نحو زوجه، فعندها يأتي التحاكم إلى حكمين عاقلين راشدين، ليبحثا عن الأسباب، ويحاولا معالجتها، فإن لم يقدرا على رأب الصدع وجمع الشمل، يأتي قول الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلّاً مِّن سَعَتِهِ، وَكَانَ اللهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٣٠].

هذا، والله تعالى أعلم، وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبيّه سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربِّ العالمين.

* * * * *

التَّسرُّع بالطلاق..

يسارع بعض الرجال إلى الطلاق عند أوَّل شجار يكون بينه وبين زوجته، وعلى قدر مسارعته تلك تكون سرعة ندمه، ويذهب هنا وهناك يلتمس المخرج من الورطة التي وضع نفسه فيها.. والأسوأ من ذلك عندما لا يكتفي بطلقة واحدة، بل يجود على زوجته بالثلاث، بكلِّ حماقة وجهل..

ويزيد الأمر سوءاً وبلاءً عندما تطلب المرأة الطلاق في تلك الساعة الشيطانيَّة، وتلحُّ في طلبها فيستجيب لها، ثمَّ يندم الاثنان على تلك الحماقة.. والمشهد يتكرَّر من الزوجين مرَّة بعد مرَّة.. إنّه صورة حيَّة عمّا نهى الله عنه من اتّخاذ آيات الله هزواً..

* * * * *

عندما يفترق الزوجان وبينهما أطفال، هم أحوج ما يكونون إلى حنان الأمِّ ورعايتها، ودفء عاطفتها، فإذا ضارَّها الزوج بأولادها، وتنكَّر لحقِّ أطفاله وحقِّها فهذا دليل على رقَّة دينه، وقلَّة عقله، لأنَّه يراهن على إفساد الفطرة وتشويهها، وهذا أوَّل ما يضرُّ بنشأة أطفاله نشأة سويَّة، ولن يكون ذا حظٍّ من برِّهم..

* * * * *

ما بنيت من بيت سعادتي لا أسمح لأحد بتخريبه كائناً من كان..

* * * * *

ما أحوج المرأة إلى فقه الرجل! وما أحوج الرجل إلى فقه المرأة!

* * * * *

قمَّة الرومانسيَّة المُسعدة، التي يتغنَّى بها كثير من الناس أن ترى المرأة في سلبيَّة الرجل إيجابيّتها، وفيما يزعم دعاة الإفساد من تسلُّطه قوّتها، وفي تقصيره ما يثبت جدارتها، ويحقِّق احتياجه لتعاونها.. وأن يدرك الرجل أنَّ ضعف المرأة يضاف إلى قوَّته ولا يعطِّلها، وأنَّ قوَّة عاطفتها تجمِّل عقله، ولا تكبِّله ولا تعطِّله.. وأن يرى في ضعف المرأة ما يدعوه إلى مزيد من الإحسان والبرِّ..

* * * * *

دعك أيَّتُها العاقلة من كلام المنظِّرين، وفلسفة المتفلسفين، فالواقع بتعقيداته وتداخلاته وخصوصيَّة كلّ حالة فيه ينسف أقاويلهم، ويذروها هباء، إذ لا يكون منها إلَّا ما يؤذي الأعين، ويفسد الأفهام، ويعثِّر الأقدام..

* * * * *

بناء الأسرة على المودّة والرحمة يعني بناءها على قيم راسخة.. تستعلي على المادَّة وأشيائها، فهل يعقل أن تعصف ضغوط المادَّة بالقيم إلَّا إذا انتقصت من رسوخها شيئاً بعد شيء حتَّى أصبحت ضعيفة البنية هشَّة التأثير..

* * * * *

العلاقة الزوجيَّة أسمى العلاقات الإنسانيَّة وأرقاها..

احذرا أيُّها الزوجان العاقلان من ثلاثة أعداء أن يدخلوا بيتكم، ويفسدوا صفاء علاقاتكم: من اللصِّ الخائن، والمخرِّب الحاسد، ومن النفس الأمَّارة بالسوء..

فاللصُّ الخائن لا يسرق المال والمتاع، بل يسرق المودَّة والألفة، ويزرع الفتنة..

والمخرِّب الحاسد، لا يهنأ له عيش حتَّى تزول النعمة، ويوقد نار الفتنة والفرقة..

وأمَّا النفس الأمَّارة بالسوء فهي أسوأ الثلاثة، ولا ينتبه لها أكثر الأزواج، لأنَّها تصحبهم في الليل والنهار، ولا تفارقهم في جميع الأحوال، وتخدعهم وهي العدوُّ اللدود، وينتصرون لها، وهي أعدى من الشيطان المريد..

النفس الأمَّارة بالسوء هي مدخل الشيطان ورسول الشرِّ.. تُلقي سُمّها في حياض الألفة والودّ.. وتصنُّع الأخطاء وتضخُّمها.. وتصرّ على الخطأ، وتعاند وتكابر.. تدفن الحسنات، وتستحضر ما شاءت وما تتوهَّم من السيِّئات.. وتسعى وراء الأوهام وسوء الظنِّ في كلِّ شأن.. وتمنع بعد ذلك صاحبها المطيع من الرجوع إلى الحقِّ والاعتذار..

* * * * *

عندما تخرج المرأة إلى سوق العمل، أو تكثر الخروج من المنزل، ولو لمصلحة مشروعة معتبرة، فأوَّل ما تفقد في علاقتها الأسريَّة السكن النفسيّ بها ومعها.. ثمَّ يتبع ذلك نقص المودَّة والرحمة بين الزوجين، وفي جوِّ الأسرة عامَّة.. حتَّى يصل الأمر إلى فقد المودَّة والرحمة.. فتتحوَّل حياة الزوجين إلى نكد ومناكفة دائمة، على أتفه الأشياء والأسباب.. فإن لم يكن ذلك بهذه الحدَّة شاعت بينهما الحياة الروتينيَّة المملَّة، والبرود العاطفيّ، ثمَّ الطلاق الخفيّ.. وخروجاً من هذا المآل المرير كان لا بدَّ للأسرة التي تعمل فيها المرأة خارج البيت خاصَّة أن تعمل على تجديد حياتها، بالخروج عن المألوف، وكسر الروتين المملّ، وتجديد الروح العاطفيَّة في العلاقات، حقيقة لا صورة..

* * * * *

عندما تتسلّط نزغات الشيطان على العلاقة الزوجيّة فأوّل ما يتعطّل فيها: السكن النفسيّ، والمودّة والرحمة، ليقطع مادّة الخير عن قلبين وجسدين، اجتمعا بكلمة الله على طاعة الله..

فإذا تحقّق للشيطان ذلك هان عليه كلّ شرّ يزرعه، وكلّ خير يقتلعه.. إذ تحوَّل من كانا في يوم ما كالملكين إلى شيطانين؛ لا يعرفان إلَّا الشرَّ، ولا يفكِّران إلَّا فيه..

* * * * *

لا ينضج الزوجان، ويعيشان حياة الأمن الزوجيّ والأسريّ إلَّا إذا ملكا القدرة الذاتيَّة على حلِّ مشكلاتهم وتجاوزها، دون أيِّ تدخُّل خارجيّ..

فإن لم يقدرا على ذلك كان لا بدَّ لهما من الحكمين، كما لا بدَّ للمريض من الطبيب، وربَّما احتاج إلى كشف عورته له..

* * * * *

تحليل نفس المرأة!

قال لي: يقولون: «لقد حار المفكِّرون والفلاسفة وعلماء النفس في تحليل نفس المرأة، والكشف عن مكنونات سرِّها وتركيبتها»، فهل توافق على هذا الكلام؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يستطيع الرجل التفاهم معها؟!

فقلت له: أوافق على هذا الكلام، ولا أوافق.

أوافق من حيث أنَّ المرأة نفس إنسانيَّة، وأنَّى للبشر مهما أوتي من العلم أن يحيط بالنفس الإنسانيَّة، وأغوارها وأسرارها، وتركيبتها المعقَّدة المعجزة؟!

ولا أوافق إذا كان يراد بهذا القول أنَّ المرأة تختلف عن الرجل اختلافاً نوعيّاً، وكأنَّها من طينة غير طينة آدم وحوَّاء، أو من عالم آخر.

وأنا أقدِّر أنَّ ما يدعو الناس إلى مثل هذا القول شيء يجدونه في سلوك المرأة، ولا يحسنون فهمه وتفسيره، وهو في حقيقته من صميم فطرتها، والإعجاز الإلهيّ فيها، ويظنُّونه مباينا لطبيعة الرجل، وما هو كذلك ألا وهو غلبة الطبيعة العاطفيّة على نفسيّتها ومواقفها، إذ إنَّ الطبيعة الفطريَّة العاطفيَّة في المرأة قويَّة جامحة، لا تستطيع قوَّة عقلها في أغلب الأحيان أن تقف في وجهها، وتكبح جماحها، عندما تتعرَّض لموقف يثيرها عاطفيّاً، ولو لم يكن في حقيقته كذلك فبينما هي في هدوء نفسيٍّ، إذ يأتيها مثل هذا المثير العاطفيّ، كالعاصفة الهوجاء، فيذهب بها إلى أقصى اتِّجاه، وربَّما بعد سويعة جاءها مثير باتِّجاه آخر، فمال بها عكس ما كانت عليه إنَّها كالسفينة التي تلعب بها الأمواج العاتية، ولا يستطيع ربَّانها التحكُّم فيها وهذا ما عبَّر عنه الحديث الصحيح: «لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ».

فهذا الحديث لم يأت لذمّ المرأة، وإنّما لبيان طبيعتها الفطريّة، ليحسن الرجل التعامل معها بالعلاج الربَّانيّ الجامع: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وهذه الطبيعة الفطريَّة فيها نقص من جانب، وهو لا يضير المرأة لأنَّه عين الحكمة والخير من جانب آخر، إذ بهذه الطبيعة الفطريَّة العاطفيَّة تستطيع المرأة القيام بحقِّ الأمومة على أكمل وجه، كما تستطيع تحقيق السكن النفسيّ للرجل، ويدلِّل على ذلك تتمَّة الآية الكريمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ١٩].

ويخطئ كلّ الخطأ من يظنّ أنّ الأمومة قاصرة على علاقة الأم بطفلها في مرحلة الحضانة! بل الأمومة هي الأمومة ما بقيت الحياة..

* * * * *

هل تريد أن تكون مُحِبّاً أم محبوباً؟!

أيّها الزوج! هل قرّرت أن تكون مُحِبّاً، أم قرّرت أن تكون محبُوباً؟!

القرار في الأولى له أسبابه وأدواته.. والقرار في الثانية له أسبابه وأدواته..

وفي كلا الأمرين التضحية والتذلُّل للمُحِبِّ والمحبُوب صفتان لا تنفكّان عنك أيُّها الإنسان!

يمكن أن تقول: «أنا» لا هذا ولا ذاك.. وتظنّ أنَّك تريح نفسك من الحبِّ ومتاعبه.. ولكنَّك تخدع نفسك عن نفسك، أو تحاول الهروب من إنسانيّتك إلى عالم الأشياء الميتة، وأشباح الجماد.. ولكن ثق تماماً أنّه لا ينفعك ذلك..

* * * * *

أفقر الرجال في العواطف أقلُّهم اهتماماً بجمال المرأة.. وأنوثة المرأة أشدُّ ما يجذب الرجال..

* * * * *

دعوا الرجال على فطرتهم، ودعوا النساء على فطرتهنَّ، فمن حكمة الله أن يعدِّل الرجال فطرة النساء، ويعدِّل النساء فطرة الرجال.. والآية الكبرى في خلقهم هذا التوافق النفسيّ، لتكون المرأة سكناً للرجل، ويكون الرجل سكناً لها.

* * * * *

لا تهزم المرأة أبداً.. لأنّ سلاحها الأكبر هو العاطفة، وهي تكبت ولا تهزم.. إلّا إذا قرّرت بيعها بثمن بخس..

* * * * *

سبب الطلاق الأوّل عندما يستمسك كلٌّ من الزوجين بكلمة: «أنا»، ولا يتنازل عنها إلى كلمة: «نحن».. وكلمة: «نحن» لا تأتي من فراغ، إنّها ثمرة حوارات وتفاهمات تكون في المرحلة الأولى من الزواج، يتحقّق فيها التقارب الفكريّ، والتوافق النفسيّ، وتعرّف كلا الطرفين على فنّ إدارة الحوار، وتضييق شقّة الخلاف، وبناء الثقة، التي لا تزيدها الأيّام إلّا قوّة ورسوخاً..

* * * * *

لا عجب أن تكون كلمة: «أنا» هي كلمة السرّ لكلّ شرٍّ، ومفتاح الإفساد في الأرض، ومنازعة الله تعالى في ربوبيّته، وقد قالها إبليس أوّل الخليقة، فطرد من رحمة الله، وقالها فرعون فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر..

في المرحلة الأولى من الزواج لا بدَّ لكلا الزوجين من التحَلّي بثلاث حقائق كبرى: التفهُّم، والتقبُّل، والاستعداد للتغيير..

* * * * *

نظرة عابرة في تحليل الشخصيّة الآسرة:

هناك أربعة أركان تقوم عليها الشخصيّة الآسرة هي: الحبّ، والاحترام، والإعجاب، والانجذاب:

فالإعجاب يَكونُ نتيجة المواقف الحاسمة المبادرة.

والحبّ يَكونُ بالتحقُّق بصفات محبوبة مميّزة.

والاحترام يتحقَّق بصفات فطريَّة، ومواقف ذات مصداقيَّة، تفرض الهيبة والتقدير.

والانجذاب يكون نتيجة سرّ التوافق النفسيّ والروحيّ، الذي أشار إليه حديث: (الأرواح جنود مجنّدة).

* * * * *

الحياء للأنثى والعَفاف حلّة جمال، وسحر حلال، وثروة بغير مال، وفصاحة لسان، وأبلغ بيان.. إنّه يغني عن مبسوط القول، ويجمّل كلّ فعل، ويصون المرأة عن مواقف الهوانِ والذلّ، وهو يزيد الرغبة بها، مهما فقدت من صفات ظاهرة مرغّبة..

* * * * *

عندما تختلّ التربية ينظر البنُون والبناتُ إلى كلّ شيء في الحياة نظرة ساذجة طفوليّة، مادّيّة نفعيّة، كنظرة التاجر إلى السلع المعروضة.. ويكونون عرضة لكلّ تيّار مقتحم بجراثيمه، ولو كان ضعيفاً هشّاً.. وأسوأ ما في الأمر أن شخصيّتهم تبنى على ذلك، وعلاقاتهم مع الناس تكون مضطربة مهزوزة، تميل مع كلّ سراب خادع.. والسرّ في هذا الداء العضال يبدأ من النشأة الأولى.. من فقد التربية، أو اختلالها واعتلالها..

* * * * *

رسالة الأسرة المُسلمة:

إنّ مآسي الأسرة المُسلمة المُعاصرة تجتمع كلّها في سبب أكبر: ألا وهو غياب الرسالة، التي تجمع بين قلوب أبنائها، بدءاً من الزوجين، ووصولاً إلى الأحفاد، الذين يحملون رسالة الآباء والأجداد.. ورسالة الأسرة المُسلمة تمثّل هويّة الأمّة بصورة عمليّة، وهي تتجلّى في برنامج عمل، ومنهج حياة.. يضع الأهداف العامّة للأسرة المُسلمة موضع التنفيذ، ويجعل جميع أفراد الأسرة مشدودين إليها، ويعملون على تحقيقها.. وهي سرّ التربية الإسلاميّة الراشدة.

يخطئ من يظنّ أنّ الخطر على الأجيال الناشئة فكريّ أو اخلاقيّ، أو أيّ شيء آخر بمفرده.. بل الخطر عامّ شامل، يغطّي كلّ المواقع.. وأعداء الأمّة يستهدفون دينها وقيمها من جميع الجوانب، وهذا يتطلّب منّا أن نتوزّع الأدوار، ونسدّ الثغرات، ولا نستهين بأيّ جهد يبذل.

وما لم يكن التحصين محكماً شاملاً، فسنبقى عرضة للصدمات المفاجئة، والخسارات المفجعة، بين الحين والآخر، ونعضّ أصابع الندم، حيث لا ينفع الندم..

* * * * *

سنّة الله في أولئك الذين يصرُّون على المَطالب الجماليَّة في المَخطوبة: أن يتأخَّر زواجهم سنين طوالاً، ربَّما أذبلت شبابهم، وعقّدت أمورهم، ثمَّ لم يحظوا بما طلبوا..

وأعرف من تأخر زواجه عشرين سنة لإلحاحه على بعض المطالب الشكليَّة، التي يريحه منها لو عقل صبغة للشعر.. ولله في خلقه شؤون.. والاعتدال في المطالب جوهر العقل، ومن طلب الجوهر أعطاه الله الجوهر وحسن المَظهر..

* * * * *

خير ما تتحلّى به المَرأة: الوفاء والصبر.. فالوفاء يَدعُوها إلى زيادة المَودّة والبرّ.. والصبر يَدعُوها إلى تحمّل المَسؤوليّة، وعون الرجل على أعباء الحياة.. وإلَّا فكيف هي شريكته..

* * * * *

رسالة إلى المرأة المسلمة: اعتزّي بدينك، واستَمسِكي بفِطرتك، والتزمي حدود ربّك، واحذري شياطين الإنس والجنّ، فإنّهم: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ [الأنعام: ١١٢].

* * * * *

إضَاءَاتٌ تَربَوِيَّة

حين تربّي ابنك.. تكتشف أنّك تربّي نفسك.

* * * * *

طفولة كلّ امرئ عامرة بمعانيها ومغانيها، وما يوحي بمستقبلها، فدع الطفولة تعبّر بعفويّتها عن ذاتها، وأعنها ووجّهها، ولا تفرض رؤيتك عليها.

* * * * *

براءة الأطفال تجاوزت فكر العلماء، وفلسفة الحكماء، وتنظير المبدعين، وهي من أبواب السعادة العاجلة، ومن فاته اغتنامها في وقتها لم يستطع تداركها.

* * * * *

رؤية في التربية المتميّزة:

في الأسرة التي نشَأت فيها من الطبيعيّ أن تقع إيجابيّات وسلبيّات في التربية، أحضر ورقتين: اكتب في أعلى الورقة الأولى: الإيجابيّات. وفي أعلى الورقة الثانية السلبيّات، وتجرّد عن العواطف، وفكّر بعمق، واكتب في كلّ ورقة ما يناسبها. واكتب تحت كلّ إيجابيّة أو سلبيّة السببَ أو التعليل المناسب لها.

ثمّ انتقل بعد ذلك إلى من حولك من أقارب وأصدقاء ومعارف بالطريقة نفسها.. وهذه الطريقة إذا أخذ بها بعمق كانت خيراً وأجدى من كثير من الكلام النظريّ الذي يسطّر في الكتب.

* * * * *

متاعب الأطفال للآباء في التربية ليست على درجة واحدة، وردود أفعال الآباء على ذلك ليست واحدة، وليست طبيعتها واحدة.. وفيها الخطأ والصواب ولا شكّ.. والعجب في عاطفة الأبوّة والأمومة أن تصبح تلك المتاعب ذكريات جميلة!

وهذه الحقيقة بوجهيها تقتضي من الأولاد، الذين يعلمون من أنفسهم أنّهم أتعبوا آباءهم في الصغر أن يضاعفوا برّهم بآبائهم وأمّهاتهم عند الكبر، لا أن يعتبروا مواقف آبائهم وأمّهاتهم أخطاء تحتاج إلى الاعتذار والتكفير، فيتجافون عن آبائهم ويقصّرون ببرّهم.. بينما الآباء والأمّهات لا يحملون لهم إلّا الصفاء وأرقى مشاعر الحبّ..

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَاب﴾ [إبراهيم: ٤١].

* * * * *

الأحلام التربويّة المبالغ بها، والمطلوبة من طرف واحد، هي بعيدة المنال عن الواقع، وهي أقرب إلى الخيال منها إلى الممكن.. وخير لنا أن نلتزم بالهدي النبويّ الذي هو ميزان العدل والرشد، وكلّ ما فيه واقعيّ، وفي متناول يد جميع الناس.

* * * * *

التربية والتعليم رسالتنا:

القنابل والصواريخ والبراميل تهدم البلد، وتدمّر الأبنية، وتقتل البشر، أمّا الجهل فيهدم الأمّة، ويدمّر مستقبلها، ويفسد الأخلاق والقيم، وهو مقدّمة الفقر والتخلف، والإجرام والفساد..

تعليم أطفالنا وتربيتهم في الداخل والمخيمات أولى الأولويّات، ولا يقلّ أهمّيّة عن الطعام والشراب والدواء.

* * * * *

قالوا: «وَراءَ كلّ عَظيم امرأةٌ»، فالمرأة الخيّرة الفاضلة دافع من دوافع الخير للعظماء.. والمرأة السوء دافع من دوافع الشرّ للأشقياء..

* * * * *

من استشار النساء وجد عندهنّ من الرأي ما لم يجده عند الرجال؟ لماذا؟

لأنّ طبيعة النساء في نظرتهنّ للأمور تختلف عن طبيعة الرجال..

النساء ينظرن للأمور نظرة تفصيليّة تجزيئيّة، فيرين منها ما لا يراه الرجال.. أمَّا الرجال فينفرون بطبيعتهم من النظرة التفصيليَّة، وربّما يرونها نوعاً من العبث وتضييع الوقت.. مع أنَّ كلا النظرتين لا بدَّ منهما..

* * * * *

المُراهَقةُ إمّا أن تكون نسمة بريئة، أو نجمة مضيئة، أو مطراً عارضاً خفيفاً، أو سيلاً جارفاً، أو رعداً قاصفاً..

فقبل أن تتعامل مع المراهق اكتشف نوع مراهقته، حتّى يقع تعاملك معه موقعه الإيجابيّ المثمر..

* * * * *

مشاعر الأمومة لا تباع ولا تشترى

لذَّة الأمومة لا تعدلها لذَّة إلَّا لذَّة الإيمان بالله تعالى، والتذلُّل الضارع بين يديه سبحانه، وذِكر الله، والتلذُّذ بمناجاته وتلاوة آياته، وحبِّ رسوله صلى الله عليه وسلم، والشوق إلى لقائه.. وأين لذَّة الأمومة من لذَّة الوظيفة والمال، أو لذَّة الجاه والسلطان، أو لذَّة الطيِّبات من المطعم والمشرب والمنكح، وسائر ما يتصوَّر الناس وما يتطلَّبون من مآرب الدنيا وشهواتها؟!

لذَّة الأمومة لا تُباع ولا تُشرى؛ لأنَّها هبة من الرحمن تعالى، ألم يمتن سبحانه على عباده بقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُور. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؟! ألم يضرع زكريا عليه السلام إلى ربِّه أن يهبه الذرِّيَّة الطيِّبة: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾؟! ودعا بقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ وَلِيّاً﴾، ألم يحمد إبراهيم عليه السلام ربَّه على ما وهب له من الولد: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء﴾؟!

مَشاعرُ الأمومة ولذَّتها تجعل الأمَّ تضحِّي بغير حساب.. تجعل الأمَّ تضحِّي بكلِّ لذَّة، وهي تستلذُّ بتضحيتها، وتستعذب ما ينالها من مشاقٍّ..

مَشاعرُ الأمومة ولذَّتها تجعل الأمَّ تضحِّي بحقوقها، وتصبر على معاناتها مع زوج ظالم جحود؛ لا يحسب لظلمه وعدوانه أيَّ حساب!

مَشاعرُ الأمومة ولذَّتها تجعل الأمَّ تضحِّي بلذَّاتها تجاه أولادها في النوم الهنيء، والمطعم الشهيّ، وراحة النَّفْس، وهدوء البال.. تجعل الأمَّ الشابَّة المترمِّلة تحبس نفسها على أطفالها، فلا تتزوَّج، وتتخلَّى عن مباهج الحياة ومتعها خوفاً على أولادها من الضياع أو الإهمال، أو فراقهم وبُعدهم عنها.. تجعل الأمَّ تشقى وتكدح؛ إذ ليس من معيل لها ولأولادها في سبيل طعام أولادها وشرابهم وحسن تنشئتهم ورعايتهم..

مَشاعرُ الأمومة ولذَّتها تجعل الأمَّ تقدِّم في لحظة بين يَدَي ولدها ما جمعته من مدَّخرات خلال سنوات، طيِّبة بهذا البذل نفسها، سعيدة راضية، ليدفع ولدها رسم التسجيل في الجامعة، كما فعلت ذلك والدتي معي رحمها الله تعالى وأعلى مقامها في الفردوس الأعلى..

مَشاعرُ الأمومة ولذَّتها تجعل الأمَّ تُضَحِّي، وتُضَحِّي وهي أسعد الناس بما تبذل، ولا ترجو من أحد جزاءً ولا شكوراً.. لأنَّ ما هي فيه من المتعة واللذَّة يفوق كلَّ جزاء وشكران..

وإليكم أيُّها القرَّاء الكرام هذه المشاعر من أمٍّ مُستجِدَّة، دخلت عالم الأمومة منذ سنة، بعد أن كانت تنظر إلى الأمومة نظرة سطحيَّة، وتحبُّ الأمومة وتقدِّرها بمنطق العقل، ومشاعر غامضة باهتة كأكثر الناس..

كتبت كنَّتي الغالية ـ السيِّدة حبيبة عويلة ـ تحت عنوان «أُمُومة وأُبُوَّة» الكلمات التالية:

(إن كان الحب محور حديث العشاق وحكايات الرُّواة، وبه يطرب المغنُّون وترقص القلوب فرحاً بذكره، فهذا كله لا يساوي ضمَّة تضمُّها الأم لطفلها، ولا يساوي قُبلة تهديها له.. كل حبِّ الدنيا لا يُذكر حين نقارنه بحبِّ الأمِّ أو الأب لطفلهما.

لم أكن أتوقع أن أحبَّ أطفالي إلى هذا الحد!

كنت أردِّد بيني وبين نفسي: ماذا يفرق طفلي عن أي طفل آخر؟!

هل تستحق الأمومة كل هذه التضحية التي تقدِّمها الأمهات؟!

تُنهك جسدها وتخسر جمالها ورشاقتها وصحتها، تسهر الليالي وتزداد همومها وخوفها.

كنتُ سطحية! أتكلَّم بلسان العقل ولسانِ مَن لم يجرِّب، لم أشعر بأهميتي وقيمتي بقدر ما شعرت بها مع ابنتي، لم أعلم معنى أن تضحِّي بحُبٍّ وبدون ندم حتى جربته مع ابنتي، لم أُعطِ أحداً من البَشر اهتماماً وعطفاً وحُبّاً كما أعطيتُ ابنتي، وأتوقع أن لا أحزن على أحد قدر حزني على ابنتي إن أصيبت بمكروه لا قدَّر الله).

الأمومة ليست كأي شعور في الحياة، ولا تشبه أيَّ حُبٍّ، ولا تُعوَّض بأيِّ شيءٍ آخر، بها تكتمل أنوثة المرأة وسعادتها، وتضيف لحياة الزوجين طعماً رائعاً لا يضاهَى، فتقرِّبهما من

بعضهما، ويسعيان سويّاً لإسعاد الأبناء والقيام على راحتهم، وينتظران منهم الجديد ويفرحان به.

ولا عجب ـ بعد أن أَوْدَعَ اللهُ تعالى في قلوب الأمَّهات والآباء هذه المشاعر الفطريَّة الرائعة السويَّة ـ أن يكون قصارى ما يتمنَّاه الآباء والأمَّهات صلاح الأولاد والذرِّيَّة: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾.

* * * * *

في مراحل نمو الإنسان

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُون﴾.

لا بدَّ للمربِّي من العلم بمراحل نموِّ الإنسان، وطبيعة كلِّ مرحلة وخصائصها، ومتطلَّباتها واحتياجاتها، ليحسن التعامل مع الإنسان في جميع أحواله، بدءاً من مرحلة الطفولة؛ التي هي أدقُّ المراحل، وأشدُّها أهمِّيَّة وحساسية.

(ففي نَفس كلِّ رَجُلٍ طِفل، وفي نَفس كلِّ طِفلٍ رَجُل). وإذا كان القدْر اللغويُّ المشترك بينهما يمثِّل الثلث، فإنَّ القدر النفسيَّ المشترك بينهما أكبر من الثلث بكثير.. إذ إنَّ القدْر النفسيَّ بينهما يمتدُّ من الطفولة؛ حيث يتكوَّن الإنسان ويُبنى، إلى الرشد والرجُولة؛ حيث يكتمل وينضج، ثمَّ إلى الشيخوخة والضعف؛ حيث يصبح الإنسان على مشارف الوداع للحياة.. فهل يمكن أو يُتصوَّر أن تنفصل بعد تلك الطفولة عن المراحل الأخرى من حياة الإنسان؟

ففي المرحلة الأولى لا يميِّز الطفل ذاته عن العالم الخارجيِّ الذي يحيط به، ثمَّ في المرحلة الثانية يتحسَّس فيها وجود العالم الخارجيِّ مِن حوله، متمثِّلاً بأمِّه ثمَّ أبيه، ولكنَّه يشعر وكأنَّما العالم خُلق من أجله. واكتشاف هذه الكيانات الخارجيَّة هي الأساس الأوَّل لوعي الطفل وإدراكه..

وقد كشفت الدراسات المعاصرة أنَّ ما يقوم به الأطفال في السنوات الثلاث الأولى تكشف خصائصهم الوراثيَّة والعديدَ من خبايا المستقبل، كما تكشف الأطفال الذين يتمتَّعون بصفات متميِّزة عن غيرهم..

كما ذهب بعض العلماء إلى أنَّ العوامل الوراثيَّة ليست لها الأهمِّيَّة الكبرى في تشكيل تصرُّفات الأطفال، وإنَّما ترجع أكثر التصرُّفات بنسبة ٨٥٪ إلى سلوك الآباء والأمَّهات مع أطفالهم.

فالإنسان محكوم في بناء شخصيَّته بعدَّة عوامل لا يَد له فيها؛ فعلاقته الجسديَّة بأمِّه وهو جنين تؤثِّر في مجرى حياته، وفي تكوينه النفسيِّ والجسديِّ، فعن طريق الحبلِ السرِّيِّ تنتقل إلى الجنين موروثات مختلفة، كما تنتقل عادات الأمِّ في المأكل والمشرب، والتفكير والسلوك، والرغبات والانفعالات.. وكذلك فإنَّ لحظة الميلاد؛ وما يرافقها من عسرٍ أو يسرٍ، أو آلام ومشكلات وأعراض، كالعمليَّة القيصريَّة أو السحبِ.. وكذلك الرضاع الطبيعيُّ أو الصناعيُّ، ومدَّة الرضاع، وكيفيَّة الفطام، ومرحلة التسنين، وما يتعرَّض له الطفل من حوادث وأمراض في طفولتِه.. كلُّ ذلك ينعكس على نفسيَّة الطفل، ويترك أثرَه في صحَّته الجسميَّة والنفسيَّة..

كما أنَّ معظم الأطفال الذين يتمتَّعون بصفات قياديَّة هُم من أُسرٍ متفاهمة.. فإنَّ السلوك غير التربويِّ لبعض الآباء يؤدِّي إلى عُقدٍ نفسيَّة للأطفال، وهي من أنماط الاضطراب والاختلال في الشخصيَّة، وقد ينجم عن تكرار بعض العادات على نحو لا شعوريٍّ، أو نتيجة بعض الصدمات والأزمات، وأكثر العقد النفسيَّة تنشأ في السنوات الخمس الأولى بسبب الأساليب التربويَّة الخاطئة.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ البيئة الطبيعيَّة لها أثر كبير في سلوك الأفراد وبناء شخصيَّاتهم، وقد قرَّر ذلك الإمام ابن خلدون في مقدِّمته؛ فقد وصف أقاليم المنطقة التي يعيش فيها العرب بأنَّها أقاليم موصوفة بالاعتدال، وسكَّانُها من البشر أعدلُ الناس أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً. حتَّى النبوَّات؛ فإنَّما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خبر بعثةٍ في الأقاليم الجنوبيَّة والشماليَّة؛ وذلك لأنَّ الأنبياء والرسل إنَّما يختصُّ الله بهم أكمل الأنواع في خَلقهم وأخلاقهم...

وينبغي أن يُعلم أنَّ الشخصيَّة السويَّة ليست هي الشخصيَّة العبقريَّة النابغة، التي طبَّقت شهرتها الآفاق، فكم من المشاهير مَن يعاني من اختلال في الشخصيَّة وعُقدٍ نفسيَّة، ممَّا يؤكِّد على أنَّ التربية القويمة لا تعني النبوغ الذي يكون عليه بعض الناس..

ثمَّ إنَّ بين الظواهر النفسيَّة والجسديَّة ربطاً وثيقاً؛ فالظواهر النفسيَّة تنبثق عن الظواهر الجسديَّة ـ في نظر بعضِ العلماء ـ أو تتأثَّر بها، ويؤكِّد ذلك العلاقة بين الجملة العصبيَّة والأمراض العقليَّة.

وكذلك فإنَّ العلاقة وثيقة بين الظواهر النفسيَّة والمحيط الاجتماعيّ، تصل إلى حدِّ التداخل وتبادل التأثُّر والتأثير، إذ تنتقل الحالات النفسيَّة بين الأفراد، وتنتشر وتشيع، حتَّى تتكوَّن العادات والمفاهيم والسلوكات المشتركة، التي تعمُّ المجتمع وتحكم عاداته..

ولذا فإنَّ مرحلة حضانة الإنسان في الطفولة هي أطول مرحلة حضانة بين المخلوقات، وهي أيضاً أهمّ مرحلة وأخطرها تأثيراً في حياة الإنسان ومستقبله؛ إذ فيها تتكوَّن شخصيَّة الإنسان وتتحدَّد ملامحها.. وما يأتي بعدها من مرحلة المراهقة والبلوغ إن هي إلَّا أثر من آثار مرحلة الطفولة، التي تختزن بذور شخصيَّة الإنسان، وتحتضن خصائصها وسماتها..

* * * * *

طوبى لكل أم..

أهدي هذه الكلمات إلى كلِّ أمٍّ تتحمّل مسؤوليَّتها، وتحمل بين جنبيها مأساتها، وتكتم أحزانها، وتصبر على جراحها، وتُؤْثر مسؤوليَّتها على رغباتها.. وربَّما لم يعلم معاناتها أقرب الناس إليها.

طوبى لكلِّ أمٍّ! تعيش داخل مشاعر أطفالها: تحبُّهم أولاً.. تقدِّرهم.. تعرف دوافعهم.. تعذرهم.. تستلذُّ متاعبهم.. تتحمَّل تمرّدهم.. تعالج مشاكلهم بحكمة وصبر.. تذكر نفسها يوم كانت مثلهم.. تمشي معهم خطوة خطوة.. ترقى بهم.. تحفُّهم بدعواتها الضارعة.. وتحبُّهم آخراً..

طوبى لكلّ أمّ! تجد أسعد لحظات حياتها، وهي بجوار أطفالها، تغفل عنها كلُّ عين، وهي ترعاهم، وتتقرَّب إلى الله بتربيتهم..

طوبى لكلِّ أمٍّ! تحمل حُبَّ الأمومة، وبراءة الطفولة، وجمال الزوجة الوفيَّة، وروح الأخت الغالية، وشرف الجدّة الحانية..

طوبى لكلِّ أمٍّ! جمعت بقوَّة واقتدار، بين واجبات أولادها وبيتها، وحقِّ زوجها، وبين حقِّ المجتمع عليها، في تعليم العلم، ونشر الدعوة، ونفع الأمَّة..

طوبى لكلِّ أمٍّ! لم تنس حقَّ ربِّها عليها في زحمة واجباتها ومسؤوليَّاتها.. فهي تفتتح يومها بالعبادة، وتضيء حياتها بتلاوة كتاب ربِّها، وتجعل ذكر الله ديدنها في ساعات يومها..

طوبى لكلِّ أمٍّ! يرى أبناؤها وبناتها فيها قدوة حسنة، ينهلون من أخلاقها، ويقتبسون من آدابها، ويحبُّون الخير، لأنّ أمَّهم مصدر الخير، ويكرهون الشرّ لأنّ أمّهم لا تعرف الشرَّ..

طوبى لكلِّ أمٍّ! يتعلَّم منها أبناؤها وبناتها الكلمة الطيِّبة ويعشقونها، والبسمة العذبة، فلا يتخلَّون عنها، وخفض الصوت ورقَّة الحديث، ولطف المعشر..

طوبى لكلِّ أمٍّ! تربِّي أولادها على الصدق والأمانة، وعزَّة النفس والشهامة، والثبات على الحقِّ مهما اشتدَّت عليهم الخطوب والابتلاءات..

طوبى لكلِّ أمٍّ! هي حقّاً أعرق مدرسة، وأقدم مدرسة عرفتها الإنسانيَّة، وهي تضاهي أرقى مدارس الحياة، وتصنع ما تعجز عنه مدارس الحياة.. وعندما تُخفِق المدرسة لفقد المادّة التي تسندها وتقيمها، تتقدّم الأمُّ التي تستعلي على المادَّة، ولا تبالي بها.. بل تجعل روحها مادَّة الحياة..

طوبى لكلِّ أمٍّ! تهزُّ بيمينها سرير طفلها.. تحنو عليه.. تلاعبه.. تغنِّي له أعذب ألحانها بأمانيها الواعدة.. وتنظر بعينيها إلى مستقبل أيَّامه: شابّاً يافعاً.. ورجلاً ناضجاً.. وفتاة تحمل بين جنبيها جمال الحياة.. وامرأة تكتب تاريخ الأمَّة بجهادها..

طوبى لكلِّ أمٍّ! وقفت نفسها على أطفالها، فلا تَكِلُ أطفالها في شيء من أمرهم إلى غيرها.. ولا تسمح لشيء من المنغِّصات أن تعكِّر صفو أطفالها.. وتغتال براءتهم، أو تزرع العُقَد والتشوُّهات في شخصيَّتهم..

طوبى لكلِّ أمٍّ! تضحِّي بصحَّتها وراحتها، لتحمي طفولة الإنسان، وترعى نشأته، وتصنع شخصيَّته، وتبني غده ومستقبله، لا تمنُّ على أحد، ولا تريد جزاءً ولا شكوراً من أحد.. إلّا من خالقها وحده..

طوبى لكلِّ أمٍّ! أسعدت نفسها بأطفالها.. وأسعدت زوجها بأولاده.. وأسعدت أسرتها بلمساتها الحانية الودود.. في كل جوانب حياتها: النفسيَّة، والروحيَّة، والجماليَّة.. وأسعدت مجتمعها بتلك اللَّبنات السويَّة القويَّة.. فأعطت للحياة جمالها.. وكانت مصدر أمن وسعادة، وانسجام ومودَّة..

طوبى لكلِّ أمٍّ وعزاء! لم تجد اليد المساندة، التي تعينها على أداء رسالتها، ولا التقدير المناسب ممّن حولها، فمضت بعزمها تشقُّ طريقها، ولم تتخلَّ عن مسؤوليَّتها ووظيفتها، ولم تنقلب على عقبيها.. لأنّها تحتسب عند الله أجرها.. وترضى أن تكون عين الله وحده معها، تراها وترعاها..

طوبى لكلِّ أمٍّ! وسحقاً لكلّ طاغية مجرم، فجَعها بطفلها وشبابها.. أعزّ ما تملك في حياتها، فسكبت دمعها في خلوتها، وصبرت، واحتسبت..

وسكت عن جرائمه الناس، فزاد في آلامها سكوتهم وجحودهم.. ثمَّ يزعمون لها أنَّهم يحبُّونها، ويعرفون قدرها..

طوبى لكلِّ أمٍّ! ولأمّي التي لا أنساها.. لأنَّها وضعت بصماتها على حياتي، في كلِّ جوانبها.. وعلى حياة جميع إخوتي وأخواتي ومضت إلى ربِّها قريرة العين، راجية عفوه ومغفرته، بعدما أدَّت رسالتها، وجاهدت قدر استطاعتها جهادها، مع أحد عشر هبة من هبات الله لها..

هذه هي الأمُّ التي علَّمنا الإسلام حبَّها، وأوجب علينا برّها..

فاللّهُمَّ اغفر لها، ولوالديَّ، ولكلّ أمٍّ بحقٍّ، كفاء ما قدّمن، ويقدِّمن من عطاء وجهاد، لهذه الطفولة التي تحبُّها ونحبُّها..

* * * * *

ذاكرة الأطفال غضة يقظة!

ما أكثر ما يستهين الآباء والمربُّون بذاكرة أطفالهم، ومحاكمات عقولهم، وبراءة فطرتهم، فيُلقون عليهم الإجابات الخطأ، ليتخلَّصوا من أسئلتهم المحرجة، ثمَّ تأتي مواقف تالية فيربط الطفل بذاكرته الحيَّة الموقف الحاضر بالمعلومة السابقة الخطأ، ويركِّب سؤالاً جديداً أبلغ في الإحراج لوالده أو أخيه أو مربِّيه.. من سابقه. وهنا يقف المربِّي أعجز وأعجز عن الجواب، وكثيراً ما يتهرَّب من الحرج بالكذب، فيخسر مع الزمن ثقة الطفل والناشئ، وربَّما كان الطفل جريئاً، فصارح المربِّي بتناقض كلامه فأوقعه في الحرج أكثر، ولم يستطع الخروج من هذا المطبِّ إلَّا بمزيدٍ من الكذب، ومزيد من خسران الثِّقة..

وكان أولى بالوالد والمربِّي من أوَّل الأمر أن يقول للطفل بكلِّ بساطة: لا أعلم، وسأبحث لك وآتيك بالجواب الصحيح والمعلومة الصحيحة.

وفي ذلك تعزيز لثقة الطفل بمربِّيه، ودرسٌ عمليٌّ للطفل ألَّا يتكلَّم بغير علم، وأن يبحث عن المعلومة الصحيحة الموثوقة، لا أن يتلقَّف الكلام بغير علم، ممَّن هبَّ ودبَّ..

إنَّ أمثال هذه المواقف وما أكثرها! تنطلق من افتراض مثاليَّة في المربِّي بعيدة عن الواقع كلَّ البعد، فهو يعلم كلَّ شيء، وهو مصدر كلِّ معلومة، وهو يقدر على كلِّ ما يطلب الطفل.. وعندما يصطدم الطفل بغير ذلك تهتزُّ ثقته بنفور وردَّة فعل بعيدة عن الواقع وغير متَّزنة..

ويضطرُّ المربِّي كذلك أن يدافع عن تلك المثاليَّة الموهومة بأوهام وأكاذيب، يعلِّق طفله بها.. في دورة سيِّئة مقيتة من التلبيس والخداع.. ومرَّة أخرى يكتشف الطفل الأمر ولا يخدع.. وما أهون الأمر وأيسره من أوَّل الطريق؛ أن يعرف الطفل الحقيقة بغير تزييف ولا تزوير..

ويخطئ كثيرٌ من الآباء عندما يضعون الأطفال دائماً في موقف المتلقِّي المأمور، وكأنَّه آلة عمياء صمَّاء، لا قدرة لها ولا إرادة.. ويفرضون لأنفسهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون عصمة في كلِّ ما يملون عليهم ويقرِّرون. وهذا ما يجعل بينهم وبين الأطفال حاجزاً يزداد مع الأيَّام غلظة وكثافة، ولا تثمر تربيتهم إلَّا شخصيَّة مضطربة قلقة..

أيُّها المربِّي! وطِّن نفسك على أن تتعلَّم من طفلك كما أنَّك تعلِّمه، وأن تصارحه بجالك دون تزوير.. بل إنَّ الموقف الصغير ربَّما عاد عليك بأبعاد كبيرة في تحسين تعليمك وأدائك، واكتشاف مكونات شخصيَّة طفلك واستعداداته.. وكم تعلَّمنا من أطفالنا وهم لا يشعرون!

أيُّها الكبار.. في الأطفال فطرة هي مَنجَم ثمين لكلِّ خير ورشد وموهبة وإبداع؛ ما أحرى بالآباء والمربِّين أنْ يكتشفوها ويحسنوا التعامل معها، لا أن يظنُّوا بهم البلاهة، ويعاملوهم بسطحيَّة في التفكير وسذاجة.. وفي ذلك يقول الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى:

«خمس خصال في الأطفال لو كانت في الكبار مع ربِّهم لكانوا أولياء: لا يهتمُّون بالرزق، ولا يشكون من خالقهم إذا مرضوا، ويأكلون الطعام مجتمعين، وإذا خافوا جرت عيونهم بالدموع، وإذا تخاصموا تسارعوا إلى الصلح». حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ١: ١٧٤.

وإليكم هذا النموذج التربويَّ الفذَّ في حسن التعامل مع فطرة الطفل في التدريب على الصلاة، الذي يحترم شخصيَّته، ويعلم أن ذاكرة الطفل حيَّة يقظة؛ تختزن المواقف وما يصحبها من مشاعر، وتشكِّل السلوك السويَّ الذي ينمو مع نموِّ الطفل، ويكون خير زاد له في بناء شخصيَّته ورسم مستقبل أيَّامه..

يقول أحد الإخوة المربِّين الأفاضل: «الانضباط الجماعيّ المنزلي في العبادة يقوم بإحداث التناغم بين أهل البيت جميعاً، فيقوِّي الضعيف، ويساند المقصِّر، ويعالج هنات النفس حتَّى تقوى على طاعة الله. والطفل دون السبع سنوات نتركه براحته، أحياناً يقلد؛ فإذا أحبَّ ذلك ساعدناه بلباس الصلاة الخاصِّ بالبنات، مع سجَّادة خاصَّة، أو بسجادة خاصة للأولاد، لكنْ تبدأ بذور الدِّين تَنبت مِن وجودهم في غرفة الصلاة ومشاهدتهم للشعائر، وتلك المشاهدات هي التي تحفر في نفس الطفل التجربة الإيمانيَّة.

وإشراقات الإيمان التي ينعم بها الله على الأطفال، وقدرتهم على الاستشراف؛ تنشئ الروابط بينهم وبين دينهم وعبادتهم وربهم، وتكبر معهم.

وانظروا إلى أثر ذلك المشهد العمليّ التدريبيّ: خمس صلوات × ٣٦٥ يوم = ١٨٢٥ مشهد صلاة.

فمِن سنِّ ٤ سنوات إلى ٧ سنوات= ٣ × ١٨٢٥ = ٥٤٧٥ مشهد صلاة يراها الطفل، ويشارك فيها بعفوية ورغبة دون الأمر المباشر بها، فالأمر حسب الهدي النبويّ، يبدأ من السابعة، أمَّا الرابعة فهو بداية التكون المعرفيّ والاستيعاب التامِّ لما يُقدَّم له كطفل.. تلك المشاهدات والقدوة في البيت هي التي تساهم في صناعة الإنسان المتمسِّك بدينه، المعتزِّ بهوِّيته.

أسأل الله أن ينبت أبناء المسلمين نباتاً حسناً، وأن يجعلهم من الصالحين المصلحين. آمين».

* * * * *

كيف يستفيد أطفالنا من رمضان؟

إذا كان الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، فإنَّ التقوى هي ذروة سنام الإيمان.. لأنَّها الكلمة الجامعة لحقائق الإيمان الكبرى، فلا تقوم حقيقة الإيمان وكماله إلَّا بها، ومن ثَمَّ فإنَّنا نجد الحديث عن التقوى يمثِّل في القرآن وفي السنَّة محطَّة ومفصلاً لكلِّ التكاليف العقديَّة والعباديَّة والتشريعيَّة والأخلاقيَّة على حدٍّ سواء.. ممَّا يؤكِّد لنا على أنَّها ذروة سنام الإيمان بلا ارتياب.. كما أنَّها الهدف التربويُّ العامُّ الجامع لأركان الإسلام الأربعة، مع انفراد كلِّ عبادة بخصوصيَّتها التربويَّة المتفرِّدة؛ فالصلاة هي الصلة الكبرى بين العبد وربِّه، والزكاة طهارة للنَّفْس والمجتمع وبركة ونماء، والصوم تقوى ومجاهدة للنَّفْس، والحجُّ جهاد واجتماع للكلمة على مستوى الأمَّة.. وتأتي التقوى في الصيام خاصَّة لتوثِّق العُرَى بين الإسلام والإيمان.. إذ يجتمع فيها الهدف التربويُّ العامُّ بالهدف الخاصِّ؛ ليجعل من الصوم نسيجاً متفرِّداً في طبيعته وآثاره، ومن هنا جاء في الحديث القدسيِّ الإشارة إلى هذه الخصوصيَّة بقول الحقِّ جلَّ وعلا: (إِلَّا الصَّوْمَ؛ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ). رواه البخاريّ.

كما أنَّ في كلِّ عبادةٍ من العبادات نظاماً تربويّاً دقيقاً يشمل كلَّ فئات الأمَّة، ربَّما اهتدى إلى جانب منه بعض الناس فنعموا بنفحاته وبركاته، ولكنَّ أكثر المسلمين بعيدون عنه وغافلون. وأصبحت العبادة تؤدَّى كعادة من العادات، فلا يقطفون ثمراتها، ولا تحقِّق في

حياتهم مقاصدها وأهدافها.. فمتى نتَّخذ من تكرار العبادة في حياتنا مناسبة للتفهُّم لها، وحسن الاستفادة منها؟! وسبيلاً للغوص في أعماقها، واكتشاف دُررها ولآلئها.

وإنَّه لينبغي على الوالدين أن يغرسا في أطفالهما أهمَّ المعاني التربويَّة عن الصيام، بما يتناسب مع سنِّ الطفل واستعداده، ومنها:

١ـ أنَّ الصيام ركن من أركان الإسلام، لا يتمُّ إسلام المسلم بدونه.

٢ـ أنَّ فضل الله العظيم وثوابه الجزيل لمن يصوم رمضان إيماناً واحتساباً، ومعنى ذلك.

٣ـ أنَّ الصوم يُربِّي في نفس المؤمن رقابة الله تعالى ومحبَّته وخشيته، وإخلاص العمل لوجهه الكريم.

٤ـ أنَّ على الصائم أن يتحلَّى بآداب الصيام؛ فيحفظ سمعه وبصره ممَّا حرَّم الله، ويكفَّ لسانه عن اللغو والغيبة والنميمة، ولا يرفث، ولا يفسق. ويعمر أوقاته بتلاوة القرآن الكريم، وذِكر الله تعالى وطاعته، وكثرة دعائه والتضرُّع إليه.

٥ـ أنَّ الصيام يعلِّمنا ضبط الإرادة وتربيتها وتقويتها، وتهذيب رغبات النَّفْس، فما كلُّ ما تشتهي تستطيع الوصول إليه، وما كلُّ ما تحرص عليه من مصلحتها وخيرها أن تبلغه وتناله..

٦ـ أنَّ الصيام يربِّي نفوسنا على أنَّ في المأكولات والمشروبات والمشتهيات ما هو من الخبائث التي حرَّمها الله على الإنسانِ، فينبغي عليه أن يعفَّ نفسه عمَّا حرَّم الله عليه، ليكون عبداً لله خالصاً، ومؤمناً بالله تعالى حقّاً..

وإذا أردنا أن يستفيد أطفالنا من شهر رمضان، وينشؤوا على حبِّ الصيام، فعلينا أن نتَّبع ما يلي:

١ـ أن نُحسن استقبال شهر رمضان بما يتناسب مع قَدْره ومكانته، ونبتهج بقدومه الابتهاجَ الشرعيَّ؛ الذي يحقِّق أهدافَ الصيام ومقاصده.

٢ـ ألَّا نأمر أطفالنا بالصوم إلَّا إذا قدروا عليه، فالأمر بالصوم يختلف عن الأمر بالصلاة، وألَّا نتهاون بأمرهم بالصوم إذا قدروا عليه بدافع الحُبِّ والشفقة.

٣ـ وأن نقدِّم لهم الهدايا والجوائز اليوميَّة المحبَّبة بالصيام، كما كان السلف يفعلون.

٤ـ أن يكون للأسرة نظام محبَّب للنفوس خاصٌّ برمضان، يحقِّق مقاصده وأهدافه؛ من حيث العادات في المأكل والمشرب والنوم، وحسن الاستفادة من الوقت بما يتلاءم مع فضل هذا الشهر وخصائصه..

٥ـ وأن يتمَّ إعْلانُ شعارات في رمضان على مستوى الأسرة، تتناسب مع قدسيَّة الشهر العظيم وفضله، ونحرص على تربية أنفسنا وأولادنا عليها، ومن ذلك: الجود والإحسان والصدقة على الفقراءِ والمساكين، واغتنام الوقت، والاجتهاد في العبادة، وكثرة التلاوة للقرآن الكريم، وحفظ اللسانِ من اللغو والغيبة والنميمة، وحسن الخلق، والتحلِّي بالصبر وسعة الصدر.

أَمَا لو علم الوالدان ما في شهر رمضان من العون لهم على تربية أولادهم، وسموّ بنائهم النفسيِّ والاجتماعيِّ؛ لكان لهم مع هذا الشهر شأن آخر.. والله.

أيُّها المربِّي! ربَّما سألك طفلك هذا السؤال: لماذا نصوم؟ وربَّما لم يتجرَّأ فلم يسألك، فلا مانع أن تسأله أنت هذا السؤال، وتجيبه بما يناسب سنَّه وفكره، ليؤدِّي العبادة لله تعالى بوعيٍ لمقاصدها، وفقهٍ لحكمها وآدابها، وليكون له من ثمراتها وآثارها في نفسه وسلوكه وعلاقاته ما يدفعه إلى التمسُّكِ بها وعدم التخلِّي عنها.

فهل نعي ما في هذا الشهر الكريم من الخيرات والبركات والثمرات الطيِّبات؟ وهل نُحسن استثمارها في تربية نفوسنا وأولادنا؟ إنَّا لنرجو ذلك بتوفيق الله، والله وليُّ التوفيق والسداد..

* * * * *

لغة الأرقام تكشف الأخطار

لا غنى للباحث في هموم الطفولة التربويَّة عن اعتماد لغة الأرقام في بحثه، ليدرك القُرَّاء حجم الأخطار التي تهدِّد مستقبل الطفولة!

تقول الإحصائيَّات: إنَّ عدد أطفال العالم مليار ومئتا مليون، ثلاثة أرباعهم لا يعرفون شيئاً من الحياة السعيدة.

وإنَّ نسبة الفئات العمريَّة في أكثر دول الخليج من (٠ ـ ١٤) سنة تصل إلى ٤٠٪ من إجماليِّ عدد السُّكَّان.

وتشير إحصائيَّة منظَّمة التربية والثقافة والعلوم إلى أنَّ متوسِّط قراءة الطفل في العالم العربيِّ لا يتجاوز ستّ دقائق في السنة.

وأكَّدت المنظَّمة الدوليَّة على أن مجموع ما تستهلكه كلُّ الدُّول العربيَّة مجتمعة من ورق ومستلزمات الطباعة في السنة أقلُّ من استهلاك دار نشرٍ فرنسيَّة واحدة.

ويقول أخصَّائيُّو التربية في الدول العربيَّة: إنَّ الكتب الأدبيَّة والفنِّيَّة التي يقرأها الطفْل قليلة جدّاً، إن لم تكن منعدمة، خصوصاً عند الذين ليس لديهم ميول أدبيَّة أو فنِّيَّة.. وأكَّدوا على وجود أزمة في القراءة لدى الطفل العربيّ، خصوصاً مع ندرة مجلَّات الأطفال في عالمنا العربيّ، قياساً بالأعداد الهائلة من الأطفال المتعطِّشين إلى هذا النوع من الثقافة.

مع ملاحظة إهمال التربية على القراءة وعزوف الكبار عنها، فكيف نطمع بعدئذٍ أن يتربَّى الأطفال على حُبِّها، والرغبة فيها؟!

• إحصائيَّات عن نصيب أطفال العالم من الكتاب:

ـ الطفل الأمريكي نصيبه (١٣٢٦٢) كتاباً في العام.

ـ الطفل الإنجليزيُّ نصيبه (٣٣٨٨) كتاباً في العام.

ـ الطفل الفرنسيُّ نصيبه (٢١١٨) كتاباً في العام.

ـ الطفل الإيطاليُّ نصيبه (١٣٤٠) كتاباً في العام.

ـ الطفل الروسيُّ نصيبه (١٤٨٥) كتاباً في العام.

أمَّا المكتبة العربيَّة فقد وصل عدد كتب الأطفال التي صدرت في بعض الأعوام ٣٢٢ كتاباً فقط لأكثر من ٤٥ مليون طفلٍ يمثِّلون ٤٢٪ من العدد الكلِّيِّ للسُّكَّان.. هذا واقع أطفالنا! ونحن الأمَّة التي نزل عليها من القرآن أوَّل ما نزل: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

ونشرت الأمم المتَّحدة إحصائيّةً عام ١٩٥٩م أعلنت فيها: أنَّ العالم يواجه الآن مشكلة "الحرام أكثر من الحلال" في شأن المواليد؛ إذ بلغت نسبة الأطفال غير الشرعيِّين ٦٠٪، وفي بعض البلاد تجاوزت هذه النسبة ٧٥٪. وتُثبت هذه النشرة نفسها أنَّ نسبة الأطفال غير الشرعيِّين في بعض البلاد الإسلاميَّة تصل إلى العدم.. مع ما نراه من شيوع الجهل والبعد عن الدِّين في أوساط المسلمين، وتأثُّرهم بالغزو الفكريِّ والأخلاقيِّ الذي يجتاح بلادهم.. فكيف لو تمسَّك المسلمون بدينهم حقَّ التمسُّك، وكانوا كما يحبُّ الله ويرضى لهم؟!

وجاء في تقرير التنمية الإنسانيَّة العربيَّة لعام ٢٠٠٢م (التعليم قبل المدرسي): تؤكِّد البحوث العلميَّة باطِّرادٍ على الأهمِّيَّة القصوى لسنوات الطفولة المبكِّرة في تشكيل العقل البشريّ، وتحديد مدى إمكاناته المستقبليَّة، الأمر الذي يُبرز الحاجةَ إلى التركيز على التعليم قبلَ المدرسيّ، إلَّا أنَّ هذا مجال آخر تتخلَّف فيه البلدان العربيَّة عن البلدان النامية غاية التخلُّف.

"وعلى الرغم من أنَّ عدد الأطفال الذين التحقوا بالتعليم قبلَ المدرسيِّ في البلدان العربيَّة تضاعف في الفترة بين عام ١٩٨٠م وعام ١٩٩٥م، إلَّا أنَّ عدد الملتحقين بهذا التعليم في عام ١٩٩٥م لا يتجاوز ٢٥ مليون طفل، وهذا العدد يشكِّل نسبة التحاق تقلُّ عن متوسِّط الالتحاق في البلدان النامية. غير أنَّ الأسوأ من هذا القصور هو انخفاض نصيب البلدان العربيَّة من جملَة أطفال البلدان

النامية الملتحقين بالتعليم

قبل المدرسيِّ من ٤،٨٪

في عام١٩٨٠م إلى ٤٪

في عام ١٩٩٥.

كذلك ما بَرِحَتْ نسبةُ البنات في هذه المرحلة التعليميَّة تقلُّ عن متوسطها في البلدان النامية: (٤٢٪ مقابل ٤٧٪ في عام ١٩٩٥م) (١).

هذا ولم يتحدَّث التقرير كما لم يشر إلى نوعيَّة التعليم قبل المدرسيِّ ومستواه، وما يعانيه من مشكلات جمَّة، تجعل وجوده أشبه بعدمه إلَّا ما رحم ربِّي.

ولا يظنَّنَّ ظانٌّ أنَّ أطفال العالم المتقدِّم بمنجاة من مشكلات الطفولة، ولكنَّ مشكلاتهم من أنواع أخرى، هي من مفرزات الحضارة المادِّيَّة المترفة: إنَّها مشكلة الإفراط في التدليل إلى درجة الميوعة وضعف الشخصيَّة، وعدم قدرتها على تحمُّل المسؤوليَّة.. ومشكلة الحرِّيَّة بلا حدود إلى درجة البغي والجناية على الآخرين بالقتل أو الجرح أو الاغتصاب، وانتشار الخمور والمخدِّرات، ومشكلات الكبار في الصغار والأحداث.. إلى مشكلات أُخرَ لا عدَّ لها ولا حصر.. هذا، وقد تعالت صيحات التربويِّين عندهم؛ محذِّرة منذرة من أخطار هذه المشكلات وتفاقم آثارها.

ولكنَّ الانحدار الأخلاقيَّ والقيَميَّ عندما لا يجد منظومة ثابتة للقِيَم تعترض طريقه وتقف في وجهه؛ لن يصدَّه عن بلوغ غايته شيء، ولا تخفى تلك الغاية المنتظرة على أحدٍ، ولكلِّ أجلٍ كتاب..

(١) تقرير التنمية الإنسانيّة العربيّة لعام ٢٠٠٢م ص ٤٨

نسخة خاصّة بالباحث.

* * * * *

تشابك العلاقات الإنسانية وتداخلها

لعلَّ من أهمِّ الملاحظات البحثيَّة والتربويَّة أن نقرِّرَ بادئ ذي بدْءٍ: تداخل العلاقات الإنسانيَّة، وما يتَّصل بها من مشكلات وأزمات، وشدَّة تشابكها، وتأثير بعضها ببعض، بصورة يَعْسر معها في كثير من الأحيان أن يُعرَف السبب الأوَّل أو يحدَّد، وإلى درجةٍ يصعب معها، بل قد يتعذَّر أحياناً: التحديد الدقيق لما يكون مقدِّمة وسبباً، أو يكون نتيجة وأثراً..

ومن ثمَّ فإنَّ من يدرس جانباً من جوانب العَلاقات الإنسانيَّة، أو مرحلة من المراحل العُمْريَّة لا بدَّ له أن يُلمَّ بالجوانب والمراحل العُمْريَّة الأخرى، ولا يكتمل عمله بغير ذلك.. وكذلك مَن يتناول أزمة من الأزمات أو مشكلةً من المشكلات لا يستطيع النظرَ إليها وفهمَها بمعزلٍ عن الأزمات الأخرى، والمشكلات المحيطة بها، سواء أكانت ذاتيَّة خاصَّة، أم اجتماعيَّة عامَّة..

فالعَلاقات الإنسانيَّة كلٌّ مترابط، لا يصحُّ الوقوف عند جزء من أجزائه، أو لحظة زمنيَّة معيَّنة، ثمَّ نهمل ما سوى ذلك، أو نقلِّل من حضوره وتأثيره..

ولنأخذ ظاهرة العنوسة التي يكثر الحديث عنها نموذَجاً ومثلاً: فعندما نريد الحديث عن مشكلة العنوسة، وتفاقمها في مجتمعاتنا نجد ضرورة الإلمام بمشكلات الشباب وواقعِهم وهمومهم، وذلكَ يقودنا إلى الحديث عن الأسرة وأزماتها، ومشكلاتها الاجتماعيَّة والتربويَّة والاقتصاديَّة، كما لا يخفى الاتِّصال الوثيق لهذه الظاهرة بالثقافة السائدة، والعادات والتقاليد المتحكِّمة، ويتَّصل الحديث وينتقل لزاماً إلى واقع الطفولة، وما تعانيه من مشكلات واختلالات؛ كأثر عن أزمات الأسرة ومشكلاتها، وما تفرزه من نتائج وآثار، ربَّما تكون مؤثِّرة على مستقبل الإنسان وعلاقاته..

وهكذا نجد أنفسنا أمام نسيج وثيقٍ من العلاقات الإنسانيَّة، يصعب الفصل بين أجزائها، ولا يمكن تقديم الحلول، واقتراح البدائل، أو التعامل والحكم على جزء منها مع تجاهل الأجزاء الأخرى وإهمالها وتهميشها.. وبذلك يتبدَّى لك خطأ أولئك الذين يعزون مشكلة العنوسة إلى غلاء المهور فحسب، ولا ينظرون إلى تأثير العوامل الأخرى، وتداخلها معها..

وقد جاء في تقرير الجهاز المركزيِّ للتعبئة والإحصاء في بعض البلاد العربيَّة، الذي نُشِر بتاريخ ٢٠٠٢/٨/٥م، أنَّ حوالي /٩/ ملايين من الشباب بَلغوا سنَّ /٣٥/ سنة ولم يتزوَّجوا، أي

عانس وعانسة، ووصل عدد المطلّقين والمطلّقات إلى مليونين وربع، وفي سنة واحدة بلغت حالات الطلاق أكثر من حالات الزواج!

فهل يمكننا التفكير في العنوسة وحلّها بغضّ النظر عن مشكلات الشباب والأسرة.. والعمل والبطالة.. وانعكاسات ذلك كلّه على الطفولة، وعلاقته بها، وتأثيره فيها؟!

وقِسْ على ذلك مشكلة الطلاق، ومشكلة عمل المرأة خارج البيت، ومشكلة فَقْد الرعاية الصحّيَّة الأوّليَّة في أكثر البلاد الإسلاميَّة..

فالمشكلة الإنسانيَّة إذاً كلٌّ لا يتجزّأ، والناظر الموضوعيُّ الحصيف إليها لا تشغله أجزاؤها عن النظرة الكلّيَّة الجامعة. والعلاقات السببيَّة الوشيجة القائمة بين جميع أجزائها، أشبه بالعلاقة بين عضو الكائن الحيّ وجسده، فكما يتّصل العضو بالجسد الواحد، ويتلاحم معه.. فكذلك تتشابك العلاقات الإنسانيَّة وتتلاحم..

ولعلَّ المدخل الأكبر للتأثير في العَلاقات الإنسانيَّة المتشابكة المتداخلة هو إحداث التغيير الثقافي في عقليَّة الناس السائدة، وهو بلا شكٍّ أمر بالغ الصعوبة، ولكنَّه لا يصل إلى درجة الاستحالة.. ويؤكّد على أهمّيَّة التغيير الثقافي أنَّ المجتمع بسلوك أفراده وعاداتهم وعلاقاتهم إنَّما أكثره مرآة عن ثقافة الناس السائدة، بما فيها من خيرٍ أو شرٍّ.. وعمل المصلحين عامَّة إنَّما يراهن على ذلك، ويركّز جهوده ونشاطاته عليه..

وهذا التغيير قد يُفْرَض فرضاً بقوَّة القانون والنظام، ولكنَّه لا يحدث التغيير إلَّا على المدى البعيد، ولا يتجاوز التأثير الظاهريَّ، الذي يأخذ صورة من صور الإكراه.. أمَّا التغيير الحقيقيُّ فلا بدَّ أن يتناول القناعات الداخليَّة العميقة للإنسان، فيحدث فيها هزَّة، تتبعها هزَّات، ثمَّ تُقدَّم للإنسان قيمٌ أخرى بديلة مقنعة، تنازع تلك القيم السابقة، وتبعدها عن ساحة القبول والتأثير..

والحديث عن ذلك يطول. والله وليُّ التوفيق، ومنه يُستمدُّ العَون والسداد.

* * * * *

أطفالنا في رمضان

في كلِّ عبادةٍ من العبادات نظام تربويٌّ دقيق، يشمل كلَّ فئات الأمَّة، ربَّما اهتدى إلى جانب منه بعض الناس، فنعِموا بنفحاته وبركاته، ولكنَّ أكثر المسلمين عنه بعيدون وغافلون، والعبادة تؤدَّى كعادة من العادات، ومن ثمَّ فهم لا يقطفون ثمرات العبادة، ولا

تحقِّق في حياتهم مقاصدها وأهدافها.. فمتى نتَّخذ من تكرار العبادة في حياتنا مناسبة للتفهُّم لها، وحسن الاستفادة منها؟! وسبيلاً للغوص في أعماقها، واكتشاف دُررها ولآلئها.

وإنَّه لينبغي على الوالدين أن يغرسَا في نفوس الأطفال المعاني التالية عن الصيام، على حسب ما يتناسب مع سنِّ الطفل واستعداده:

١ـ أنَّ صيام شهر رمضان ركن من أركان الإسلام، لا يتمُّ إسلام المسلم بدونه.

٢ـ فضل الله العظيم، وثوابه الجزيل لمن يصوم رمضان إيماناً واحتساباً.

٣ـ أنَّ الصوم يربِّي في نفس المؤمن رقابة الله تعالى، ومحبَّته وخشيته، وإخلاص العمل لوجهه الكريم.

٤ـ على الصائم أن يتحلَّى بآداب الصيام، فيَحفظ سمعه وبصره ممَّا حرَّم الله، ويكفَّ لسانه عن اللَّغو والغيبة والنميمة، ولا يرفث، ولا يفسق، ويعمِّر أوقاته بتلاوة القرآن الكريم، وذكر الله تعالى وطاعته، وكثرة دعائه والتضرُّع إليه.

٥ـ الصيام يعلِّمنا ضبط الإرادة، وتربيتها، وتقويتها، وتهذيب رغبات النفس، فما كلُّ ما تشتهي تستطيع الوصول إليه، وما كلُّ ما تحرص عليه من مصلحتها وخيرها أن تبلغه وتناله..

٦ـ الصيام يربِّي نفوسنا على أنَّ في المأكولات والمشروبات والمشتهيات ما هو من الخبائث، التي حرّمها الله على الإنسانِ، فينبغي عليه أن يعفَّ نفسه عمَّا حرَّم الله عليه، ليكون عبداً لله خالصاً، ومؤمناً بالله تعالى حقّاً..

وإذا أردنا أن يستفيد أطفالنا من شهر رمضان، وينشؤوا على حبِّ الصيام، فعلينا أن نتَّبع ما يلي:

١ـ أن نحسن استقبال شهر رمضان، بما يتناسب مع قدره ومكانته، ونبتهج بقدومه، الابتهاجَ الشرعيَّ الذي يحقِّق أهدافَ الصيام ومَقاصده.

٢ـ ألَّا نأمُر أطفالنا بالصوم إلَّا إذا قدروا عليه، فالأمر بالصوم يختلف عن الأمر بالصلاة، وألَّا نتهاون بأمرهم بالصوم إذا قدروا عليه بدافع الحبِّ والشفقة.

٣ـ أن نقدِّم لهم الهدايا والجوائز اليوميَّة المحبّبة بالصيام، كما كان السلف يفعلون.

٤ـ أن يكون للأسرة نظام محبَّب للنفوس خاصٌّ برمضان، يحقِّق مقاصده وأهدافه، من حيث العادات في المأكل والمشرب، والنوم، وحسن الاستفادة من الوقت بما يتلاءم مع فضل هذا الشهر وخصائصه..

٥ـ أن يتمَّ إعلانُ شعارات في رمضان على مستوى الأسرة، تتناسب مع قدسيَّة هذا الشهر وعظيم فضائله، وأن نحرص على تربية أنفسنا وأولادنا عليها، ومن ذلك: الجود والإحسان والصدقة على الفقراءِ والمساكين، واغتنام الوقت والاجتهاد في العبادة، وكثرة التلاوة للقرآن الكريم، وحفظ اللسانِ من اللغو والغيبة والنميمة، وحسن الخلق، والتحلِّي بالصبر وسعة الصدر.

أمَا والله لو علِم الوالدَان ما في شهر رمضان من العَوْن لهم على تربية أولادهم، وسموِّ بنائهم النفسيِّ والاجتماعيِّ لكانَ لهم مع هذا الشهر شأْنٌ آخر..

أخي الوالد المربِّي! ربَّما سألك طفلك هذا السؤال: لماذا نصوم؟ وربَّما لم يتجرَّأ فلم يسألك، فلا مانع أن تسأله أنت هذا السؤال، وتجيبه بما يناسب سِنَّه واستعداده، ليؤدِّي العبادة لله تعالى بوعيٍ لمقاصدها، وفِقهٍ لحِكَمها وآدابها، وليكون له من ثمراتها في نفسه، وآثارها في سلوكه وعلاقاته مَا يدفعه إلى التمسُّكِ بها وعدم التخلِّي عنها.

فهل نَعي ما في هذا الشهر الكريم من الخيرات والبركات، والثمرات الطيّبات؟ وهل نحسن استثمارها في تربية نفوسنا وأولادنا؟

إنَّا لنرجو ذلك بتوفيق الله ونتمنَّاه، والله الموفِّق والهادي إلى سواءِ السبيل..

* * * * *

الفرد محور التربية ونقطة الدائرة

إنّ الفرد في الإسلام هو مركز الدائرة في التربية الإسلاميّة، ومحور وجودها وحركتها، وكما لا يصلح الجسد إلّا بصلاح القلب، فكذلك لا صلاح للمجتمع إلّا بتركيز الجهود على صلاح نشأة الفرد منذ طفولته الأولى، والحرص على بناء شخصيّته وسلامة نشأته، وحسن استقامته وتكوينه.

وفي التأكيد على ذلك يقول الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندويّ رحمه الله: (إنّي أرى رجالًا في البلاد العربيّة والإسلاميّة وغيرها؛ يبدون كباراً في العقل والتفكير والتجربة، ولكنّي أستغرب أنَّ تفكيرهم قاصر غير ناضج).

(يتكلَّمون عن المشكلات حديث رجل لم يتعمّق، ولم يرسخ، يتحدَّثون عن مشكلات السياسة والاجتماع، ويعتقدون أنه إذا جاء الحزب الفلانيّ أو زال ذهبت المشكلة، فإذا جاء أو ذهب واجهتنا المشكلات نفسها، بل ما هو أكبر منها، وكثيرًا ما نواجه مشكلات أخرى لا

عهد لنا بها من قبل، ثمّ نجرّب حزبًا آخر؛ فإذا هو شرٌّ من الأوّل، ولا نزال نجرِّب وننتقل من سيء إلى أسوأ، فإلى متى تُجرى التجارب على هذا الإنسان المسكين؟! وإلى متى نفحص ونشرِّح، ثمَّ نرجع من غير طائل)؟!

إنَّ الأنبياء هم الذين يمنحوننا العلم اليقيني، وهم الذين يقدِّمون لهذا الإنسان التشخيص الصحيح لأمراضه وعلله، وأسبابها ومواطنها، وهم الذين يعطوننا العلاج الشافي.. إنَّ المسألة مسألة النفوس، وما دمنا معرِضين عن هذه الحقيقة، فسوف نبقى نعاني مشكلة بعد مشكلة، ألم يقل الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغيرُ ما بِقَوْمٍ حتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم﴾ [الرعد: ١١].

(الأزمة أزمة رجال، فأين الرجال؟ أين الرجال الأكفاء الذين يحملون المسؤولية بحقّ، ويؤدُّون الأمانة بصدق، ويتجرَّدون عن أهوائهم وأنانيّاتهم؟ وإنّ كثيرًا من الناس يحرصون على الحكومات، ويعتقدون أنَّ صلاحها هو المفتاح لحلِّ أزماتنا الراهنة، ولكنَّ الحكومة يسيِّرها الرجال، فمَن هم هؤلاء الرجال؟ ومَن الذي يهيّئهم لهذه المهمّة الكبيرة)؟ من كتاب: (إلى الإسلام من جديد) ص: ١٦٢ـ ١٦٦ بتصرف يسير.

إنَّ الرجال لا يصنعهم إلا الرجال، ولا يهيّئهم لهذه المهمّة الكبيرة إلَّا أن يتربّوا على أيدي الرجال الربّانيّين، فيربُّونهم على مائدة الإسلام، ويصنعونهم على عينه، ويُنهلونهم من معينه، ومن معينه فحَسْب، فيكونون بذلك على طراز الجيل الأوّل ممن تخرَّجوا في مدرسة محمّد صلى الله عليه وسلم، فكانوا قادة العالم وسادة الدنيا، تغيَّرت الدنيا كلّها من حولهم، ولم يتغيَّروا، وأقبلت عليهم الدنيا كلها بفتنة المال والجاه، والعزِّ والسلطان فلم يطغوا، ولم يبغوا، وإنما أعرضوا عنها، وقالوا لها كما قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه: «يا دنيا غُرّي غيري! غُرّي غيري»! بذلوها لله، وجعلوها في مرضاة الله، ولم ينحرفوا عن الغاية التي تربّوا عليها، ونذروا أرواحهم لبلوغها..

وإنَّ العالم لم يفسد إلَّا عندما فسد الأفراد، وفُقد هذا الطراز من الرجال، الذين تربّوا في مدرسة محمّد صلى الله عليه وسلم، وإنّه لا يصلح آخر هذه الأمّة إلَّا بما صلح به أولها.

إنّنا لا نكون مبالغين، ولا مغالين إذا قلنا: إنّ كلّ مشكلات الأمّة التي تعاني منها في كلّ ميدان من الميادين؛ تعود إلى فقد التربية أو الخلل في التربية منذ النشأة الأولى، ولا ينفع التقويم غالباً عند الكبر، بعدما يشتدُّ عود المرء، وتملكه عاداته، وتتحدَّد اتّجاهات حياته..

وإنّ العجب كلّ العجب، أن ترى بعد ذلك مَن يبحث عن حلّ مشكلات الأمّة في غير هذا الميدان، ويتناسى نقطة البدء ومحور القضيّة، أو يعلقها على أمور فرعيّة أو مؤامرات خارجيّة..

فلا بدَّ لنا من التربية، ولا معدل لنا عنها.. ولا بدَّ للتربية أن تبدأ مع الإنسان منذ الطفولة ولا تتجاوزها، فالفرد محور التربية ونقطة الدائرة في الإصلاح الاجتماعيّ، ولكنّنا لا نقف عنده، ولا نقتصر عليه، بل نتدرّج معه في جميع أطواره، حتّى نبلغ به الإصلاح الاجتماعيّ المنشود..

* * * * *

بين (التربية المنهجية) والنظام المجتمعي

ما الذي يجري في بعض المجتمعات، التي كانت توصف بأنّها أشدّ المجتمعات الإسلاميَّة تديُّناً، ومحافظة على قيم الدين وآدابه؟!

اقرأ نموذجاً عن ذلك ممّا كتبته الأخت بدور عبد الله على صفحتها في الفيس:

«ما بين سافرة عن وجهها، وأخرى حاسرة عن شعرها، وأخرى مشمّرة عن ساعديها، وأخرى مزركشة وجهها بالألوان، وأخرى تضرب بكعبيها، وأخرى تبرز مفاتن جسدها، وأخرى يتعالى صوتها وقهقهات ضحكاتها، تتبعثر كلمات الأمر بالمعروف، وتختنق عبارات النهي عن المنكر.

لقد باتت فريضة الحجاب من كبرى القضايا الدينية التي تحتاج إلى مناقشات جادّة ودراسات دقيقة، تتضافر فيها جهود المخلصين لاستئصال جرثومة الفساد ومعالجة الداء بشكل صحي سليم. فالجهود الفردية ـ وإن أبرأت الذمة ـ إلَّا أنَّها لا ترتقي إلى مستوى علاج جذري لداء متأزم».

هذا نموذج ممّا يجري من رياح التغيير التي تجتاح مجتمعاتنا على كلّ المستويات.. فما التشخيص الصحيح لهذا الواقع؟ وما العلاج الأمثل؟

إنّ أيّ نظام مجتمعيّ لم يتواكب مع «تربية منهجيّة» شاملة على قيمه وأهدافه العليا سيئول إلى صورة شكليّة، لا روح فيها، وعادات وتقاليد لا حقيقة لها..

والنظام الإسلاميّ لا يخرج عن هذه القاعدة، بل هي ظاهرة فيه كلّ الظهور، لأنّه يعتمد بالدرجة الأولى على تقوى الله تعالى ورقابته، وحيويّة ضمير المؤمن في تعامله مع أحكام دينه والتزامه بها..

وكان من نتيجة إغفال هذه القاعدة في المجتمعات التي فرضت فيها أحكام الإسلام بقوّة السلطان، وغابت عنها «التربية المنهجيّة» أو ضعفت إلى درجة دنيا غير مؤثّرة.. ثمّ تراخت قوّة النظام في التطبيق الإلزاميّ والمتابعة أن ظهر عوار الخلل في «التربية المنهجيّة» تفلّتاً وانحرافاً، واكتفاءً بمظهريّة صوريّة مخادعة..

وتكشّف للعيان أنّ هذه الصور المُرضية ظاهريّاً، والتي حوّلت الأحكام الشرعيّة إلى عادات وتقاليد، لا روح فيها، كانت تخفي وراءها عللاً مزمنة، تنخر بنية المجتمع وقيمه وعلاقاته من جذورها، ومن حيث لا يشعر أكثر الناس، ولا ينتبهون، وفي كثير من الأحيان لا يبالون..

وهذا ما حدا ببعض المتابعين الناقدين إلى أن يفسّر هذه الظاهرة التي تكشّفت لهم ولغيرهم بأنّ سببها التسلّط الدينيّ، والكبت للحريّة، الذي يولّد النفاق الاجتماعيّ بطبيعته الهشّة، ثمّ سرعان ما يُفتضح سرّها وخباياها مع أدنى نافذة مُوارِبة، من الحريّة الفرديّة والمجتمعيّة، التي فرضتها رياح المتغيّرات المتسارعة.. ولا محيد لنا عن التعامل معها..

إنّ النقطة المحوريّة التي ينبغي أن تكون في بؤرة اهتمام العلماء والدعاة إلى الله تعالى، والغيارى على دين الله من العامّة والخاصّة، وولاة أمور المسلمين هي حاجتنا الماسّة في كلّ حركة من حركاتنا إلى «التربية المنهجيّة» على قيم الإسلام وآدابه، وهي لا بدّ أن تتواكب مع ضبط النظام، وتعضد قوامته ورعايته..

وهذه «التربية المنهجيّة» خير حصن للفرد والمجتمع من جهة، وخير ما يقف في وجه عواصف المتغيّرات، ويحفظ للأمّة هويّتها وأصالتها..

ولا شكّ أنّ هذا السبب الأساسيّ لانكشاف الخلل التربويّ وظهور عواره، وتنامي آثاره، لا يلغي الأسباب الأخرى المتنوّعة، التي أرى أنّها أسباب ثانويّة، تعزّز التأثير وتعمّقه، ولكنّها ليست السبب الرئيس..

إنّ علينا أن نوقن أن لا غنى للنظام المجتمعيّ مهما كانت قوّته وتمكّنه عن «التربية المنهجيّة» على كلّ المستويات، وهي وحدها التي تعمّق المبادئ في النفوس، ولا ترضى لها أن تتحوّل إلى هامش العادات والتقاليد، التي يسهل محاربتها واقتلاعها.. وأنّ استنجاد بعض

الناس بالنظام المجتمعيّ لمواجهة عواصف المتغيّرات يدلّ على سطحيّة في الفهم والتفكير، أو جهل بطبائع الأمور، أو هروب من مسؤوليّة التربية وأعبائها..

* * * * *

ضرب التأديب أم التعذيب؟!

دخل رجل على مجلس من العلماء فسلّم عليهم ثمّ قال لهم:

أيّها السادة العلماء أفتوني مأجورين، أدامكم الله ذخراً للإسلام والمسلمين..

فقيل له: وما عندك أيّها الرجل؟

قال: عندي ولد عاقّ، يسبّني، ويسيء إليّ، ويرفع صوته في وجهي، ويتطاول عليّ، قد أعيتني الحيل في إصلاحه وتعديل سلوكه، نصحته فلم ينتصح، وزجرته عن تطاوله عليّ فلم ينزجر، فضربته ضرباً مبرّحاً، ليقف عند حدّه، واستعنت على ضربه بخدمي، وما أكثرهم! فلم يرعو عن غيّه وعقوقه، وسوء أدبه، فازداد غيظي منه وحنقي عليه، فعدت إلى ضربه فكسرت رجله، وحبست عنه الطعام والشراب إلّا قليلاً ثلاثة أيّام، فلم ينفع معه ذلك، فعدت إلى ضربه بصورة أشدّ وأغلظ..

فقال لي بعض الجيران المطّلعين: حرام عليك أن تفعل ذلك بولدك، عليك أن تصبر عليه، وتحسن توجيهه ورعايته.. وشدّدوا عليّ في الكلام وأغلظوا.. فما رأي سادتنا العلماء فيما فعلت؟ وهل عليّ من لوم أو حرج؟

فأطرق أكثر الحاضرين متعجّبين مستغربين، وكأنّهم لا يصدّقون ما يسمعون، وتهامس بعضهم بما يوحي بذلك.. ثمّ انبرى أحدهم، وهو من أحدثهم سنّاً، فقال:

أعوذ بالله من البغي والعقوق، هذا الولد عاقّ أثيم، لا خير فيه، ولا يرى الخير في حياته، كيف يتجرّأ بهذه الصورة الوقحة من العقوق لوالده وقلّة الأدب؟ وأنت سبب حياته، وقد ربّيته وأنفقت عليه؟! إنّ من حقّك أيّها الرجل أن تضربه وتؤدّبه، وأنت حتماً لم تقصد كسر رجله، فلا حرج عليك في ذلك.. بل أنت ما كسرت رجله، وإنّما هو كسرها بعقوقه..

ونظر أكثر الحاضرين في وجه الرجل نظرة استنكار وعدم ارتياح.. أمّا السائل فقد ظهر ارتياحه، وانفرجت أساريره، وكأنّ كابوساً من الغمّ والضيق زال عن قلبه، فقال له: بارك الله في علمك وفهمك أيّها الرجل، وما أحوج الناس إلى مثل عقلك..

وتشجّع أحد الحاضرين فقال مؤيّداً كلام صاحبه: لقد نصّ علماؤنا على أنّ الأب والمعلّم لا جناح عليه لو وقع منه خطأ في تأديب الطفل فآذاه، جرحاً أو كسراً، فلا قود عليه ولا قصاص.. بل إنّ بعضهم قال: لو مات الطفل فلا إثم على المعلّم أو الوالد، لأنّه قتل خطأ..

وقال ثالث: أنا أثنّي على كلام الأخوين الفاضلين، فتأديب الأولاد أمر ضروريّ، ولا حرج أن يكون في سبيله ما يكون!

فقال السائل: أنتم علماء الأمّة حقّاً! وكثير من الناس لا يفهمون الدين وللأسف، ويشوّهونه، ويسيؤون إليه..

ونظر بقيّة الحاضرين في وجه بعض، وأفصحت نظراتهم عمّا يعتلج في صدورهم من استنكار لما يسمعون، وكأنّ كلّ واحد منهم يقول للآخر: تكلّم أنت! تكلّم أنت! وساد الصمت لحظات، كانت في عالم الفكر والشعور كأنّها ساعات طوال.. وربّما كانت الجرأة على الكلام في بعض المواطن كالجرأة على القتال في الحرب، هذه من تلك..

وقطع صمت الحاضرين وشرودهم صوت جهوريّ قويّ، من رجل تجاوز السبعين: لا يغرّنك أيّها السائل كلام هؤلاء، فليس بشيء من الفقه بدين الله.. أنت بما فعلت تجاوزت حقّك في التأديب والضرب المشروع، فضرب التأديب لا يكون بغير حدّ وشروط، وأهمّ شروطه أن يكون غير مبرّح، فكيف وقد تجاوزت في ضربك إلى حدّ الكسر، ممّا ينزع عنك حقّ التأديب، ويعرّضك للتعزير لو رفع أمرك إلى القضاء..

وامتقع وجه السائل، وتغيّر لونه، ونظر في وجوه الحاضرين، فوجدهم مؤيّدين لما سمعوا، بينما أطرق الآخرون رؤوسهم.. فانسلّ السائل من المجلس لا يلوي على شيء.. وأترك للقارئ اللبيب فهم القصّة ومغزاها..

* * * * *

معالم
في
المنهج العلمي
وأدب الخلاف

الانتقاص من عِلْم السابقين!

إنَّ من فساد النيَّة، وتزكية النفس، المنهيّ عنها بقول الله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، وتشبّع المرء بما لم يُعط: أن ينتقص طالب علم من سبق من الأئمّة، ويقلّل من علمهم وبحثهم، ومكانتهم واجتهاداتهم، ليخدع السامعين، ويلقي في روعهم: أنَّه أتى بما لم يأت به الأوائل، وبلغ ما لم يبلغوا، واكتشف ما لم يكتشفوا.. وأنَّى له أن يبلُغ عُشرَ معشار ما كانوا عليه!! ولكنَّنا في زمن الدعاوى العريضة، ولا ملجم لها من تقوى، ولا رادع لها من حياء أو أدب.

* * * * *

سَمتٌ عامّ رأيته في العلماء المتقدّمين: التواضع واتّهام النفس، وسَمتٌ عامّ رأيته في المتأخّرين: الدعوى والعجب بالنفس.. وشتّان ما بين الخلقين.

الأئمّة الكبار، الذين فتح الله عليهم في العلم والفهم، فكانوا أساطين كلّ فنّ، لا يعرف أغوار علومهم، وعلوّ كعبهم في سعة العلم والفهم إلَّا واهبهم سبحانه..

فالمبالغة الظاهرة في حقّهم هي بهذا الملحظ في محلّها، وليست مبالغة لا سند لها.. هو حكم وصلت إليه بحمد الله عن عقل وفهم، لا عن تعصّب وجموح عاطفة.

* * * * *

قال لي صاحبي مغضباً: ما جوابك لمن يقلّ أدبه مع أئمّة الإسلام، ولا يعرف لهم قدرهم ومنزلَتَهُم؟

فقلت له: الجواب من عند سيّدي رسول الله صَلّى الله عليه وسَلّم لا من عندي.. يقول رسول الله صَلّى الله عليه وسَلّم: «يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّمَا يَعْرِفُ الفَضْلَ لِأَهْلِ الفَضْلِ ذَوُو الفَضْلِ».

ولا أرضى الكلام مع أمثال هؤلاء الطاعنين بديننا، ولا الحوار مع المغرورين المخذولين.. وأسأل الله تعالى لهم التوبة والهداية، فإن لم يتوبوا ويعودوا إلى رشدهم فأسأل الله تعالى أن يبتليهم بقلّة أدب أقرب الناس إليهم، ليذوقوا العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، جزاء وفاقاً..

* * * * *

ارفعوا رؤوسكم، وافخروا بأئمّتكم، واعتزّوا بصالحي سلفكم، ولا تبالوا بما يقول النكرات من افتراءات، ولا تتأثّروا بتوافه الشبهات، ممّا يطلقه الجهلة المغرورون، وأنصاف المثقّفين المشبوهون، وأعداء الإسلام الحاقدون..

فما شأن الثرى بمنازل الثريّا؟! وإنّ عظماء الأمّة من أئمّة السلف همم رفيعة، وهامات علميّة كبيرة، وقمم إنسانيّة عظمى، لا يتطاول إليها الأقزام الفارغون، ولا يضرّها كيد العابثين الحاقدين.

* * * * *

مصادرةُ عالم باجتهاده حقّ الآخرين من العلماء في الاجتهاد، أو تبنّي ما يشاؤون من المواقف والاجتهادات لغةٌ بعيدة كلّ البعد عن الموضوعيّة في البحث والحوار، مهما تكن الحجّة والمبرّرات..

وإذا اقترن ذلك بشيء من الدعوى وتزكية النفس، والتعريض بانتقاص الآخرين واتّهامهم فذلك هو الداء النفسيّ العضال، الذي نعاني منه على مختلف المستويات..

فهل يعيد النظر بمواقفهم أولئك الذين يطرحون آراءهم واجتهاداتهم، ويدعون إليها بكلّ قوّة، ويأبون أن يمنحوا غيرهم حقّ الاجتهاد، وحقّ آرائهم من الصواب؟!

فيا هؤلاء رويدكم! إنَّ للاجتهاد آداباً، لا أظنّها تخفى عليكم، وأنتم من طلاّب العلم المتخصّصين، ولكنّكم أقول بكلّ صراحة ونصح: لماذا تتجاوزونها في كلّ حوار، وبخاصّة فيما يطرح في غرف التواصل من آراء واجتهادات؟!

* * * * *

تزوَّج الجهل المركَّب ثلاثيّةَ: الغُرُور، والعُجب، والاستعلاء، فكان نسلهما ثلاثيّةَ التخلّف، والظلم، والفساد.

* * * * *

اختلاف أساليب أهل الحقّ في معالجة المواقف:

أهل الحقّ بحمد الله كثير.. ولكنّهم ضعفاء باختلافهم وتفرّقهم.. وأسوأ ما يفرّقهم: الخلافات الهامشيّة الصغيرة، واختلاف الأساليب في معالجة المواقف والمشكلات، والداهية الدهياء، والقاصمة العمياء هي التشكيك بالنيّات والتخوين، بغير بيّنة ولا برهان، إلَّا سوء الظنّ والأوهام..

وأحبّ أن ألقي الضوء في هذه الكلمات المختصرة على مشكلة: اختلاف أساليب أهل الحقّ في معالجة المواقف والمشكلات..

فهُناكَ الأسلوبُ الخطأ، والأسلوبُ الصحيح، وهُناكَ الأسلوبُ الأصحّ، وهُناكَ الأسلوبُ السيّء، والأسلوبُ الأسوأ، والأسلوبُ القبيح، والأسلوبُ الأقبح..

والمنهج النبويّ الحكيم هو الحكم.. ودونك مواقف الناس بمظاهرها وآثارها، لتعرّفك بهذه الأنواع، وتدلّك عليها بمواقف حيّة نعيشها، ونعاني كثيراً من ويلاتها.. ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الأَلْبَاب﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* * * * *

محافظة الأتباع على منهج المُؤسّسين للجماعات والكيانات على ثلاث درجات:

فمنهم من يحافظ على منهج المؤسّس بتبعيّة مطلقة؛ فلا اجتهاد، ولا تعديل، ولا تطوير ولا تغيير..

ومنهم من يحافظ على ما سبق، ويبني عليه ويطوّر، بحسب ما يجدّ له من المُتغيّرات، وهم قلّة مخلصة للمنهج واعية، تؤمن بالمنهج، وتخلص ولاءها له، وتحافظ على الأهداف، وتجدّد في الأساليب والوسائل..

ومنهم بعض النفعيّين الوصوليّين، الذين لا ينظرون إلى أمر إلّا من زاوية ضيّقة، وبعين النفعيّة والأنانيّة، وهؤلاء لهم حضورهم في كلّ زمان ومكان، ولكنّ المشكلة في تصدرّهم للمشاهد، وتقديمهم على أهل الكفاية والإخلاص.

* * * * *

لا يكون الإنسان عالماً مُتمكّناً، أو مُثقّفاً مُتنوّراً إلّا إذا ابتدأ قارئاً نهماً، ثمّ باحثاً عن الحقيقة مُدقّقاً، ثمّ ناقداً لما يَقرأ، مُتجرّداً عن هوى نفسه، (وضعوا تحت هذه الجملة ألف خطّ أحمر)، ثمّ موثّقاً لمعلوماته بالأدلّة الموثوقة، ثمّ مستعدّاً للتخلّي عن المعلومة بكلّ صدق وأريحيّة إن ظهر له ما ينقضها.. ثمّ لا بدّ له أن يوسّع نطاق قراءاته ومعلوماته، فَيُلمّ بأصول العلوم التي تدخل في مجال تخصّصه واهتمامه.. إذ أكثر العلوم يخدم بعضها بعضاً، بصورة مباشرة وثيقة، أو غير مباشرة مؤثّرة..

* * * * *

بين العقل والنقل

سؤال ساذج يتكرّر كثيراً: أيّهما يقدّم، العقل أم النقل؟

إذا كان يقصد التقديم المطلق، فهو سؤال سطحيّ ساذج.. فلا العقل يقدّم مطلقاً، ولا النقل يقدّم مطلقاً، وإنّما يعمل كلّ منهما في مجاله وميدانه، ومن العبث والجناية على أحدهما أن يطلب منه العمل في غير ميدانه، والخوض فيما لا يدخل في نطاقه، أو ليس من مقاصده وأهدافه.. والعجب أن يكون ضحايا هذا الجدل ما لا يحصى من الناس، قديماً وحديثاً.. إنّها معركة مفتعلة بين الوحي والعقل، بسطحيّة وسذاجة، أو بخبث ومكر..

الوحي أمر الله، والعقل خلق الله، ولا يمكن أن يتنافى أمر الله مع خلقه..

والوحي ميدانه العامّ هو التكليف بما يريد الله من عباده، والعقل ميدانه الحسّ، وما يتطلّبه من عمل وبحث..

الوحي يريد من العقل أن يصطبغ نشاطه بمنهج الله في كلّ شأن من شؤونه، والعقل أمام حرّيّة اختياره التكليفيّة، يسعه أن يطيع ويستجيب، ويسعه إلّا يستجيب، وهو يتحمّل في جميع الأحوال مسؤوليّة عمله..

* * * * *

لا ثُنائيةَ تَعارضٍ بين العَقل والنصّ.. وإنّما بينهما التكامل الوظيفيّ، كتناغم الفطرة مع الشرع، والعين مع نور المِصباح لمُكافحة الظلمة وتمكين النور...

فإذا اهتدى العقل إلى موقعه مع النصّ كان نوراً على نور، وعلى ذلك قامت علوم الإسلام، وبنيت حضارته..

وإذا استجاب العَقل بهواه لقصوره عن مدارك النصّ وآفاقه، اصطنع له الشيطان عداوة موهومة مع النصّ، لا يتحرّر منها حتّى يكون أسفل سافلين، وهو يحسب أنّه على الرشد، وأنّ النصّ ضرب من الوهم أو الخرافة..

* * * * *

قرّر الإسلام في الكتاب والسنّة أصولاً وقواعد عامّة شاملة، في باب الحكم والسياسة الشرعيّة، وقدّر الله تعالى بحكمته أن تقوم على أرض الواقع دولة الإسلام في العهد النبويّ، ثمّ امتدّت إلى عهد الخلافة الراشدة، التي زكّى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خلفاءها المهديّين، ودعا إلى اتّباع سنّتهم، لأنّها على قدم النبوّة وسَنَنها، فكانت بذلك الصورة العمليّة الواقعيّة، والمرآة الصادقة لأصول الإسلام العامّة، ومبادئه التشريعيّة وقواعده..

وأصبح عمل الخلفاء سوابق تاريخيّة اجتهاديّة لمن بعدهم، ليست ملزمة بوقائعها وأعيانها إلّا فيما أجمعوا عليه، وإنّما هي هادية في بابها، للنسج على منوالها، فليس للاحقين أن يتعذّروا بقلّة النصوص التفصيليّة في هذا الباب، فتلك قضيّة للشارع مقصودة، ومزيّة محمودة، تترك لهم المجال رحباً للاجتهاد بما يناسب مصالح الإنسان، ومستجدّات الزمان والمكان.

* * * * *

ليست مشكلتنا في اختلاف الآراء، وإنّما في تسلّط الأهواء..

* * * * *

مَنْ لم يكن منْ أهل التخَصّص بالفقه في الدين فليسَ له أن يفتيَ في دين الله، وحتّى لو كان متخصّصاً ببعض علوم الشريعة، فالفقه في الدين لا يتقنه أيّ طالب علم.. ثمّ لا بدّ له

أن يكون من أهل التقوى المَشهودة، إذ الفتوى في دين الله روح قبل الحروف.. فكيفَ لو كان من يفتي لا يعلَم من دِيْنه إلَّا ثقافة عامّة متواضعة؟! قصارى حصادها، معلومات بلا تأصيل، وأفكار شتّى من هنا وهناك، وربّما تحمل بينها من النقائض ما يقضي عليها من قواعدها..

وعندما اجتَهد الأئمّة من السلف مخلصين في طلب الحقّ، متجرّدين عن أهوائهم كتب الله تعالى لعلمهم وفقههم الانتشار والقبول، وما كان أحدهم يظنّ ذلك بنَفسِه.

* * * * *

فرق كبير بين استعمال الحكمة في أسلوب الدعوة، وبين أن تَكون الحكمة المُدَّعاة تنازلاً عن شيء من المَنهج.. المَنهج ثابت، والأساليب تتغيّر..

* * * * *

محضن تربويّ

يجب أن يكون لكلّ مؤسّسة علميّة أو دعويّة محضن تربويّ، يقوم بدورين رَئيسين: الأوّل: دور بنائيّ يلتزم ببرامجه كلّ العاملين في المؤسّسة، يقوم على التخليَة والتحليَة؛ التخليَةُ عن أمراض النفس ورعوناتها، ممّا لا يرضاه الله تعالى، والتحليَة بما يريده الله من العبد ويرضاه..

والدور الثاني: معالجة مشكلات العاملين الطارئة على علاقاتهم، ممّا قد ينعكس على العمل، ضعفاً في التعاون والأداء، وربّما أدّى إلى اختلال العمل والانقطاع..

ولا يغني عن وجود هذا المَحضن أيّ نجاح إداريّ، مهما بلغ وزنه وإحكامه..

* * * * *

الجهل مرض، ربّما كان عضالاً إذا ادّعى صاحبه العلم والفهم، والقدرة الفذّة على مناطحة أهل الاختصاص في اختصاصهم..

وكلّ العقلاء يوجبون على المريض أن يذهب إلى الطبيب، ويعرض حالته عليه بصورة خاصّة، لأنّه ربّما احتاج إلى كشف عورة..

فهل رأيتم مريضاً يأبى أن يذهب إلى الطبيب، وبدلاً عن ذلك يعرض عورته على ملأ من الناس؟! إنّ الجاهل مريض، ومرضه ما يعرض له في دينه من شبهات وإشكالات، يجب عليه أن يسارع إلى أهل العلم لكشف زيفها، ومعرفة الردّ عليها.. لا أن يعرضها على الناس على أنّها حقائق مسلّم بها، فهذا يدلّ على أنّ أهواءه تتلاعب به، والشيطان يزيّن له سيّئات الأفكار والشبهات ليضلّه عن سبيل الله..

* * * * *

ما أحوج طالب العلم إلى دراسة التاريخ كلّ التاريخ، دراسة واعية معمّقة، لا دراسة حفظ للسنوات، وولع بغرائب أخبار الحُكّام والولاة، وكثير منها بعيدة عن منطق العقل، ومن وضع أعدائهم، أو أولئك الإخباريّينَ وتجّار الأدب، الذين لا يردعهم دين ولا خلق عن اختلاق الأكاذيب، وترويج الغرائب.. فحقيقة التاريخ هي سنن الله في الأوّلين والآخرين.

* * * * *

شَيخُوخَةُ الرجال والهيئات والجماعات:

يعيب كثير من الناس على كبار السنّ أنّهم يشغلون الناس في المجالس بالحديث عن حياتهم ومواقفهم في شبابهم، وإنجازاتهم ونجاحاتهم، وقد يكون لهم عذرهم الوجيه في ذلك لاعتبارات عديدة، ولكن ما لا أجد له عذراً أو مبرّراً أن يشتغل أصحاب الهمّ الدعويّ، ومن يقلقهم الشأن العامّ للأمّة من الرجال أو الهيئات بأمور تاريخيّة حول بعض الرجال ومواقفهم، ممّا لا يمكن أن يحسم الأمر فيه، ولا يترتّب على إثارته أيّة ثمرة عمليّة.. اللّهُمَّ إلّا ضياع الوقت والجهد بغير حساب، وفتح أبواب الجدل العقيم، الذي لا يأتي بشيء من الخير..

وعندما ينظر إلى هذا الأمر، من زاوية الإشغال عن واجب الوقت يصبح ظاهرة من أسوأ ظواهر العبث والثرثرة الفارغة، ونوعاً من الهروب عن الاستحقاقات العاجلة.. إنّها شيخوخة لا تبشّر بخير لمن يقع في شباكها فهل نحنُ منتهون؟!

* * * * *

الحديث في خطبة الجمعة ينبغي أن يدخل تحت أحد المحورين التاليين:

المحور الأوّل: ما يتّصل بمسؤوليّات الناس الشرعيّة المباشرة، وخير ما يركّز عليهم فيه: تقوية الإيمان، الذي هو بمثابة تيّار الكهرباء أو البطّارية التي تحرّك قوى الإنسان كلّها، وترسيخ أصول الدين وحقائقه في قلوبهم، وضعف ذلك واختلاله ينعكس على الضعف في كلّ شأن من شؤون الناس وعلاقاتهم..

والمحور الثاني: ما يتّصل بعلاقات الإنسان الاجتماعيّة، والتوعية بأحوال الأمّة العامّة، وما تمرّ به من شدائد ومحن، ومسؤوليّة كلّ مسلم تجاه ذلك.. وينبغي أن يتّصل كلا المحورين ويتكاملا، وألَّا يطغى أحدهما على الآخر.

* * * * *

المعاركُ البينيّةُ المُفتعَلةُ من أعداء الإسلام، مهما بدت أسبابها علميّة موضوعيّة، علينا إلَّا نستجرّ لها، ولا نكون طرفاً فيها، وإلَّا فقد وقعنا في مصيدَة عدوّنا، من حيث نَدري، أو لا نَدري..

* * * * *

معرفة العالِم بالواقع

كثيراً ما يتحدّث العلماء عن ضرورة معرفة العالم المجتهد بالواقع معرفةً تُمكّنه من التنزيل الصحيح للحكم الشرعيّ عليه.. وذلك حقّ لا غبار عليه، ولكنّ الأمر تكتنفه الصعوبة من كلّ جانب، وبخاصّة عندما يتعلّق بمسالك واجتهادات، تواضعت عليها فئات من الناس، لها خبراتها الواقعيّة، ووزنها العلميّ والدعويّ..

ويزداد أمر التنزيل دقّة وصعوبة عندما يتعلّق بمتغيّرات متشابكة متداخلة، لها احتمالات عديدة، وأوجه مختلفة، وهي في ساحة صراع قائم، تتداخل فيها المواقف ببعضها، والأفعال بردودها.. وخير لطالب العلم الباحث عندئذٍ ألَّا يصدر رأياً أو حكماً إلَّا بعد مشورة إخوانه، والوقوف على الموازنة الدقيقة بين وجوه الرأي ومرجّحاتها وآثارها، وألَّا يطغى أمر منها على ما سواه إلَّا بمرجِّح ظاهر..

* * * * *

الجاهل يخبط في فهمه للنصوص خبط عشواء، ويفهمها على غير وجهها، والمبتدع يوظّف النصوص على حسب أهوائه.. فالأمل بالجاهل أن يعود إلى الحقّ قائم، أمّا صاحب الهوى فالأمل من فيئته إلى الحقّ ضعيف.

* * * * *

يتوزّع الناس في مواقفهم وسلوكهم بين أربعة اتّجاهات:

المُستحيل واقعاً، الذي يتمنّونه، وهم عاجزون عن مقاربته..

والمُمكن الذي يقعدون عن فعله، وهو بين أيديهم..

والاستسلام لما يأتي به القدر، مع شلل الفاعليّة، والقعود عن العمل..

وانتظار الخوارق، التي تغيّر حالهم، لما لهم بظنّهم عند الله من الفضل والقدر..

وهناك فريق خامس، وهم المُتهوّرون، الذين يخلطون بين هذه الاتّجاهات بأفهام عوجاء خاطئة، فيجمعون بين سلبيّاتها، ولا يحقّقون شيئاً من إيجابيّاتها.. وينطبق على هؤلاء أنّهم يفسدون في الأرض، ولا يصلحون..

* * * * *

إنّ الفِكر بالفِكر يقرع.. الإيديولوجيا المتمثّلة بالعلمانيّة المُتغوّلة، التي لا تتورّع عن أساليب التلاعب والكذب، لا يقف في وجهها إلّا ما هو مثلها، وأكفأ منها، ولكن دون زيف أو كذب.. فلن تغلبها الشخصيّة الآسرة، ولا النجاح الاقتصاديّ، ولا الكفاءة الإداريّة، ولا النزاهة ونظافة اليد.. ورغم أنّا لا ننازع في أهمّيّة ذلك كلّه.. ولكنّ أهمّ أسباب الفشل أنّ جبهة الفكر والعقيدة أُهمِلت، وتقدّم الوصوليّون، فرأيتم غبّها: في أنفسكم، وفي أثر حشد خصمكم.. فاعتبروا واستدركوا..

* * * * *

الاختلاف في البدعة بين العلماء تضييقاً وتوسّعاً هو دليل على أنّ ما يختلف فيه منها لا ينكر فيه على أحد المُختلِفين، فالأمر فيه سعة شرعاً، ولكنّ مشكلتنا مع بعض الناس هي في ضيق صدورهم، وسوء أخلاقهم مع مخالفهم، وهو ما يجمع بين ضعف التربية، وضعف الفقه في الدين.

* * * * *

مطبّات علميّة وفكريّة، يقع فيها بعض العلماء والدعاة:

١ـ ردّ الظواهر والعلل والسلبيّات إلى علّة واحدة، أو سبب واحد.

٢ـ المبالغة في وزن بعض الأعمال، أو الانتقاص منها، والتقليل من شأنها.

٣ـ الانتقاص من بعض الحقائق لنصرة أخرى.

٤ـ تنزيل الأحكام على غير مواقعها.

٥ـ الحكم على الكلّيّ من خلال أمر جزئيّ.

٦ـ التعميم في الحكم، من خلال حوادث أو مواقف جزئيّة أو نادرة.

* * * * *

جدل حول الشيخ فتحي الصافي!

أيّها الإخوة الأفاضل! قرأت ما دار من جدل حول الشيخ فتحي الصافي رحمه الله في هذه المجموعة، وأحبّ أدلي بوجهة نظري بين إخواني، وأطلب من إخواني النصح والتسديد، فأقول:

لم تكن مشكلتنا في هذا الجدل الطويل العريض حول الشيخ فتحي الصافي رحمه الله، الذي لم ننته عَنْه حيّاً وميتاً.. وقد أفضى الرجل إلى ربّه، وقد دار بنا الجدل في حلقة مفرغة، ولكنّه في الحقيقة كان يعبّر عن أزمة منهجيّة فكريّة، وأزمة نفسيّة أخلاقيّة.. وما كان الشيخ فتحي الصافي رحمه الله إلَّا نموذَجاً عنها، وهو نمُوذج قابل للتكرار مع كلّ حالة مشابهة.. فأحرى بنا أن نقف مع ما وراء النموذج من أزمة، لا أن نحجب به عن الأزمةِ، التي تعصف بفكرنا وأخلاقنا، وتذهب بنا مذاهب شتّى من الاختلاف والتفرّق.. وهذه الأزمة ذات وجوه ولوازم متعدّدة: ها إلى

أوّلها: كأنّنا نفترض العصمة في أيّ رمز أو قدوة، فعندما يهفو الهفوة نسقطه، ونهدر كلّ حسناته، ونعمل فيه سكاكين الجرح، ورماح الطعن والتشهير.. ونتجاهل كلّ ما كان له من حسنات..

وثانيها: أنّ سوادنا الأعظم يتخندق بين مُحبّ غالٍ، أو مبغض قالٍ، فالمُحبّ يبرّر الأخطاء، ويدافع عنها بتعصّب، والمُبغض يهدر الحسنات، ويقلّل منها.. وقلّ فينا أهل العدل والوسطيّة، الذين يقيمون ميزان القسط في مواقفهم وأحكامهم، ويأخذون ما صفا، ويدعون ما كدر.. مع أنّنا جميعاً نتغنّى بالوسطيّة وندّعيها.

وثالث الوجوه لهذه الأزمة: أنّنا نغفل عن نقطة تربويّة مهمّة، وهي أنّنا نورّث هذا الأسلوب الخاطئ لمن حولنا، فيتجرأ الشباب على العلماء والشيوخ، والمؤسّسات والجماعات، فيتطاولون عليهم، ويستبيحون أعراضهم بالسباب والاستهزاء، والافتراء بغير حدود.. ثمّ نلوم هؤلاء الشباب، ولا نعلم أنّهم أخذوا ذلك، وتلقّوه عنّا..

ورابع هذه الوجوه للأزمة: أنّنا نخالف بهذا الأسلوب، من حيث ندري أو لا ندري: المَنهج الربّاني الذي يعامل به ربّنا سبحانه عباده المؤمنين، إذ يقول جلَّ وعلا: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦].

وأخيراً: قال لي بعضهم: لن أترحّم على الشيخ فتحي الصافي.. فقلت له: لن أسألك لماذا؟ ولكنّني أسألك بالله لو كان الرجل والدك أتترحّم عليه أم لا؟ فسكت، ولم يجب بكلمة.. أرأيتم أيّها السادة! كيف أنّها في أحد جوانبها أزمة نفسيّة أخلاقيّة..

لا تحجروا رحمة لله واسعة ... فكلّكم يرتجي الزلفى ورحماه
وأمّلوا رحمة عمّت سحائبها ... سبحان ربّي ما أرجى عطاياه

* * * * *

طلب الإجازات من الشيوخ دون تأهّل علميّ باب من أبواب الغرور والزور.. إلَّا من رحم ربّك.. وبركة العلم لا تنزل على غير أهلها..

* * * * *

يا أهل الإجازات لمن رغب، ولمن لم يرغب، ولمن هبّ ودبّ.. لقد هزلت! لقد هزلت! العلم أمانة.. كفى عبثاً بعلوم الشريعة..

أيّ بركة فيما يدّعى من إجازة البركة؟!

* * * * *

إجازات «الضعفاء» للمناكير والمهازيل في هذا العصر ينطبق عليها المثل القائل: «افتُضِحُوا فاصطَلحُوا»..

لن أكفّ عن إنكار هذا العبث العلميّ، كلّما رأيت مظاهره ونماذجه..

* * * * *

ليست الشهادات العلميّة وقفاً على عصرنا.. كما يظنّ كثير من الناس، وإنّما كانت معروفةً منذ عهد مبكّر من حياةِ السلف، فلم يكن العالم يتصدّر للفتوى، أو التعليم، أو التحديث إلَّا بعد أن يشهد له مشايخه وعلماء عصره، بالعلم والفهم، والخشية لله تعالى والتقوى.. وفي كثير من الأحيان كانوا يدفعونه إلى ذلك، ويلزمونه بحكم الوجوب الشرعيّ، ولم تكن تلك الشهادات تصدر إلَّا عن معايير علميّة دقيقة، بعيدة عن أيّ هوى أو محاباة.. أمّا اليوم! فما أكثر المتصدّرين بغير علم ولا تأهيل! وما أكثر المتحدّثين فيما لا يحسنون، وهم لا يتقنون من العلم إلَّا الجلوس وراء لوحة المفاتيح، والعبث بمحرّكات البحث، والسطو على أعمال الآخرين وانتحالها لأنفسهم، وقبل ذلك الجراءة بالقول على الله تعالى بغير علم! وهذا ما فتح على الأمّة أبواب الفتنة في الدين على مصراعيها، وجعلها في فوضى علميَّة لا آخر لها، ومزَّق نسيجها العلميّ والثقافيّ..

* * * * *

من بداهة الأمور أنّ لكلِّ مُستوى من التعليم منهجاً مقرّراً، والمعلّم الذي يحترمُ مهمّته ورسالته لا يمكن أن يلقي مقرّرات الجامعة على طلّاب المرحلةِ الابتدائيّة، وإلَّا فإنّه يكون مفسداً لهم عابثاً.. وكذلك الداعيَة عليه أن يخاطب الناس ويحدّثهم بما يناسِبهم ويعقلون،

وَجاء في صحيح البخاريّ عن عَلِيّ رضي الله عنه قَالَ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ».

وفي روايَة: «أَيُّهَا النَّاسُ أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ».

قال الإمامُ المناويّ رحمه الله: «لأنَّ السامع لما لا يفهمه يعتقد استحالته جهلاً، فلا يصدِّق وجوده، بل يلزم التكذيب. فأفاد أنَّ المتشابه لا ينبغي ذكره عند العامّة... فعلم أنَّ المدرِّس ينبغي أن يكلِّم كلَّ طالب على قدر فهمه وعقله، فيجيبه بما يحتمله حاله، ومن اشتغل بعمارة أو تجارة أو مهنة فحقّه أن يقتصر به من العلم على قدر ما يحتاج إليه من هو في رتبته من العامّة، وأن يملأ نفسه من الرغبة والرهبة الوارد بهما القرآن، ولا يولد له الشبه والشكوك، فإن اتفق اضطراب نفس بعضهم بشبهة تولّدت له، أو ولّدها له ذو بدعة، فتاقت إلى معرفة حقيقتها، اختبره فإن وجده ذا طبع موفّق للعلم، وفهم ثابت، وتصوّر صائب خلّى بينه وبين التعلّم، وسوعد عليه، لما يجد من السبيل إليه، وإن وجده شريراً في طبعه، أو ناقصاً في فهمه، منعه أشدّ المنع، ففي اشتغاله مفسدتان: تعطّله عمّا يعود نفعه إلى العباد والبلاد، وشغله بما يكثر من شبهة، وليس فيه منفعة ». فيض القدير ٣: ٣٧٨ باختصار يسير.

يقول كاتبُ هذه الأسطر: وهل فتحت أبواب الفتن الفكريّة والعلميّة، على مصراعيها إلَّا بتقديم قصاصات من العلم للعامّة، ممّا لا يعنيهم، ولا شأن لهم به، فلم يقم في أنفسهم على أصوله الراسخة عند أهله، ولم يقترن بما يجب فيه من الأدب مع الأئمَّة، فكان شرّاً محضاً على مَن قُدِّم له بغير حقٍّ، وشغله عمَّا يجب عليه من شؤون، ولو كانت دنيويَّة معاشيَّة..

* * * * *

أهمُّ الأسباب العامَّة لاختلاف الأئمَّة المجتهدين:

١ـ الاختلاف في ثبوت النصّ الشرعيّ.

٢ـ الاختلاف في فهم النصّ، نظراً لطبيعة اللغة العربية التي نزلت بها القرآن، ففي اللغة العربية أساليب عديدة للتعبير عن المعنى الواحد، وألفاظ صريحة في دلالتها، وأخرى محتملة. وكذلك الاختلاف والتفاوت في العقول والأفهام. ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جرى في زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزوة بني قريظة، وحجّ النبيّ صلى الله عليه وسلم حجّة واحدة واختلف الصحب الكرام في فهم بعض أحكامها.

٣ـ الاختلاف في بعض القواعد الأصولية، وبعض مصادر الاجتهاد.

٤ـ الاختلاف في قواعد الجمع والترجيح بين النصوص.

وحاشا لإمام من الأئمة أن يردّ حديثاً ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحّ، ولكنّه قد يختلف فهمه له عن فهم غيره من الأئمّة، ويكون له من الأدلّة ما يرجّح اجتهاده.

* * * * *

لمّا كان الاختلاف الفقهيّ ليس الأصل فيه المشاحنة والفرقة، بل البحث عن حكم الله عزّ وجلّ واتّباع أمره ونهيه، كان الاحتكام إلى المقاصد موفياً بالغرض المتحقّق من التشريع وهو امتثال المكلّف لشرع الله تعالى أمراً ونهياً، حتّى يكون منقاداً لذلك كلّه قولاً وعملاً، بما يحقّق له اللذّة، ويبعد عنه الألم، ويجلب له المصلحة، ويدرأ عنه المفسدة.

ومجالات المقاصد في الاختلاف الفقهيّ متعدّدة، ومسالكها متجدّدة، والفائدة منها مؤمّلة ومحصّلة.

فتارة تجد المقاصد حاضرة في توجيه النصّ القرآنيّ أو النبويّ، وتارة مسدّدة لمعنى خفيّ، وتارة موضّحة لما أشكل، ولم تتّضح علّته، وتارة أخرى بانية لأحكام قياسيّة معلّلة بالمصلحة المعتبرة.

* * * * *

بَينَ القَدَر الكونيّ والقَدَر الشرعيّ:

لا يزال في الأمّة، وفي النخبة منها وللأسف، مَنْ يظنّ أنّ في تمكّن الحاكم من حكمها أيّ حاكم كان نوعاً من الاختيار الإلهيّ، الذي ليس للأمّة دفعه وردّه، أو حتّى الاعتراض عليه.. ويخلط في ذلك حتّى بعض طلبة العلم، ممّن لا فقه لهم بدين الله تعالى، ولا وعي بسنن الله في خلقه، يخلطون بين القدر الكونيّ والقدر الشرعيّ، ممّا يزيد العامّة خلطاً في الفهم، وتشويشاً في الفكر، وضبابيّة في سلوكهم، وتحمّلهم لمسؤوليّاتهم.. وربّما كان ذلك فتنة مضلّة على بعض المثقّفين وأشباههم، الذين تذهب بهم الفتنة إلى الشكّ بالله تعالى وحكمته وعدله في خلقه..

عدا عمّا يكون من آثار ذلك من قعود الهمم عن العمل الإيجابيّ، والسلبية في شخصيّة الإنسان ومواقفه عامّة..

وهي مشكلة للأمّة قديمة متجدّدة، مع الأخذ بالأسباب، والتعامل مع سنن الله تعالى في الخلق والأمر، ولا بدّ للعلماء والدعاة إلى الله تعالى من تسليط الضوء عليها، والتأصيل الشرعيّ في عقول العامّة لفهمها والتعامل معها..

* * * * *

العقل قرين العلم والحكمة، والذكاء قرين الهوى والغرور. فمن ألجم ذكاءه بلجام العقل نجح في الحياة وأبدع، ولم يكن ذكاؤه وبالاً على عقله وعلى حياته.

ولا تلازم بين العقل والذكاء؛ فليس كلّ عاقل ذكيّ، ولا كلّ ذكيّ عاقل. ومن حصّن ذكاءه بأصول العلم ومبادئه أمن عليه من غوائل الهوى، ومن التفريط به فيما يضرّ ولا ينفع.

حرّيّة الناس: نعمة أم نقمة؟ أفرزت أحداث ما يسمّى: «الربيع العربيّ» شعوراً بالحرّيّة طاغياً عند كثير من الناس، جعلهم يجهرون بما يشاؤون دون تحفّظ ولا حساب.. ونظر بعض طلبة العلم إلى ذلك نظرة الريبة والاتّهام، وفي حوار مع بعضهم قال لي محتجّاً: أرأيتم ما فعلت الحرّيّة التي تطلبونها، وماذا كان وراءها؟! لقد استعلن بعض الناس بإلحادهم، وجهروا بعدائهم للدين، ولجميع مقدّساته؟! فهل يسرّكم ذلك؟! فقلت له: وهل يسرّك أن يستخفي هؤلاء بإلحادهم، ويعملون في الخفاء على نشر شبهاتهم، وبثّ ضلالهم وإلحادهم في العامّة وأشباههم، فيخلو لهم الجوّ، ولا يجدون من يقف في وجههم، ويردّ عليهم؟! ومتى كان الإسلام يهرب من معركة حوار الفكر؟!

سؤال تحار به عقول الأحرار: كيف تمّ ترويض قامات كبيرة لتقبل الانضواء تحت هذا النظام القذر، وتصدّق كلامه ودعاويه، وبسطاء من الناس لم يخدعوا به؟!

* * * * *

فائدة في أصول الفقه، وفي تسلسل الكتب، والبحث عن تاريخ الأفكار:

عند الرجوع إلى مصادر بعض الأفكار الأصوليّة نجدها ترجع إلى حجّة الإسلام الغزاليّ رحمه الله، وفي هذا السياق وجدتُ الإسنوي يقول في مقدمة كتابه: (نهاية السول شرح منهاج الأصول) قوله: (واعلم أن المصنف رحمه الله [يقصد البيضاوي] أخذ كتابه من الحاصل للفاضل تاج الدين الأرموي، والحاصل أخذه مصنفه من المحصول للإمام فخر الدين، والمحصول استمدّه من كتابين لا يكاد يخرج عنهما غالبا: أحدهما المُستصفى لحجة الإسلام

الغزاليّ، والثاني المعتمد لأبي الحسين البصري" رحمهم الله جميعاً. من صفحة الأخ حسن الخطاف وفّقه الله.

تعليق: قد يظنّ بعض الطلبة في هذا الزمان: أنّ هذا من السرقة، أو ضعف الأمانة العلميّة، والأمر لا يدخل في هذا الباب ولا ذاك قطعاً، لأنّه محكوم بالعرف أوّلاً، فقد كان هذا الأمر عرفاً شائعاً سائغاً: (كلّ العلماء ينقل بعضهم عن بعض).. ثمّ إنّ العلماء كانوا يكتبون ما يكتبون، ويبحثون ويصنّفون، ولا يطلبون شهرة، ولا لقباً علميّاً، ولا عرضاً من أعراض الدنيا ثانياً.. وربّما كان بدء تصنيفهم دروساً ومذكّرات يلقونها على تلامذتهم، أو أنّ تلامذتهم يكتبونها عنهم، ثمّ تتحوّل إلى كتب مصنّفة..

أمّا الأمر في هذا الزمن فقد اختلف بكلّ هذه الأبعاد.. فليس لناقل إلّا أن يعزو ما نقل إلى أصحابه.. توثيقاً لكلامه، ونسبة للعلم والفضل إلى أهله.. لأنّ العلم أصبح عند أكثر الناس تجارة، وكثر فيه المُتطفّلون والسرّاق..

* * * * *

السجال بين أصحاب الاتّجاهات العقديّة

أيّها الإخوة الأحبّة! السجال بين أصحاب الاتّجاهات العقديّة من أهل السنّة قديم متجدّد، تشتدُّ وطأته تارة أو تخِفُّ، ولا أملَ فيما يبدو لإنهائه وطيّ صفحته، مع شتات الأمّة وتفرّق كلمتها.. وهو في كثير من الأحيان ينحو منحى الجدل العقِيم، لاعتبارات عديدة، أهمّها: التعصّب للأشخاص والآراء، وعدم التجرّد للحقّ، واشتغال العامّةِ بالجدل حول تلك الاختلافات، وهي تحتاج إلى اشتغال أهل الاختصاص، وتضخيم الخلاف وتهويله، وهو لا يعدو أنْ يكون من فروع العقيدة لا أصولها، وهو ممّا يسع المسلم جهله وتجاهله، كما لا يسأل عنه بين يدي ربّه.

كلّ هذا السجال المقيت والأمّة تستباح بيضتها، وتستحلّ دماؤها وحرماتها، وتجتمع على حربّها أمم الكفر من كلّ جنس ولون.. وقد بلغ من انحطاط شأنها وتخلّفها، وهوانها وفساد ذات بينها أن يكون بعض أبنائها أداة قتل وإجرام بأيدي أعدائها..

وأمّا النخبة ومن يؤمّل منهم الخير والنهوض فهم في غيبوبة عن الرشد لا تنتهي..

وإنّ أوّل سبيل الرشد للداعية الحكيم فيما أعتقد: أن يكفّ لسانه، ويضنّ بوقته وجهده، وما هو بصدده من أولويّات عن أن يضيّع وقته في مثل هذا الجدل العقِيم..

فالحوار في مثل هذه الأمور يجب أن يكون بين أهل الاختصاص، وفي مجالس علميّة هادئة، بعيداً عن صخب الإعلام وأهدافه المريبة..

كما أنّني أنصح إخواني المشتغلين بالدعوة إلى الله تعالى وطلاب العلم الناشئين ألّا يقحموا أنفسهم في هذه المتاهات، وأن يجتنبوا إشاعة التسميات وتداولها، تلك التي لم تعد وللأسف تعريفاً علميّاً باتّجاه له اجتهاده وحججه وأدلّته، وإنّما أصبحت معلماً للتحزّب، وتفريق الأمّة، وتشتيت اتّجاهها، وتمزيق كيانها، رغم ما هي فيه من شتات وتقزّم، واختلاف كلمة تقود من شرّ إلى شرّ أكبر..

كونوا أيّها الأحبّة أدوات بناء، لا معاول هدم وتخريب! ولا ترضوا لأنفسكم أن تُستَفزّوا، وتُستدَرجوا إلى متاهات عمياء، تزيد مآسي الأمّة ولا تنهيها..

* * * * *

من فلسفة الجهاد في الإسلام:

أحكام الجهاد في الإسلام تقوم على دراسة نفسيّة العدوّ دراسة شاملة، وفهمها فهماً دقيقاً.. وهذا أمر تختلف فيه الأنظار والاجتهادات اختلافاً كبيراً.. ومن فضل الله علينا، ورحمته بنا أن لم يترك لنا تقدير ذلك ومعاناة كشفه، لنقف بين الخطأ والصواب، والتخبّط والزلل، في أمر من أخطر شؤون العلاقات الدوليّة، وما يترتّب عليها من الآثار التي قد تمتدّ إلى قرون.. ومن ثمّ فقد وضع لنا التشريعات الشاملة الدقيقة، المناسبة لكلّ الحالات والمستجدّات، التي تستقصي أحوال النفوس، واحتمالات مواقفها، واتّجاهاتها وتقلّباتها، وتسنّ لنا ما يعالجها، ويناسبها من الأحكام، ولا يفقه ذلك حقّ الفقه إلّا الراسخون في العلم، القادرون على إنزال الأحكام منازلها من الواقع.. ومن ثمّ فليس لأمّة الإسلام من عذر مع هذه السعة من الأحكام إلّا تتقن فنّ المناورة لأعدائها، والقدرة على إحباط كيدهم ومخطّطاتهم.

* * * * *

إنّ الفرقاء العاملين لتحكيم دين الله في الأرض، جميعهم يدّعون الالتزام بالكتاب والسنّة لإثبات منهجهم وقناعاتهم، وسيرة نبينا صلّى الله عليه وسلّم ومواقفه فيما يتّخذون من الوسائل والأساليب التي تحقّق ذلك في حياة الناس، ولكن المؤسف حقّاً هو الغلوّ والجنوح بهذه القناعات والفهم والاجتهاد، ليصل الأمر إلى مصادرة حقّ الآخرين في الفهم والاجتهاد،

بل وإخراجهم من الملة، ورميهم بكلّ تهمة في دينهم وعقيدتهم، وأوّلها الخروج من دائرة أهل السنة والجماعة.. وعندها تتحوّل المعركة من معركةٍ وجهاد لأعداء الله، لتصبح مع أخصّ أبناء الأمّة ونخبة رجالها، فيُكفى العدوّ مؤونة الحرب وتكاليفها، ويقف شامتاً متفرّجاً، ومسعّراً لنارها بيننا..

* * * * *

عندما صحونا من رقدتنا بدأنا التفكير بلون بركانيّ حادّ، يصل بنا إلى حدّ ضغائن القلوب، واستحلال الأعراض والدماء، واستباحة ألوان الكذب على المخالفين.. وكنا نعيب ذلك على من يخالفنا في الاتّجاه، فدبّ دبيب الشرّ إلى صفوفنا، وما كنّا نأمل من أبنائها إلّا سعة الصدر وسماحة النفس، وسموّ الحوار.. فاللّهُمَّ ألّف بين قلوبنا، واسلل سخائم صدورنا، واهدنا سبل السلام، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا..

* * * * *

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾ [التوبة: ١٠٥].

اجتهادات الناس وأعمالهم ليست على درجة واحدة من الصحّة والسلامة من الأخطاء والعلل، فلا عصمة بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لأحد.. وتلك حقيقة بدهيّة، لا يعترض عليها عاقل..

ومع ذلك ترى مواقف الناس من أعمال غيرهم مختلفة متباينة، وهي على وجه العموم تأخذ أحد منحيين:

ـ منحى تضخيم السلبيّات وتجميعها من هنا وهناك، والوقوف عندها، وتكرار الحديث عنها، دون أيّ عمل إيجابيّ بنّاء.

ـ ومنحى التقليل من شأن السلبيّات وتبريرها، أو السكوت عنها، بحجّة الانشغال بالعمل الإيجابيّ، وبدعوى أنّ الزمن كفيل بتجاوزها والقضاء عليها.

ـ والمنحى العدل القويم هو بين هذا وذاك، إنّه لا يقلّل من خطر السلبيّات ويهملها، ولا يسكت عنها ويتجاوزها، كما أنّه لا يقف عندها، ويتعلّل بها، ويتعذّر، لتصدّه عن العمل الإيجابيّ البنّاء.

ومن متابعتي وملاحظتي لسلوك كثير من الناس رأيت القاعدين عن العمل الإيجابيّ تقترن حياتهم بالوقوف عند السلبيّات، فلا يزالون يُبدؤون ويُعيدون في ذكرها والحديث عنها، والأسوأ من ذلك أن يتناولوا الأشخاص والهيئات العاملة بالتشكيك والتخوين، والشتم والسباب، والرمي بأنواع الاتّهامات، ومنهم من لا يتورّع عن التفسيق والتكفير، والتحريض على استحلال الدماء.. ولو انشغلوا بالعمل الإيجابيّ البنّاء لكان من جملة عملهم محاصرة السلبيّات وتقليلها أو القضاء عليها..

ولو فكّروا في مسؤوليّتهم أمام الله تعالى، والحساب على ظاهرهم وباطنهم، وما قدّموا وما أخّروا لكفّوا عن تضييع أعمارهم فيما لا يسألون عنه.. والتوفيق من الله تعالى وحده، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

* * * * *

نطلب من العاملين المجتهدين قصارى جهدهم، وما لا يستطيعون، ولا نطلب من أنفسنا أقلّ ما نستطيع.!!

* * * * *

لماذا لا نرى الله في الدنيا؟

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله في [تلبيس الجهمية ٥: ٥١٣]: (وإنما احتجب الله عن أعين الناس في الدنيا رحمة لهم، لأنّه لو تجلَّى في الدنيا لهذه الأعين المخلوقة الفانية لصارت دكًّا، وما احتملت النظر إلى الله تعالى، لأنّها أبصار خلقت للفناء، لا تحتمل نور البقاء، فإذا كان يوم القيامة ركبت الأبصار للبقاء، فاحتملت النظر إلى نور البقاء).

قرأت هذا القول، وأرى أنّ هناك سببين يسبقان هذا السبب والتعليل:

السبب الأوّل: أنّ رؤية الله تعالى غير ممكنة في هذه الدار، لأنّها تتنافى مع ابتلاء العباد بالإيمان بالغيب، وأوّل الغيوب وأعظمها وأكبرها وجود الله تعالى، فإذا تحقّقت رؤيته تعالى هان الابتلاء بما دونها، وسقط التكليف، ولم يتميّز الناس بين مؤمن وكافر..

والسبب الثاني: أنّ أبصار الناس في هذه الدار ترتكب المعاصي، وترى ما لا يحلّ لها، والله تعالى أجلّ وأعظم من أن يرى بأبصار تعصيه، وتقترف ما لا يرضيه.. فعندما ينشئها

الله تعالى نشأة أخرى، وتكون من أهل القرب والاجتباء تكون أهلاً لذلك النعيم والتكريم، الذي ما فوقه نعيم ولا تكريم..

ويؤكّد ذلك أنّ الله تعالى حرم الكافرين يوم القيامة من لذّة النظر إلى وجهه الكريم، لأنّ أبصارهم كانت في الدنيا ملوّثة بالكفر، وما دونه من المحرّمات، ولم يتطهّروا منها، فلم يتأهّلوا لتكريم الله لهم في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُون﴾ [المطفّفين: ١٥].

اللّهُمَّ إنّا نسألك الشوق إلى لقائك، وأكرمنا بفضلك ورحمتك بالنظر إلى وجهك الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.. برحمتك يا أرحم الراحمين..

* * * * *

ماذا تريد الأمة من علمائها؟

اتّصل بي والغضب يبدو من نبرة صوته، ويهزّ كلّ حرف ينطق به، وكأنّ كلماته حمم بركان يغلي في داخله، ورجوم شهب تقذف ولا ترحم.. ورمى إليّ بهذه الكلمات بدون تحفّظ ولا مقدّمات: (علّة الأمّة هؤلاء المشايخ المنافقون، الذين يمالئون الظالم، ويسكتون عن جرائمه، ويثبّطون الناس عن التظاهر والجهر بالحقّ.. أيّ ذلّ وهوان بلغته الأمّة إذا كان علماؤها بهذه الصورة المهينة؟! كيف لنا أن نثق بهؤلاء المشايخ، وهم يقفون مع الظالم، ولا يقولون كلمة الحقّ لنصرة المظلوم)؟! فقلت له: هوّن عليك.. فلن أدافع عن أحد بغير حقّ.. ولكن دعني أسألك هذا السؤال: ماذا تصنّف سلوك هؤلاء المشايخ؟! وهل هو حدث طارئ في هذا العصر؟! أم له أمثال وأمثال؟! فقال: وماذا تعني بتصنيف سلوكهم.. إنّهم مجرمون بحقّ دينهم وشعبهم.. قلت: لا أعني ذلك.. ولكن أليس هو نوعاً من الابتلاء، الذي أمرنا بالصبر عليه ومغالبته، ومعالجة أسبابه؟! فلماذا نضيق به ذرعاً، ونضجر أمامه ونتأفّف، ونتقبّل ابتلاءات أخرى ونعالجها؟! وأجيب عنك على ذلك، لأنّنا نفاجأ به، ولا نتوقّعه، ونتصوّر المشايخ كالملائكة المطهّرين، أو الأنبياء المعصومين.. وهذا في الحقيقة خطؤنا.. لأنّ هذا الأمر ليس بجديد، وإنّما هو قديم قدم هذه الأمّة، كما أنّه مُستشر في الأمم الأخرى، بل هو سرّ انحرافها، وفساد دينها، وتحريفها لكتاب ربّها.. وقد ندّد القرآن الكريم بهؤلاء في مناسبات عديدة، وضرب لهم أسوأ الأمثال، وفي ذلك تحذير لهذه الأمّة أن تحذو حذو تلك الأمم، فيصيبها من غضب الله ونكاله ما أصابها..

قف معي متدبّراً هذه الآيات، التي تتحدّث عن أنواع من فساد أولئك الذين اؤتمنوا على دين الله، فخانوا الأمانة، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ليتبيّن لك خطر علماء السوء على دين الأمّة ومنهج حياتها: من كتاب الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]

﴿وَإِذَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

فهذه الآيات تحدّثت عن صنف من هؤلاء، وهم الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويأكلون أموال الناس بالباطل، وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ.. فأحوال هؤلاء كلّها دارت في فلك إيثار الفانية على الباقية، والطمع في الدنيا، واللهاث وراء شهواتها، واتّخاذ الدين مطيّة للدنيا.. فهذا الصنف لا يعنيهم الحقّ شيئاً، يدورون في فلك شهواتهم، وهم غارقون في مستنقعها، إلّا أن تتداركهم رحمة الله فيتوبوا إليه قبل موتهم..

كما حذّر سلف الأمّة الأخيار، وعلماؤها الأبرار من شرّ هؤلاء على دين الناس وأخلاقهم، يقول الإمام الغزاليّ رحمه الله: (واحترز عن الاغترار بتلبيسات علماء السوء فإنّ شرّهم على الدين أعظم من شرّ الشياطين، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرّج إلى انتزاع الدين من قلوب الخلق).

وقال الحسن رحمه الله: (عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة).

وقال يحيى بن معاذ: (إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا).

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: (إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص).

وقال الآخر:

يا معشر القراء يا ملح البلد ... ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وقال حاتم الأصم رحمه الله: (ليس في القيامة أشدّ حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به، ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو).

وقال مالك بن دينار: (إنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا)، وأنشدوا:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما ... إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها

أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... فالموبقات لعمري أنت جانيها

تعيب دنيا وناسا راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: مررت بحجر بمكة مكتوب عليه: اقلبني تعتبر، فقلبته فإذا عليه مكتوب: (أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم).

وقال ابن السماك رحمه الله: (كم من مذكر بالله ناس لله! وكم من مخوف بالله جريء على الله! وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله! وكم من داع إلى الله فارّ من الله! وكم من تال كتاب الله منسلخ عن آيات الله)!

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: (لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن، ولحنّا في أعمالنا فلم نعرب).

وقال الحارث المحاسبيّ رحمه الله: (علماء السوء شياطين الإنس، وفتنة على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها، وآثروها على الآخرة، وأوّلوا الدين للدنيا، فهم في العاجل عار وشين، وفي الآخرة هم الخاسرون، أو يعفو الكريم بفضله).

وقَالَ الجرجانيّ في أبياته المشهورة:

ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظّموه في النفوس لعُظّما

ولكن أهانوه فهان ودنّسُوا ... مُحيّاه بالأطماع حتّى تجهّما

كما حثّ سلف هذه الأمّة طالب العلم أن يبتغي بعلمه وجه الله تعالى، ويكون من علماء الآخرة، يقول الإمام الغزاليّ رحمه الله: " إنّ الفائزين المقربين هم علماء الآخرة، ولهم علامات؛ فمنها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه، فإنّ أقلّ درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها، وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها، ويعلم أنّهما متضادتان، وأنّهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنّهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنّهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنّهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ، فبقدر ما تصب منه في الآخر

حتّى يمتلىء يفرغ الآخر، فإنّ من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها، وامتزاج لذّاتها بألمها، ثمّ انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل مَفتون..

وقيل: خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة، مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عزّ وجلّ: الخشية، والخشوع، والتواضع، وحسن الخلق، وإيثار الآخرة على الدنيا، وهو الزهد. فأمّا الخشية فمن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وأمّا الخشوع فمن قوله تعالى: ﴿خَاشِعِينَ للهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وأمّا التواضع فمن قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. وأمّا حسن الخلق فمن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وأمّا الزهد فمن قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ [القصص: ٨٠].

وكان من سمت علماء الآخرة وهديهم أنّهم لا يدخلون على ولاة الأمر والأمراء إلّا ناصحين مذكّرين، بالحكمة والموعظة الحسنة، من قلوب لا تعرف إلّا شرع الله عزّ وجلّ، ولا تبتغي إلّا مرضاته، والنصح لعباده؛

روي أنّ أبا بكرة دخل على معاوية رضي الله عنهما فقال: اتق الله يا معاوية، واعلم أنّك في كلّ يوم يخرج عنك، وفي كلّ ليلة تأتي عليك، لا تزداد من الدنيا إلّا بعداً، ومن الآخرة إلّا قرباً، وعلى أثرك طالب لا تفوته، وقد نصب لك علماً لا تجوزه، فما أسرع ما تبلغ العلم، وما أوشك ما يلحق بك الطالب، وإنّا وما نحن فيه زائل، وفي الذي نحن إليه صائرون باق، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبي حازم: عظني، فقال: اضطجع، ثمّ اجعل الموت عند رأسك، ثمّ أنظر إلى ما تحبّ أن يكون فيك تلك الساعة فخذ به الآن، وما تكره أن يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن، فلعلّ تلك الساعة قريبة.

ودخل أعرابيّ على سليمان بن عبد الملك فقال له: تكلم يا أعرابيّ، فقال: يا أمير المؤمنين إنّي مكلمك بكلام فاحتمله، وإن كرهته فإن وراءه ما تحبّ إن قبلته، فقال: يا أعرابيّ! إنّا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه، ولا نأمن غشّه، فكيف بمن نأمن غشّه، ونرجو نصحه؟ فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين إنّه قد تكنّفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله تعالى، ولم يخافوا الله فيك، حرب الآخرة، سلم الدنيا، فلا تأتمنهم على ما ائتمنك الله تعالى عليه، فإنّهم لم يألوا في

الأمانة تضييعاً، وفي الأمّة خسفاً وعسفاً، وأنت مسؤول عمّا اجترحوا، وليسوا بمسؤولين عمّا اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس غبناً من باع آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمان: يا أعرابيّ أما إنك قد سللت لسانك، وهو أقطع سيفيك. قال: أجل يا أمير المؤمنين، ولكن لك لا عليك.

ويصوّر الأديب الرافعيّ أهمّيّة العلماء في كيان الأمّة، وأثرهم في تقويم الراعي والرعيّة، وخطر انزلاقهم إلى الدنيا، وتفريطهم بأمانة العلم والدين فيقول:

(.. ما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردّه الشرع عليه؛ ولو نافق الدين لبطل أن يكون ديناً، ولو نافق العالم الدينيّ لكان كلّ منافق أشرف منه؛ فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود، والمنافق رجل مغطّى في حياته، ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطّى؛ فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة؛ وذاك يتّصل بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق فقد كذب؛ والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التبيين، فإذا نافق فقد كذب وغشّ وخان.

وما معنى العلماء بالشرع إلَّا أنّهم امتداد لعمل النبوّة في الناس دهراً بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجّتها، ويأخذون من أخلاقها، كما تأخذ المرآة النور، تحويه في نفسها، وتلقيه على غيرها، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهار جماله معاً.

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحقّ وعلماء السوء، وكلّهم آخذ من نور واحد لا يختلف؟ إنّ أولئك في أخلاقهم كاللوح من البلّور؛ يظهر النور نفسه فيه، ويظهر حقيقته البلّوريّة؛ وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب، يظهر النور حقيقته الخشبية لا غير!

وعالم السوء يفكّر في كتب الشريعة وحدها؛ فيسهل عليه أن يتأوّل ويحتال، ويغيّر ويبدّل، ويظهر ويخفي؛ ولكنّ العالم الحقّ يفكّر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة، فهو معه في كلّ حالة، يسأله: ماذا تفعل؟ وماذا تقول؟

والرجل الدينيّ لا تتحوّل أخلاقه ولا تتفاوت، ولا يجيء كلّ يوم من حوادث اليوم، فهو بأخلاقه كلّها، لا يكون مرّة ببعضها، ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا الذي لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه: هم يعطوني الدراهم والدنانير فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟

إنّ الدينار يا ولدي إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر، أو في بعضه دون بعضه، فهو زائف كلّه؛ وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوّة الهضم فيهم..

فينزلون بذلك منزلة البهائم؛ تقدم أعمالها لتأخذ بطونها، والبطن الآكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله..

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً فهو البلادة، أو رقّة فسمّها الضعف، أو محاسنة فقل: إنّها النفاق، أو سكوتاً عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها!

نحن يا ولدي مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحّح معنى آخر، فإذا أمرناهم، فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان، وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة أو طمسها أو تحريفها؛ فما بدّ أن يُقابَلوا من العلماء والصالحين بمن يرون لأنفسهم الحقّ في إنطاق هذه الكلمة وبيانها وتوضيحها؛ فإذا كان ذلك فههنا المعنى بإزاء المعنى؛ فلا خوف ولا مبالاة، ولا شأن للحياة والموت.

وإنما الشرّ كلّ الشرّ أن يتقدّم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها، فيكون باطلًا مزوّراً في صورة الحقّ؛ وههنا تكون الذات مع الذات، فيخشع الضعف أمام القوّة، ويذلّ الفقر بين يدي الغنى، وترجو الحياة لنفسها، وتخشى على نفسها؛ فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة تحاول أن تقارع السيف!

إنّ السلطان والحكّام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها، فإذا تفكّكت واحتاجت إلى مسامير دقّت فيها المسامير؛ وإذا انفتق الثوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذي فيها إذا هي لم تخُزّه؟ إنّ العالم الحقّ كالمسمار؛ له عمله ومهمّـه، فإذا أوجد المسمار لذاته دون عمله كفرت به كلّ خشبة)..

* * * * *

التسوُّر على دين الله بالجهل:

قبل أن يتجرّأ أحد على الفتوى في دين الله وإطلاق الأحكام لا بدّ له من أمور:

لا بدَّ له أوَّلاً: من العلم بنصوص الوحيين، علماً يؤهّله لهذا الأمر، وباب ذلك واسع متشعّب، دونه فناء الأعمار، وتعب الليل والنهار، والأخذ عن العلماء الأثبات..

ثمَّ لا بدَّ له ثانياً: من فهم نصوص الوحيين، ولا يتمّ ذلك إلَّا بالرجوع إلى فهم سلف الأمّة، من الأئمّة الكبار من الفقهاء والمحدّثين، والمفسّرين وشرّاح الحديث..

ثمَّ لا بدَّ له ثالثاً: من التمكّن في أصول الفقه ومناهج الأئمّة في الاستنباط، وفهم مقاصد التشريع، وحكمه وعلله.

ثمَّ لا بدَّ له رابعاً: من فهم الواقع وتحكيمه إلى نصوص الوحيين، لتقويم الواقع وترشيده.. لا تحكيم الواقع وأهواء الناس بنصوص الوحيين.

ومن لم يُحكِم هذه الخطوات، ويتمكّن منها، فهو ممّن يتطاول على دين الله تعالى، ويتسوّر حماه بجهله وأهوائه.. ولا يشفع للجاهل جهلُه، ولا يُعذَرُ به، ولا يعدّ بذلك من المجتهدين المأجورين.. بل يعدّ مرتكباً لكبيرة القول على الله بغير علم.

* * * * *

سؤال: كيف نجمع بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله..) وبين قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]؟؟

آية: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ جاءت في سياق النهي عن الخلط بين الإسلام دين الحقّ وبين غيره من العقائد والأديان..

وأمّا قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فهي آية عامّة في إقرار حرّيّة الناس فيما يعتقدون، وألَّا يكره أحد على ما لا يؤمن به، لأنّ الإكراه لا وزن له في أعمال الإنسان، وما يترتّب عليها من المسؤوليّة والجزاء.. ويستثنى من ذلك جزيرة العرب وساكنوها، أو المشركون عامّة، لما أنّهم لا دين لهم على الحقيقة.

هذا أرجح ما يميل إليه القلب في الجمع بين هذه النصوص. والله أعلم.

* * * * *

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٤].

يكتب بعض الناس مقالات أو منشورات يقلّل فيها من أهمّيّة حكم من الأحكام الشرعيّة، إذ يصف حالة مثاليّة لمجتمع خاصّ، نعلم وجودها في بعض البيئات المحافظة على قيمها وأخلاقيّاتها بصورة صارمة.. وفات هؤلاء أنّ الإسلام إنّما تقوم أحكامه وتدور على الأحوال العامّة للناس رجالاً ونساءً، كما تراعي سدّ ذرائع الفساد، وضبط العلاقات باجتناب أسباب الشرّ والفساد ومقدّماته حذر الوقوع في الكوارث الإنسانيّة، التي لا يمكن تداركها إن وقعت، وهي أشبه بالحريق الذي يأتي على الأخضر واليابس، ولا ينضبط بقانون عقل ولا أخلاق..

وكثيراً ما يبالغ بعض الناس في وصف هذه الصور المثاليّة المضيئة، وتسليط الأنوار عليها، وربّما أحاط بها، واكتنف جوانبها كثير من التجاوزات والمنزلقات التي تقع في غفلة عن الرقباء، فكانت أسباباً خفيّة لخراب البيوت ودمار الأسر.. ولم ينتبه لخطورتها أحد، أو غضّوا النظر عنها وتجاهلوها.. وخير لنا ألف مرّة أن نقف متأدّبين مع شرع ربّنا المطهّر الحكيم، من أن نفتح على أنفسنا ومجتمعاتنا أبواب الجحيم..

وجلّ ربّنا الذي يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، إذ يقول سبحانه: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير﴾ [المُلك: ١٤].

* * * * *

أمّتنا ربط الله نهضتها وحضارتها بالإسلام، هذا قدرها الشرعيّ والكونيّ، لتحمل إلى العالم رسالة ربّها، وتكون لها الصدارة والسيادة.. وعندما تخلّفت عن رسالة ربّها تخلّفت في كلّ شأن من شؤون حياتها..

* * * * *

﴿وَبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُون﴾ [الزُّمَر: ٤٧].

كلّ ينظر إلى الأمر من زاوية هواه وما يتمنّاه.. فهوَ حقيقة لا يرى الشيء، وإنّما يرى هواه في جانب منه.. أمّا المؤمن فينظر في كلّ جانب للأمور بنور الله، فيراها على حقيقتها، فلا تختلّ رؤيته، ولا تضطرب موازينه، ولا يفاجأ يوم العرض على ربّه بما لم يكن في حسبانه..

* * * * *

الظاهريّة الحديثة!

بلاؤنا الأكبر في هذا الزمن بتلك: «الظاهريّة الحديثة» التي هوت بأصحابها في أودية الجراءة على دين الله وعباده، وقادتهم إلى متاهات الضلال والتكفير، وما يتبع ذلك من استحلال الأموال والأعراض والدماء.. يقول أحد روّاد مدرستها:

«لا تحدثني عن أشخاص.... وما يدريني بما في قلوبهم... وما يدريك لعل الله سبحانه وتعالى غفر لهم... لا تتحدث في الغيب. ليكن حديثك علمياً...

خط رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم خطا بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما قال: ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣. مسند أحمد ٦: ١٩٩ حكم المحدث: إسناده صحيح].

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً﴾ [النساء: ١١٥].

وعلى هذا أخي تكون كل الطرق الصوفية قاطبة شرك أكبر.

وكل من قال عامداً متعمداً (أنا صوفي) نعتقد بشركه، كائناً من كان، سواء هزم الروس أم حالف اليهود».

هذا كلامه بحروفه، معلّقاً على بعض المنشورات.. فهل قادتنا ظاهريّة ابن حزم رحمه الله إلى هذه «الظاهريّة الحديثة»، القائمة على الجهل المدقع، والظلم الموجع، والتطاول على عباد الله بكلّ جراءة ووقاحة؟!

إذا كان الأمر كذلك، فليت العلماء أجمعوا بعد ابن حزم على التبرّء من ظاهريّته، ورفض منهجه جملةً وتفصيلاً، لا أن يحيي بعضهم تراث ابن حزم، ويسعى إلى نشره من منطلق إحياء التراث، ليقف منهجه مضاهياً مذاهب جماهير العلماء، الذين رفضوا بمنهج العلم الرشيد، والعقل الحصيف، «ظاهريّته المفرطة» التي عطّلت فقه الشريعة ومقاصدها العليا..

وكيلا يظنّ بي أنّي أحشر ظاهريّة ابن حزم رحمه الله على ما فيها في خانة هؤلاء الجهلة، المتطاولين على الشريعة وأئمّتها الأفذاد.. فإنّي أبرّئ ابن حزم من ظاهريّة هؤلاء، التي ليست من فقه الشريعة في ورد ولا صدر..

* * * * *

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُون﴾ [الزُّمَر: ٤٦].

كم غطّى بريق هامات الرجال، وتألّقهم في بعض الميادين على نور الحقّ الساطع، فتعامى الناس عن انحرافاتهم، ودافعوا عنهم، وبرّروها لهم!؟ ثمّ نزعم في كلّ مناسبة، ونقول باعتزاز: «إنّنا نعرف الرجال بالحقّ، ولا نعرف الحقّ بالرجال»!!

فهل نلتزم في مواقفنا هذا القول الذي أجمعت عليه الأمّة خلفاً عن سلف؟!

ولماذا نخرج عنه ونخالفه، دفاعاً عن رجال لا عصمة لهم، يصيبون ويخطئون؟! وما السرّ في ذلك؟!

إنّ السرّ في ذلك بتقديري يكمن في جانبين:

الأوّل: أنّ أكثر الناس يفتقدون الدقّة الموضوعيّة، والميزان العدل في نقد الرجال وتقويمهم، فلا يستطيعون العزل بين مواهب الرجال وقدراتهم، وتألّقهم في جانب أو جوانب، وبين مواقفهم واجتهاداتهم في شؤون علميّة شرعيّة، لا حقّ لهم أن يجتهدوا فيها، ولو سلّمنا لهم بحقّ الاجتهاد فقد أخطؤوا وما أصابوا.

والثاني: أنّ قضيّة تقويم الرجال إيجاباً أو سلباً، هي من «علم الجرح والتعديل»، الذي له رجاله المختصّون الثقات، وله موازينه الشرعيّة الدقيقة.

فهل يصحّ شرعاً أو عقلاً أن يهجم على ذلك من ليس من فرسان ميدانه، وبخاصّة فيما يتعلّق بشؤون شرعيّة، تترتّب عليها آثار بعيدة المدى؟!

وإنّها لظاهرة ضربت أطنابها في الفكر الإسلاميّ المعاصر منذ زمن، وكرّسها الاستعمار لبلاد المسلمين بمكره، وعمّقها ورعاها بتخطيطه، ثمّ كان منها هذا الفصام النكد بين عامّة الأمّة والنخبة المثقّفة خاصّة، وبين علمائها.. ثمّ كان من ذلك فوضى فقهيّة وفكريّة عارمة، لا تقف عند حدّ، اللّهُمَّ إلّا التضليل والتكفير، واستحلال الأعراض والدماء.. ثمّ نستنكر ما نرى ونشجبه، ونحارب الظلّ، والعودُ أعوجُ؟!

* * * * *

في كلّ علم ثوابت ومتغيّرات، وأصول وفروع.. وأصول الإسلام وثوابته لها الهيمنة على كلّ العلوم والفنون، ومن حقّها على المشتغلين بكلّ العلوم والفنون ألّا ينتهك شيء منها ولا يتجاوز.. كما أنّ من حقّ العلوم والفنون ألّا تفرض عليها الفروع والمتغيّرات الشرعيّة، وكأنّها أصول وثوابت..

ولا يحقّ لأحد أن يتكلّم في علم من العلوم قبل أن يعرف أصول الإسلام وثوابته، كما يعرف أصول ذلك العلم وثوابته، وإلّا فإنّه يشتطّ به القول والرأي عن الحقّ والصواب، ويأتي بالغرائب والطوامّ..

* * * * *

الناس في العلوم النظريّة على ثلاث مراتب:

عوامّ جهلة بها، من أهل المهن والصناعات، وربّما كان أحدهم مختصّاً في مهنته لطول الخبرة بها، وقد يفوق المختصّين بها، وهذا نادر في الناس.

ومثقّفون ثقافة عامّة في شؤون علميّة عديدة، وربّما كانوا على اختصاص في علم من العلوم، من حيث الدراسة، ولكنّهم ليسوا على تمكّن فيه، ولا يضارعون مُختصّاً في اختصاصه.

وأهل اختصاص متمكّنون في علم من العلوم منها، وربّما في أكثر من علم، وهم مرجع لمن دونهم فيه، ولا حقّ للعوامّ، وأهل الثقافة العامّة أن ينازعوا أهل العلم والاختصاص علمهم.

وإنّما نعني بأهل الاختصاص من يتابع اختصاصه ويخدمه، لا من يحصل على شهادة علميّة، ثمّ يركنها جانباً، وينام عليها كأن لم تكن، كما لا يخفى أنّ المختصّين في أيّ علم ليسوا سواء في ميدانهم.

وعلى أهل العلم والتخصّص أن يصبروا على العوامّ، وأهل الثقافة المحدودة، ويرفقوا في تعليمهم ورفع مستواهم، وبخاصّة إذا كان في أمور الدين، وما يكلّف الله تعالى به عباده.

* * * * *

القيم الإسلاميّة فيها الواجب، وفيها الفضل؛ فالواجب هو العدل، والفضل هو ما يتمثّل بالبرّ الزائد عن الواجب، والمعاشرة بالمعروف..

وأحكام الشريعة الواجبة والفاضلة لا يتعارض بعضها مع بعض، ولا يتصادم، ولا يتناقض إلَّا في فهم بعض الناس وممارساتهم.

وجانب الفضل والبرّ مجاله واسع، وهو لا يحدّ إلَّا بحدود الشرع؛ إلَّا يخرج عن أحكام الشريعة، أو يتجاوزها.

وعندما نرى حقّ البرّ للأمّ يطغى في سلوك بعض الناس على واجب الحقوق الزوجيّة، أو العكس، فهذا خلل منهم، وهو كثير في مجتمعاتنا، ويعود إلى عدّة أسباب متداخلة ببعضها، وأهمّها:

سوء الفهم لدين الله، أو قصور الفهم، أو سوء التربية، والخلل في شخصيّة الإنسان وتوازنه، أو انسياقه وراء العواطف والأهواء، أو سوء الخلق وضيق الصدر، ممّا يجعل الإنسان يضخّم الصغائر، ويعمى عن الفضائل، أو ضغط البيئة والثقافة المجتمعيّة، وغلبة العادات والتقاليد المجافية لهدي الإسلام.

* * * * *

إنّهم يأخذون من روايات الحديث ويفسّرونها بما يوافق أهوائهم، وما لم يوافق أهوائهم تعلّلوا بأدنى العلل لردّه، ويرفعون من شأن الروايات التاريخية السقيمة الساقطة، التي توافق أهواءهم، ويحاكمون روايات الحديث الثابتة إليها، ثمّ يدّعون الموضوعيّة في البحث، ويتبجّحون بها!

* * * * *

سوانح عن طلب العلم: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]

طالب العلم طالب الأدلّة الشرعيّة المعتبرة، وأبوها.. وابن خيمتها..

* * * * *

لا عبرة بدعوى الأخذ بالدليل، وإنّما العبرة بالعلم بمنازع الأئمّة في الاجتهاد، والقدرة العلميّة على الاستنباط من الدليل..

* * * * *

لا وزن لطالب العلم ما لم تتعب قدماه بالسعي وراء لقاء العلماء، والاغتراف من أدب الشيوخ.

* * * * *

من أهمّ صفات طالب العلم: الحرص على الوقت، وقطع العوائق، والتخفيف من العلائق..

* * * * *

طالب العلم كوارد البحر، كلّما ازداد وروداً زاد عطشاً..

* * * * *

لا ينصب في طلب العلم إلَّا من ذاق لذّته.

* * * * *

طلب العلم والتوسّع في المباحات ضدّان لا يجتمعان..

* * * * *

إنّ دعاوى العلم والمعرفة، وإطلاق المصطلحات والكلمات الفضفاضة، والجمل المنمّقة البرّاقة، والتعميمات الضبابيّة المريبة، والجراءة على الأحكام التشريعيّة، بلا سند من العلم الشرعيّ.. لن تستطيع النيل من نصاعة الحقّ وقوّة حجّته، ولكنّها تؤثّر في أولئك، الذين لا يسألون أهل الذكر، فيما يجهلون، ويشتبه عليهم من أمر دينهم، ويرضون لأنفسهم أن يتلقّوا دينهم عمّن هبّ ودبّ من الناس، فيكونون ضحاياها.. وإذا خرجوا عن هذا الأمر الإلهيّ، فلا عجب ممّا يؤول إليه أمرهم!

* * * * *

لا أعرف علماً يبني منهجيّة العقل المسلم في المرجعيّة والتوثيق، والفهم والاستنباط مثل أصول الفقه، وإنّي لأعجب غاية العجب من طالب علم مهما يكن تخصّصه أن يكون حظّه من أصول الفقه ضحلاً سطحيّاً..

* * * * *

أوضح تعريف للعلم وأبعده عن التعقيد، هو ما عرفه به (سارتون) بقوله: «العلم هو مجموعة معارف محقّقة ومنظّمة».

فبقوله: (معارف) خرجت المشاعر والخيالات، وبقوله: (محقّقة) خرجت النظريّات والفروض. وبقوله: (منظّمة) خرجت المعارف المبعثرة المتفرّقة.

* * * * *

في رمضان يتحدّثون عن ذكرى غزوة بدر، وفتح مكّة، ويحتفون بنزول القرآن، وفي شهر محرّم يتحدّثون عن ذكرى الهجرة..

وعلى مدار أشهر العام تقام احتفالات دينيّة متنوّعة: حفلة كبرى لتحفيظ القرآن، وحفلات للدورات الشرعيّة، وللأنشطة الصيفيّة، ويوزّع في ذلك كلّه الجوائز، والهدايا والحلوى، وتقام في بعضها موائد الطعام.. وتعقد المؤتمرات، لإحياء ذكرى بعض الأئمّة والزعماء والعظماء.. فإذا جاء شهر ربيع الأوّل، ساد الصمت، وعمّ الوجوم، وتجهّمت الوجوه، بل وعلا ضجيج النكير على كلّ من يعلن الفرح والاحتفال، وتعلن التهم بالابتداع لكلّ من يحتفل بمولد سيّد الأوّلين والآخرين..

فهل أنت بحاجة بعد ذلك أن تعرف حكم الاحتفال بمولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم؟! فإليك هذا البيان:

١ـ عليك أن تعلم أوّلاً أنّ قصارى ما يقال في هذه المسألة أنّها مسألة خلافيّة، كسائر مسائل الخلاف في الفروع بين العلماء، فهي لا ينكر فيها أوّلاً، ولا تعطى أكبر من حجمها.

٢ـ وثانياً ينبغي ألّا يثار حولها مثل هذا الضجيج المتجدّد، الذي لا معنى له إلّا إشغال الأمّة والعامّة بما يزيدها تشرذماً واختلافاً..

٣ـ وثالثاً: لا يجوز للعامّة وأشباههم من ذوي الثقافة المحدودة، غير المختصّين بالشريعة أن يخوضوا فيها بالقيل والقال، وإنّما عليهم أن يرجعوا إلى من يثقون بهم من أهل العلم، ويكفّوا عن إثارة الخلاف.

٤ـ القاعدة الأصوليّة تقول: «إنّ الترك لا يقوم حجّة ودليلاً على المنع» بل هو حجّة ودليل على الإباحة، بدليل قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: « إِنَّ اللهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ، فَلاَ تُضَيِّعُوهَا

وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ، فَلاَ تَنْتَهِكُوهَا وَحَدَّ حُدُوداً، فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ، فَلاَ تَبْحَثُوا عَنْهَا ». [رواه الدارقطنيّ في السنن ٥: ٣٢٦ عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رضي الله عنه].

٥ـ يخلط كثير من الناس، ومنهم بعض طلبة العلم بين العبادات المحضة التي هي توقيفيّة، وبين الأعمال المشروعة، التي تكون عبادة تبعاً لما يقترن بها من نيّة، ومنها الاحتفال بالمناسبات والذكريات الشرعيّة.

فالأولى لا بدّ لها من دليل خاصّ، أمّا الثانية فيكفيها أن تدخل تحت عموم المسكوت عنه، وما يشملها من أدلّة المشروعيّة العامّة.

* * * * *

تنوير البصائر
للمسلم المعاصر

أيّها الصاعد تماسك.. الحذر! الحذر! كلّما علوت أكثر، زاد عليك الخطر..

* * * * *

إنّك لن تستطيع النجاة بنفسك.. ضع يدك بيد إخوانك.. وإلّا سيطمع بك عدوّك.. وسيغمد خنجره في صدرك وظهرك.. ولن ينفعك ذكاؤك وفهمك.. الذئاب حولك كثير.. قطيع بعد قطيع..

* * * * *

بداية الإصلاح في أيّة أمّة تبدأ من إصلاح نظام تعليمها.. من ألفه إلى يائه.. ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

قال الله تعالى: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا، وأن الكافرين لا مولى لهم﴾.

* * * * *

لكلّ مادّة مفتاح لفهمها، فإذا لم يملك المعلّم مفتاح الفهم للمادّة، فلن يستطيع تفهيمها لطلاّبه.. فليعد على نفسه باللائمة.

* * * * *

الحقيقة الجوهريّة في أزمة التعليم هي حاجة المُعلّم إلى التعليم: موضوعاً وأسلوباً وتطويراً.. إذ فاقد الشيء لا يعطيه.. وكلّ إناء لا ينضح إلّا بما فيه..

* * * * *

المُعلّم الذي لا يستطيع توصيل المعلومة لطلاّبه.. يعاني هو قبلهم من فهم جوانبها والإحاطة بها.. اعتنوا بأطفالنا الأرض الطيّبة تعطكم أطيب الثمر..

* * * * *

أكرموا المُعلّم برفع مستواه ماديّاً ومعنويّاً، فإكرامه إكرام لأبنائكم، وإحسان إليهم.

* * * * *

كم يستخفّ الشباب بعلم الشيوخ وخبرتهم؟! ويستهين الشيوخ بالشباب؟! فتضيع ثروة الأمّة، وتتبدّد طاقاتها.. بين سجال الشباب والشيوخ..

إنّ الشيوخ ثروة من الخبرة، ولكن بلا قدرة، والشباب طاقة وقدرة، ولكن بلا خبرة، فإذا اجتمعت الخبرة والقدرة استحالت صحراء الحياة خضرة حلوة..

* * * * *

سرُّ نجاح المعلم

مَا مِنّا إلَّا وقد مرّ به في حياته معلّمون ناجحون، تركوا بصمَاتهم المميّزة على شخصيّته، ولا يزال يذكر توجيهاتهم التربوية، ونجاحهم في التعليم، ويشهد بتأثيرهم العميق في نفسه، وتأثّره بهم في أكثر من مجال من حياته..

وقد قلّبتُ الفكرَ والنظر مرّات ومرّات، وأنا أستعرض شخصيّة هؤلاء المعلّمين الناجحين ومواقفهم، وذكرياتي مع من عرفتهم شخَصيّاً، أو سمعت عنهم، أو قرأت.. وقد رأيت بعد البحث والنظر: أنّ سرّ نجاح هؤلاء وتألّقهم، والأمر المشترك الذي يجمع بينهم: (أنّهم كانوا يحبُّون مهنتهم حبّاً جمّاً، دفعهم إلى إتقان العلم وتحصيله، وإتقان فنّ توصيله إلى طلاّبهم بصورة مميَّزة محبَّبة)، والتفاني في عملهم إلى درجة يشهد بها القريب والبعيد، والصغير والكبير.

لقد كانوا يحبُّون مهنتهم حبّاً دفعهم إلى التفنُّن في أساليبهم التربويَّة، بصورة استحوذت على قلوب طلاّبهم، فلم يعد لها خيار عن حبّ العلم والاجتهاد في تحصيله..

حبّاً كان عنوان إخلاصهم وتضحيتهم، وتفانيهم في العطاء والبذل.. وكان عنوان استهانتهم بما يعترضهم من عقبات، أمام أداء رسالتهم على أحسن وجه وأتّمه..

كانوا يحبُّون مهنتهم حبّاً جعل كلّ من يعرفهم يشفق عليهم لما يرى من بذلهم واجتهادهم، ولو على حساب صحّتهم وراحتهم..

حبّاً انعكس على شخصيّتهم صقلاً وتهذيباً، فسما بهم عن سفساف الأمور، وجعلهم أسوةً حسنةً لطلّابهم، ولآبَاء طلّابهم، ولكلّ من يحيط بهم..

وأنّهم كانوا يحبّون طلّابهم من قلوبهم، وقد تجلّى ذلك في علاقتهم بطلّابهم، التي لم تَقِف عند المنهج المقرّر، ولا المادّة العلميّة، ولا ساعات الدراسة المعدودة.. وإنّما تجاوزت ذلك لتكون روحاً أبويّة فيّاضة بالحبّ والرحمة، والنصح والإخلاص، والحرص على النفع ودفع الضرّ.. فكان طلّابهم يذكرونهم كما يذكرون آباءهم أو أشدّ ذكراً.. ويستشهدون بكلامهم ومواقفهم في كلّ مناسبة، ويحنّون إلى لقيَاهم مهما تباعد العهد، وتَشعَّبَت بهم مَطالبُ الحياة.. ومنهم من تعلَّق بهم أكثر من أبويه.. لأنَّه وجد عندهم ما لم يجده عند أبويه..

فهل تملك أيّها المعلّم الفاضل مثل هذا الحبّ؟! وهل تجدُ علاقتك بطلّابك على مثل هذه الصورة؟! إنَّ الحبَّ كنز ثمين، ليس من الهيِّن على كلِّ أحد أن يملكه.. وإنَّه ليسير على من يسَّره الله عليه.. إنَّه يحتاج منك إلى تربية روحيَّة، تشرح الصدر، وتنير الفكر، وتجعلُ عملك التعليميّ عبادة تتقرّب بها إلى الله عزّ وجلّ، قبل أن يكون عملاً معتاداً، أو مهنةً هي باب من أبواب الرزق، ويحتاج منك إلى طاقة نفسيَّة، تدفعك إلى العطاء بغير حدود، وثقافة واسعة، لا تقف عند الجزئيّات والفروع، ولا اللحظة الحاضرة، والمظاهر العارضة، وإنَّما تستشرف المستقبل، وترمق الآفاق البعيدة..

إنّك بحاجة إلى أن تعدّ نفسك بالحبّ كلّ آن، وتستحضر حبّك قبل أن تخطو نحو طلّابك، وتشحذ به مهاراتك، كما تعدّ دروسك، وتنظّم دفتر تحضيرك، وكما تخدم مادّتك العلميّة بما تقدر عليه من الوسائل، وما يستجدّ من أساليب..

إنّك بحاجة إلى أن تعكف على سيرة المعلّم الأوّل، نبيّ الهدى والرحمة، صلوات ربّي وسلامه عليه، وتتعلّم منه كيف علّم أصحابه بالحبّ؟ وكيف قدّم لهم الحبّ قبل أن يعلّمهم؟ فأقبلوا على العلم بروح نهِمة وثّابة، فتعلَّموا دينهم، وتفقَّهوا فيه، وأبدعوا في حمل العلم وتعليمه، وبدَّدوا بنور العلم ظلمات الجاهليّة حيثما حلُّوا..

إنَّ المعلِّم الناجح بحقٍّ هو المعلِّم الذي يربِّي بالحبِّ، ويرى التعليمَ أحبَّ العمل إلى الله عز وجل، وأحبَّ العمل إليه.. إنّه يحبُّ طلّابه كما يحبُّ أولاده، ويخلص في تعليمهم، كما

يخلص في عبادة ربّه.. فهل ندرك هذا السرّ، ونعمل على إحيائه، لتسمو رسالة التعليم إلى مصافِّ عمل الأنبياء؟ إنَّا لنرجو ذلك ونتمنَّاه، والله وليُّ التوفيق والسداد.

* * * * *

لا تستطيع القضاء على عدوّك إلَّا بأمرين اثنين: قوّتك الذاتيّة المنظّمة، وضعفه المشتّت، وكلّ ضعف منه فهو رصيد يضاف إلى قوّتك، وعلى العكس أيضاً..

* * * * *

غاية الإعلام الكبرى: نقل الحقيقة.. وقول الحقيقة..

وجوهر الحقيقة: رفع مستوى ثقة الأمّة بحقّها وقيادتها، ووعيها بقضيّتها، وتحصينها من كيد العدوّ وكذبه، وخداعه وتضليله.. وشنّ الحرب النفسيّة على العدوّ لتوهين عزيمته، وكسر شوكته. فأين من يحمل الإعلام بهذه الروح؟! وأين الأثر الإيجابيّ للإعلام في الأمّة؟!

* * * * *

مِن فِقهِ الدعوة إلى الله:

عندما نجد إنساناً بعيداً عنّا، تائهاً من أوّل الطريق، نأخذ يده برفق ونمضي به من حيث هو، ولا نخاطبه حيث نحن واقفون وواصلون..

وعندما نجد إنساناً على طريق آخر محادّ لطريقنا، ويقذف أهل طريقنا بما شاء من التهم والشتائم، وافتراءات الجهل فلنصبر على أذاه، كصبر الطبيب على المريض، ولنشفق عليه، ولنترفّق به حتّى يقترب من طريقنا، ويجد شيئاً من لذّته وحلاوته، وعندها تتغيّر نظرته للأمُور، ويصحو عقله من أسر هواه، فيسهل إقناعه بما في الحقّ من خير وجمال، وسعادة وحسن مآل..

وعندما نجد من يسير في طريقنا ولكنّه يختلف معنا في بعض الأمور التي هي من فروع الأمور، فلن نجد حرجاً في التعامل معه، كأخ لنا في الطريق، ما يجمعنا معه أكثر ممّا يفرّقنا، ولن نرضى أن نتعامل معه كالخارج عن الطريق..

* * * * *

قطيعة العالم مع علماء عصره الصالحين هي الداء العضال في حياة العلماء وعلاقاتهم.. وكم أغرى الشيطان بها بحجج واهية، وأسباب أشدّ منها اعتلالاً.. ويفتعل أحدهم سبباً لها، فيفتعل غيره أسباباً، وهكذا حتَّى يتعمَّق الخلاف بينهم، وتبتعد شقّته، لتسري عدواها إلى الأتباع، وتتَّصل بالممات وما بعده.. وهنا تنتهي مهمَّة الشيطان مع هذا الفريق، لتبدأ مع فريق آخر.. والعجب أن ترى لسان حال كلّ واحد منهم وقاله يلهج بضرورة اجتماع الكلمة، وخطر الخلاف والفرقة!!

* * * * *

أيّها العاملون في الدعوة إلى الله حيث كنتم: عملكم ليس من نافلة العمل وفضوله.. عملكم يسدّ فريضة عن الأمّة مضيّعة، بل فرائض مؤكّدة.. ففتنة الشبهات والإلحاد تجتاح القلوب الغضّة الفتيّة، التي لم تحصّن بالإيمان.. وفتنة الشهوات على اختلافها وتنوّعها، قد اجتاحت الأمّة برجالها ونسائها، وشيبها قبل شبابها.. وفتنة التقنيّة المتطوّرة، والصور الساحرة الآسرة، التي فيها من الشرور ما لا يوصف، وفيها من أبواب الخير ما لا يروج عند المفتونين.. ويغلب شرّها أضعاف الخير فيها..

وأخطر ما في تلك الفتن أنّ الناس لا يدركون خطرها حتّى تدمّر حياتهم، وتهلك نفوسهم، وتحرق بيوتهم، وهم ينظرون عاجزين مستسلمين، وحينها يندمون ويتحسّرون، ولات ساعة مندم..

* * * * *

لكلّ عاقل حماقات كما هي لكلّ أحمق.. ولكنّ العاقل عندما يكتشف حماقته، وهي قليلة نادرة يسارع إلى تداركها، والتخلّص من آثارها، ولا يصرّ عليها.. فربّما لم يكتشفها أحد سواه..

أمّا الأحمق فلا يزال يصرّ عليها ويكابر، ويدافع عنها ويجادل، ويحاول أن يقنع العقلاء أنّ ما هو فيه قمّة العقل والرشد، حتّى يسقط في غيرها..

* * * * *

نحن أحوج ما نكون إلى إحياء ثقافة العَمَل الجمَاعِيّ، والتربية عليها..

في العَمَل الجماعي كفريق، يستفيد الإنسانُ العاقلُ ويفيد من علم الآخرين وخبرتهم، أكثر ممّا يستفاد منه.. ولو لم يشعر بذلك في اللحظة الحاضرة، وتصقل مواهبه، وتتحفّز طاقاته للإبداع والتألّق.. وهذا مجرّب مشهود، لا يماري به عاقل.. وما يدركه الإنسانُ بذلك يعدّ أضعافاً مضاعفة عمّا قرأ في الكتب، أو تلقّى على مقاعد الدرس..

في العَمَل الجمَاعِيّ توضع النفوس بثقافتها وأخلاقها، ودوافعها ونوازعها على محكّ الاختبار؛ فإمّا أن تنجح، وإمّا أن تسقط.

* * * * *

ـ جواباً عن سؤال: أيّ جماعة دعويّة هي الأقرب إلى الصواب والنجاح، والأحقّ بالاتّباع؟

هناك ستّة معايير للعمل الدعويّ الراشد:

١ـ القرب من منهج الرسول صلّى الله عليه وسلّم في الفهم والدعوة.

وأركان ذلك خمسة: الربانية. تربية: العقل والبدن والروح. الإخاء. التدرّج والمرحليّة. الأخذ بالأسباب؛ ومن أهمّها قوّة الضبط الداخليّ، وإحكام حلقاته وعلاقاته.

٢ـ قوّة التوثيق والإحكام لمنهج الدعوة وعلاقاتها، وذلك بالوصول إلى المعلومات الصحيحة، التي يبنى عليها القرار الصحيح.

٣ـ مدى النكاية في أهل الباطل، وعداوة الباطل الحقيقيّة لها.

٤ـ مدى فاعليّة المنهج وتأثيره وتحقيقه لثمراته على أرض الواقع.. كلّما زادت الطاقة زاد الإنتاج.

٥ـ شمول الدعوة لحقائق الدين ومبادئه وفق المنهج النبويّ، وإعطاء كلّ أمر حقّه.

٦ـ مدى الأخذ بالنقد الذاتيّ، لتقويم العمل وتطويره.

* * * * *

أصبح الحديث عن الدين، والكتابة في شأن من شؤونه بضاعة رائجة في هذه الأيّام، وباباً من أبواب الشهرة لمن يعاني من إخفاق في عمله، وعقدة نقص في الوصول إلى الشهرة، التي تفتح للإنسان بوهمه مغلق الأبواب..

وأمثال هؤلاء لا يتطلّبون حقّاً فأنت تحرص على دلالتهم عليه، وليس عندهم قدر من العلم الشرعيّ لتحاورهم بعلم يسلّمون به، فتصل معهم إلى نتيجة إيجابيّة.. فخير لك أن تعرض عنهم إعراض المؤمنين عن الجاهلين..

وإذا كنت محاوراً لهم ولا بدّ فليكن حوارك بهدف إقامة الحجّة عليهم، وإنقاذ من وراءهم، وتحصين عامّة المسلمين، ممّا يطلقون من جهل وضلال..

وما أكثر ما يسحر هؤلاء من بريق الألقاب وهالاتها الخادعة: الكاتب، والمفكّر، والباحث.. وهلمّ بهم جرّاً، نكراً وشرّاً! ولا يعلمون، ولا يعلم المفتونون بهم أنّ الشيطان يستجرّهم بقولهم على الله تعالى بغير علم إلى النار، والعياذ بالله تعالى.

* * * * *

عندما يضيع الواجب الحاضر فلا أمل للبحث عن الواجب المتوقّع، فضلاً عن معالجته.. ولا حظّ لأولئك الباحثين! إلَّا الرجوع «بخُفّي حُنين»..

* * * * *

الناس أبناء بيئاتهم بدرجات متفاوتة؛ فمنهم من يكون صورة طبق الأصل عن بيئته.. ومنهم من يكون متمرّداً على بيئته.. ومنهم من يأخذ منها ويدع.. ومنهم من يأخذ أسوأ ما ورث عن بيئته، ويزيد من السوء ما يزيد..

وكم رأيت ضغط البيئة على الناس يضعف أثر العلم والثقافة فيهم.. وكلّ ذلك ممّا يؤكّد على أهمّيّة التربية والتهذيب منذ الصغر..

* * * * *

كان الشيخ عيسى البيانوني رحمه الله يقول: لا تنظروا إلى من قال، وانظروا إلى ما قال.

* * * * *

موازين العقول تطيش سهامُها أمام نزوات العواطف.. وكم كان وراء نزوات العواطف من خيبات وخيبات!!

* * * * *

«الأصالة» في الفكر والسلوك لا تعني عند التافهين المتخلّفين إلّا الضعف والتخلّف.. وهي عند العقلاء الموهوبين الموفّقين تعني الكثير.. بدءاً من التحقّق بقول: «لا إله إلّا الله»، وانتهاءً بحضارة ربّانيّة المصدر والمنهج تقوم عليها، وتدعو إليها..

* * * * *

أعمال الرعيّة مرآة أعمال الراعي.. شئنا أم أبينا.. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُون﴾ [العنكبوت: ١٣]. إذ إنّ مسؤوليّة الراعي ثابتة مقرّرة، وما ذلك إلّا لعظيم تأثيره في الرعيّة وقوّة تغييره..

* * * * *

لا يموت ميّت، حتّى لو كان ملحداً، لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ولم تعرف له توبة ولا تراجع عن عقيدته ومنهجه إلّا وتتوالى له الشهادات أنّه كان كذا وكذا من أمر الدنيا.. ويتبرّع الناس له بالدعوات: أن ينال الفردوس الأعلى من الجنّة، فيخلط المُتكلّمون، ومنهم من يكون على حظّ من العلم والثقافة الإسلاميّة، بين ما كان عليه من حظّ ونجاح دنيويّ أدرك حظّه منه جاهاً وسمعة، أو مالاً وغنى، أو غير ذلك، وبين مصيره في الآخرة، الذي لا تكون النجاة فيه إلّا بالإيمان بالله واليوم الآخر.. وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «... أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ..»، (حديث صحيح، رواه الترمذي، والحاكم في المستدرك وغيرهما).

لقد هانت الجنّة على كثير من المسلمين، وكأنّها بضاعة كاسدة مطروحة على قارعة الطريق، تنتظر من يشفق على صاحبها فيشتريها بأقلّ ثمن، فيُحسَبُ محسناً، يؤجر ويشكَر.. هذا خلط عقديّ مرفوض أيّها الناس! بين موازين الدنيا وموازين الآخرة..

فعمُّ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو طالب دافع عنه أشدّ الدفاع، وَحمَاه منْ أَذى المشركين حتّى المَمات، وكانت له مواقفه لمَشهودة، ولكنّه لم ينطق بكلمة التوحيد، التي

تنجيه منَ الخلود في النار، ونزل فيه وفي أمثاله قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

* * * * *

نحن في زمن تعبّأ فيه ذاكرة الإنسان وتفرّغ في اليوم الواحد أكثر ممّا كانت تعبّأ وتفرّغ في شهور.. فلا عجب أن يشكو أكثر الناس من النسيان، وكل الذاكرة وخيانتها، والعاقل من استعان عليها بالقلم، وجدّد محتواها بتخزين ما ينفع، والبعد عن الاشتغال باللغو والفضول.

ولكن بم تعبّأ؟! هذا شأن آخر يحتاج إلى وقفة بل وقفات..

* * * * *

من بدهيات الكتابة أن تعرف لمن تكتب؟ وما الهدف الذي تريد الوصول إليه مما تكتب؟ وإلا فأنت تحرث في الماء أو تزرع في الهواء

* * * * *

خلاصة التاريخ وعبره: كيف نجحت أمّة من الأمم؟ ولماذا سقطت؟ وإلَّا فقيل وقال، ونقل أخبار سُمّار..

* * * * *

العقل والعاطفة رجلان تخوض بهما الأوحال، وتخطو بهما إلى الأمام، تتبادلان المُهمّة في كل خطوة.. فهل تستطيع الاستغناء عن إحداهما؟

* * * * *

القيادة:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّاسُ كَإِبِلٍ مِئَةٍ، لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً». رواه البخاري (٦٤٩٨)، ومسلم (٢٥٤٧).

الراحلة المقصودة هي القيادة، التي توحّد الصفّ، وتجمع الشمل، وتوظّف الإمكانات والطاقات، فلا يهدر شيء منها في غير سبيله..

والقيادة في هذا التمثيل النبويّ الرائع هي على رأس المئة، التي لا يخلو واحد من أفرادها عن النقص، والقيادة هي الكاملة المكمِّلة.. وحذف هذا الواحد يعني أن يبقى ما سواها أصفاراً لا قيمة لها..

وحذفها غير نقصها.. فما أصدق هذا التمثيل النبويّ على الواقع، وما أدقّه؟!

* * * * *

رسائل عاجلة:

أبعدت النجعة يا صاحبي! لا يزال لسانك يلوك بالغمز واللمز بأصحاب النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أما لك في واقع الأمَّة المهين ما يشغلك بشيء من العمل الإيجابيّ البناء، عن الجري وراء القرون الغابرة، تبحث عن الأخطاء والسقطات.. إنَّ هذا والله لهو الخذلان المبين.. فاشتغل بما ينفعك، تدخل أبواب السعادة والرضا عند ربِّك..

* * * * *

قالوا: «هذا هو اليوم العالمي للمرأة! معًا للمساواة بين الرجل والمرأة في جميع أنحاء العالم»..

الخداع لا يزال مستمرّاً، وعلى أشدّه.. والكذب لا يزال سيّد الموقف في كلّ ميدان.. والضغوط على مجتمعاتنا، وعلى المرأة خاصّة لا تزال على أشدّها، ولم تبلغ غايتها المرسومة.. والمرأة المسلمة في مجتمعاتنا لا تزال مغيّبة الوعي عمّا يراد بها.. شغلوها، وشغلت نفسها بسفساف الأمور عن الخطر المحدق بها.. ووراء تغييب وعيها ضياع الطفولة والأسرة.. إنّها فتنة الشهوات.. سلاح الإفساد الفتّاك المدمّر..

وأين نحن من ذلك كلّه؟! إنّه سؤال كبير يبحث عن الخطط العمليّة، ولا يقبل التصريحات العنتريّة!!

* * * * *

عندما يترحّم بعض من يظنّ به الوعي والفكر على عدوّ لدود من أعداء الإسلام الحاقدين، فهذا يعني أنّنا لا نزال نعاني تشويشاً في الفكر وتخبّطاً، وأزمة في الوعي حادّة، وميلاً عن نهج الاستقامة، لا بدّ له مِن توبة، ولا ينفع معه علم ولا فكر..

* * * * *

مخطئ أو خاطئ من ظنّ للحظة واحدة أنّ واحداً من الشرق أو الغرب يتحرّك بدافع إنسانيّ، مهما قلّ شأنه.. بعدما رأى القوم صحوة أمّة تريد أن تتحرّر..

* * * * *

إذا كان الحبّ الذي يباهون به ويفخرون هو الدنس والخيانة، والإثم والرذيلة، وأبناء الحرام، ومراتع الآثام.. فكيف برذائلهم التي لا يحصيها عدّ، ولا تقف عند حدّ، وتحميها قوانينهم، وتدافع عنها محاكمهم؟! ولا يزال كثير من أبنائنا يتغنّى بمظاهرها!؟ حضارة الفساد تنتظر الفناء!

* * * * *

أمر الله الشرعيّ وقدره الكونيّ لا ينفكّان..

يخرج الإنسان عن أمر الله، ويظنّ أنّه يصنع قدره.. فلا يبرح أن يجد نفسه مغلولاً بقدر الله وسننه.. فأين المفرّ؟! سيقولها بلسانه يوم القيامة.. ويقولها بحاله في الحياة الدنيا! ولكنَّه لا يتدبَّر حقيقتها!

* * * * *

أصبحت حركات الغرب لعبة وقحة مكشوفة، مردوا عليها واستطابوها، ضحاياها شعوبهم قبل شعوبنا.. ومع ذلك يلعبونها بكلّ إصرار وبرودة أعصاب، لأنّهم لا تهمّهم شعوبنا.. ولا يزالون يعتدّون بقوّتهم إلى درجة خداع شعوبهم، وفرض أكاذيبهم على الآخرين، ولا يرون من يقول لهم: لا.. بما تعنيه من تبعات..

* * * * *

في كلّ أمّة من الناس أهل مروءات، ومواقف إنسانيّة فذّة.. وفيها ساقطون عن المروءة، منحطّون عن الفطرة.. ولا يخرج عن ذلك من ورثوا الإسلام تقليداً، فلم يتربّوا على قيمه، ولم يتأدّبوا بآدابه.. فهل من العدل والإنصاف أن نقارن بين أحسن ما عند الآخرين من نماذج، وأسوأ ما عندنا؟! إنّه جلد الذات، والانبهار بالآخرين..

ربّما يكون إلى جوارك رجل نصرانيّ، حسن المعاملة لك، لطيف المعشر، يقدّم لك ولغيرك من الخدمات والمعروف ما لم تتصوّر.. وترى منه مساعدة المحتاجين، ومدّ يد العون للمساكين.. وربّما ترى الرجل من أبناء دينك، وقد تربطك به قرابة أو علائق وثيقة، ولكنّك لا ترى منه إلّا الظلم والعدوان، والإساءة للناس وأكل الأموال والحقوق، وتأييد الظالمين والوقوف معهم..

* * * * *

الأشاعرة من أهل السنّة والجماعة، بل هم السواد الأعظم من الأمّة، ولهم اجتهادات في فروع العقيدة، خالفوا فيها غيرهم، ولكنّها لا تعكّر صفو انتمائهم.

* * * * *

العَقلُ مَناطُ التكليف، وجَوهَرُ العَقل الحرّيّة، وجَوهَرُ الحرّيّة الكرامة الإنسانيّة. ولكنّ العقل محدود بقوانين الحسّ، ومحكوم بالواقع، والنصّ الشرعيّ مطلق غير محدود، ومنطق العَقل لا يقبل أن يحكم المحدود غير المحدود..

* * * * *

كلامك أيّها الكاتب إمّا أن يزرع الأمل، ويرعى الإيجابيّة والعمل، وهكذا كان كلام النبوّة.. وإمّا أن يضخّم المأساة، ويزيد في حجم المعاناة، ويكون جزءاً من المشكلة، يحتاج إلى حلّ.. فتكون عوناً لعدوّك من حيث لا تشعر..

* * * * *

كيد المرأة لا يذمّ دائماً، لأنّه إن كان لتحصيل حقّها، وهي المستضعفة في أكثر الأحوال، فهذا يمدح ولا يذمّ، وكأنّ الله تعالى عوّضها عن ضعفها الفطريّ بكيد نفسيّ تتغلّب به على عقول الرجال وتغلبهم.. وتلك من آيات الله سبحانه في خلقه..

* * * * *

الأولويات..

قال لي: أنت تتحدّث عن الأولويّات في كلّ مناسبة! ألا تلاحظ أنّك تبالغ في هذا الأمر؟!

فقلت له: أنا لا أبالغ قيد ذرّة، وأضرب لك مثلاً حسيّاً يتعلّق بالأولويّات في إنفاق المال..

كم في العالم الإسلاميّ من أغنياء أثرياء، تقدّر ثرواتهم بمئات الملايين إلى المليارات؟! ودافعو الزكاة منهم هل يدفعونها في أولويّات ما يجب من مصارفها؟! ولو فعلوا ذلك ألا تنتهي مشكلة الفقر في أمّة أحد أسباب تخلّفها هو الفقر؟!

وكم في هؤلاء الأغنياء الأثرياء من محسنين، يزيدون في إنفاقهم عن الزكاة، بإنفاق مئات الملايين؟! وربّما بلغت المليارات، ولكن أين ينفقونها؟! وهل يراعون الأولويّات في إنفاقهم؟!

سؤال عندي من أجوبته المأساويّة الكثير.. وكلّها يصبّ وللأسف في خانة السفه والعبث، أعرض لك منها أمثلة:

عشرات الملايين، بل المئات تنفق على تشييد المساجد وزخرفتها، وألوف القرى في بلاد المسلمين ليس فيها مسجد واحد..

عشرات الملايين تنفق سنويّاً، لتقديم النفقة لغير القادرين على الحجّ، وإنّما فرضه الله على من استطاع إليه سبيلاً..

إنّ الله تعالى جعل لنا عبراً في منهج دينه وتشريعه؛ إذ أقام صرحه المتين على الأولويّات في كلّ شأن، بدءاً من العقيدة، وانتهاءً بأدنى حكم فرعيّ من أحكام هذه الشريعة الغرّاء..

إنّه لا يفقه الأولويّات، ولا يحسن التعامل بها فيما يأتي ويذر إلَّا من فقه بحقّ دينه، وأخلص لله في مقاصده، وتجرّد لله عن أهوائه..

* * * * *

مجتهدون في اتّجاهات شتّى: منهم من تشغله توافه الأمور، ومنهم من تشغله معاليها.. منهم من يعمل فيما يحسن، ولو كان جهداً قليلاً ضئيلاً، ومنهم من يشتغل بما لا يحسن، فيسيء ويفسد أكثر ممّا يفيد ويصلح..

ولا يؤجر المرء باجتهاده إلَّا إذا كان الاجتهاد من أهله، وفي محلّه..

* * * * *

المشروعات في أوقاتها مباركة ميسّرة، فإذا تأخّرت تعسّرت، وربّما أخفقت، أو تعطّلت.

* * * * *

العظماء لا يتحدّثون عن منجزاتهم مهما كانت كبيرة، لأنّ أهدافهم وطموحاتهم لا تسمح لهم أن يقفوا لحظة عن مواصلة الجدّ والاجتهاد، ولأنّ الحديث عن المنجزات يحجب النفس عن نقد الأعمال وتطويرها.

* * * * *

الصوادّ الثلاثة عن سبيل الله: الصهيونية، والصليبية، والصفوية، ثلاثة أصلهم واحد، تقودهم سين المجهول عند أكثر الناس: «الماسونيّة».

وما أكثر العملاء الأغبياء! وما أكثر الخونة الأجراء! وما أكثر البلهاء! الذين يأبون قطرة من الوعي، تبصّرهم مواقع أقدامهم، وما يراد بهم، ويخطّط لهم..

* * * * *

في السياسة عندما لا تصل إلى مصلحتك من جولة واحدة تضطرّ للالتفاف من طرق بعيدة، قد يستنكرها كثير من مؤيّديك، ولكنّ من يعرف غايته لا يحيد عنها، ولا يلتفت لكلام الآخرين.

* * * * *

أكثر المشكلات تحلّ بالعقل والحيلة، ولا تزيدها حلول القوّة إلّا استعصاء وعناداً.. وقوّة العقل لا تقف أمامها قوّة البدن..

* * * * *

هل نحن ضحايا زخرف القول؟

مؤسّسة وليدة، تعلن عن طموحات كبيرة، وأمامها تحدّيات كثيرة، وهي لم تخط بعد خطواتها الأولى، تعلن عن نفسها، وتقف تتحدّث عن إنجازاتها المبهرة؟! وتجنّد من الإعلام ما يستنزف الكثير من مواردها.. متى نتعلّم العمل بصمت؟!

* * * * *

ما أحوج طالب العلم إلى أن يدقّق في مصدر معلوماته، ويتحرّى المصادر الموثوقة، لا العدوّة، ولا صاحبة الهوى المغرضة، لأنّه سيبني على معلوماته أحكاماً شرعيّة وفتاوى، وعندما يُضلَّل بمعلوماته، تخرج فتاواه ومواقفه ضَالّة مضلّة، وربّما كانت مدعاة للضحك وسخريّة الآخرين، لتناقضها الصارخ مع الواقع الذي لا يخفى على الكبير والصغير.. ولن يعذر عند الله إن لم يكن قد تحرّى، وبالغ في تحرّيه، واستوثق واستقصى، وبحث وسأل.. تقديراً لعظم موقعه ومسؤوليّته..

* * * * *

«الإيديولوجيا» الحقّة للتأثير في أيّ شعب هي العمل الصالح النافع، الذي يلبّي مطالبه، ويحقّق له الرفاهية، ويشعره بقرب الحاكم منه وعدله ونزاهته.. وعند ذلك يتخلّى الشعب عن «الإيديولوجيا» المخالفة، ويمشي وراء حاكمه بكلّ طواعية..

* * * * *

سياسة المسلم في جوهرها فنّ الممكن، في التفاعل مع الواقع وتوجيهه بما يخدم المصالح العامّة، ويدفع المفاسد، ويمنع استغلال الحقّ وتوظيفه لخدمة الباطل.

* * * * *

السياسيّ الناجح يعيد النظر في مواقفه كلّ يوم مئة مرّة، ولا يحسب أيّ حساب أو رهبة للتغيير والتبديل، ما دام يلتمس المصلحة ويسعى إليها، ولا يمسّ الثوابت، التي لا يجوز الخروج عنها.. بينما عامّة المؤيّدين له والمفتونين به، يصرّون على ما علموا عنه من موقف سابق، ولو كان جزئيّاً، ويدافعون عنه، وهو أوّل المخالفين لهم.. والمخالفون له ينتقدون أوّل ما ينتقدون أنّه غيّر رأيه..

* * * * *

نحن في خِضمّ من صراع الإرادات، والمطلوب الصبر والثبات، وممّا يعين على الصبر والثبات قوّة اليقين بأنّنا على الحقّ، وعدم الاستهانة بقوّة الخصم، وفهم طريقة تفكيره، وآليّات عمله، ونقاط قوّته وضعفه.

* * * * *

بناء الأمّة وميلاد النهضة لا بدّ فيه من مداد العلماء ودماء الشهداء، وما لم تتناغم مسيرة الطرفين فإنّ دماء الشهداء تضيع هدراً، ومداد العلماء يكون أشبه بصيحة في وادٍ، ولكن لا بدّ منها معذرة إلى ربّكم، ولعلّهم يتّقون..

* * * * *

لن تقاد أيّة سفينة أو طائرة إذا كان القائد يقود، ويعاكسه معاونه في كلّ خطوة.. فكيف إذا كان كلّ من في السفينة أو الطائرة أو الأسرة يعاكس القائد ويخالفه؟ النتيجة كارثيّة ولا شكّ.. أفلا يعتبر أولئك المخالفون المشاكسون؟!

* * * * *

لدينا ثوابت إسلاميّة في فهم السياسة الدوليّة، لا يمكن أن نتخلّى عنها لفهم الآخرين وأهوائهم، ومن الخطأ الفاضح أن يُستَجَرَّ طالب علم أو داعية إلى فهم الآخرين وتصوّراتهم وتحليلاتهم، ويتخلّى عن ثوابته.

* * * * *

ينبغي أن تفهم تصريحات العدوّ السياسيّة والإعلاميّة على أنّها رسائل مشفّرة بين العملاء وأربابهم، يخدع بها الآخرون ويخدّرون..

* * * * *

لا تنخدع بيد ناعمة، وراءها يد آثمة..

* * * * *

الإسلام دين الإنسانيّة الحقّة، ولكنّ الإنسانيّة بدون الإسلام لن تكون إلّا بهيميّة تائهة عن كلّ خير ورشد.. والواقع البشريّ أوضح دليل على ما نقول.. ومن مضى كذلك إلى آخرته فليطلب من إنسانيّته أن تنجيه بين يدي ربّه..

* * * * *

يبدو أنّنا نحتاج إلى عقود من السنين حتّى نتحرّر من نظرِيّة المؤامرة، بأسْلُوبها المفرط في السلبيّة، التي تشلّ طاقاتنا، وتعطّل فاعليّتنا، وتجعلنا نعيش في هوس من الرعب من أعدائنا.. وما كنت أصدّق أنّ عاقلاً تنطلي عليه الأكاذيب التافهة الرخيصة.. ولكنّنا لا نزال نستخفّ بسحر الإعلام الشيطانيّ الذي لن نتحرّر منه إلّا إذا تمكّنّا من فهم نظريّاته وأساليب

عمله، ولن نعي من ذلك شوطاً حتّى يكون سبق أشواطاً.. واستغلال العدوّ للثورة، ومحاولة حرفها وتوجيهها شيء، وأن تكون من صنعه، ومتحرّكة بأمره شيء آخر..

* * * * *

أكثر الحوار على وسائل التواصل الاجتماعيّ لا يصل بأصحابه إلى نتيجة، والسبب في ذلك يعود إلى أمرين: الأوّل: أنّ المتحاورين ليس لهم رأس يرجعون إليه، ويحسم بينهم الخلاف. والسبب الثاني: أنّ المتحاورين لا يحدّدون غالباً نقطة الحوار، الحوار، فيتشعّب بهم الحديث يمنة ويسرة، ويخرج بهم من نقطة جوهريّة، إلى فروع وفروع، حتّى ينسى الأصل الذي كان حوله وطبيعة وسائل التواصل تجرّئ الناس، فيسيء بعضهم الأدب مع محاوره، وكثيراً ما يستجرّ الناس إلى السباب والشتائم..

* * * * *

واحسرتا على أصحاب المواهب والكفايات عندما تخذلهم الهمم! فيبتعدون عن مواقع هم أولى بها من غيرهم بكثير..

* * * * *

كلّ الصراعات الإنسانيّة على اختلافها وتنوّعها، تقوم في حقيقتها على استهداف الإنسان للإنسان.. ولكنّ استهداف المسلم للإنسان الآخر هو لتحريره من استعباد الطواغيت، وهدايته لدين الله..

وعندما يحقّق المسلم للإنسان الآخر حرّيته وكرامته، فلا مطمع له بعد ذلك بشيء من دنياه، ولا يعتدي على شيء من حقوقه.. والتاريخ الإنسانيّ كلّه، بقديمه وحديثه يشهد بذلك، ويقدّم عليه الأدلّة القاطعة..

وأمّا استهداف غير المسلم للإنسان فهو لتعبيده له، ونزع حرّيّته وكرامته، وفي سبيل ذلك تستباح حقوقه وحرماته، ولا حدّ لقهره وإذلاله..

* * * * *

إذا لم يعترف المريض بمرضه..

ما الحيلةُ إذا لم يعترف المريض بمرضه؟!

وما الحيلةُ إذا اتَّهم طبيبه بالمرض، وادّعى لنفسه السلامة من العلل؟!

وما الحيلةُ إذا رأى المرض صحّة وعافية، ورأى العافية مرضاً؟!

وما الحيلةُ إذا أدمن على أسباب علله، وأبى أن يعترف بشيء منها؟!

وما الحيلةُ إذا اعترف بمرضه، وعرف كلَّ علله، وعرف دواءه، وأبى أن يقترب منه أو يتناوله؟!

وما الحيلةُ إذا لم يميّز بين عدوّه الذي يقدّم له السمّ والموت، وبين صديقه الناصح الأمين، الذي يخلص له النصح، ويقدّم له الدواء الناجع؟!

أيّها الطبيب المبتلى بمثل هذا المريض حسّاً ومعنى! أنت أمام حالة معقّدة مستعصية.. وهي حالات مرضيّة لا بدّ لك أن تتفنّن في علاجها.. فحاول مع مريضك ولا تيأس.. واجتهد في علاجه ولا تتلكّأ.. ثمّ سلّم الأمر لربّك.. فليس لك من الأمر شيء، و «ليس عليك هداهم..». واحذر أن تكون بمثل مرضه!

* * * * *

ما لم يأتِ المريض إلى الطبيب معترفاً بمرضه، راغباً بصدق بالتخلّص من دائه، فلا فائدة من حرص الطبيب واهتمامه..

فكيف إذا كان المريض يدّعي نفسه أنّه الطبيب، وأنّ الطبيب مريض، يجب عليه أن يتداوى عنده؟! فلا حلّ له إلَّا العيادات النفسيّة..

* * * * *

كلّ يوم أزداد قناعة أنّ فكر الغلوّ، وسلوكه المتطرف خنجر مسموم في خاصرة الأمّة، أضرّ بها أكثر من أعدائها، وهو يمتدّ من أعداء الإسلام على اختلاف مللهم، وتنوّع مصالحهم إلى جسد الأمّة في كلّ مكان، ولا يجد له وللأسف رجالاً على قدر المسؤوليّة، يقفون في وجهه بمنهج الله الربّانيّ، فيحبطون مؤامراته، ويكسرون شوكته، ويدفعون عن الأمّة كيده..

ما أعظم هذا الدين من دين! وما أضعف أهله من رجال! ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله.. اللّٰهُمَّ إنّا نستعينك على فساد فينا..

* * * * *

اصحوا من نومكم أيّها الناس! لستم أمام ملحد واحد يرفع عقيرته بالكفر بكُلّ صفاقة ووقاحة... فبذور الإلحاد تقتحم بيوتكم على البنين والبنات بغير استئذان، وأنتم غافلون غارّون..

الإيمان في هذا الزمن لا يكون وراثة ولا منحة مجّانيّة.. لا بدّ لكم من الغرس منذ الطفولة الأولى، والسهر على غرسكم والتعهُّد، حتّى يرسخ الغرس ويضرب جذوره.. وإلَّا فتوقّعوا من بنيكم كلّ داهية دهياء، وليس لأحَد من خصوصيّة أو استثناء.. وقد أعذر من أنذر..

* * * * *

قال لي: يكفيني علم الله تعالى بنيّتي وما في نفسي، ولا يهمّني قول فلان، وقول فلان..

فقلت له: كلام حقّ، ولكن أضف إليه على ألَّا تقف نفسك مواقف التهم.. فإنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم..

* * * * *

إشغال الأمّة بتوافه الأمور، وتبديد طاقاتها وإمكاناتها بالقيل والقال، حتّى يقع التفرّق والقطيعة والتدابر، بل يصل الأمر إلى الاحتراب واستحلال الدماء.. قضيّة خطّط لها أعداء الإسلام طويلاً، وكانت بدايتها في هذا العصر بتهديم الخلافة، ثمّ ما آل إليه أمر أكثر البلاد الإسلاميّة من تسلّط الاستعمار عليها.. واجتمعت على ذلك كلمة أمم الكفر على اختلاف اتّجاهاتها، واستدرجوا لها فئات من المسلمين، تحت شتّى اللافتات والعناوين، وبذلوا لها الأموال الطائلة.. فغرق في أوحالها ما لا يحصى من المشايخ وطلاّب العلم.. وكانت تهديماً لحصون الأمّة من داخلها، وضاع فيها أجيال من الناس، وهيّأت لأذناب الاستعمار أن

يتمكّنوا من رقاب العباد وثروات البلاد.. ولا يزال هذا المكر ساري المفعول بأساليب أشدّ خبثاً وتضليلاً.. فإلى متى نبقى سادرين مستغفلين؟

* * * * *

التفاوض مع العدوّ لا بدّ أن يصدر عن قيادة عليا جامعة، وإلّا كان نوعاً من العبث لا ثمرة له، وأوّل من يسخر منه العدوّ، ويستسخف صاحبه..

* * * * *

أعداؤنا يصطنعون المشكلة، التي لا وجود لها إلّا في خيالاتهم المريضة، وهي لا أصل لها ولا حقيقة، ولا يزالون ينفخون فيها، وينسجون حولها، حتّى يصدّقها السذّج من أبنائنا، فندخل معهم في دوّامة ما يريدون، من محاربة الأوهام، ودحض الأكاذيب.. أفليس التحصين من الشبهات هو أولى الواجبات؟!

* * * * *

لا تتواضع في موطن يجب عليك أن تعرف قدرك.. فتواضعك سيكون ذلّة لك، وانكساراً عن نصرة الحقّ..

* * * * *

قال الإمام أبو زرعة الرازيّ رحمه الله تعالى: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنّه زنديق، لأنّ الرسول عندنا حقّ، والقرآن حقّ، وإنّما أدى إلينا هذا القرآن والسنّة؛ أصحاب الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما يريد القوم أن يجرحوا في شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة). [رواه الخطيب في (الكفاية) ص ٤٩].

فكيف إذا كان يهدر السنّة كلّها، ويدّعي أنّه يكتفي بالقرآن، ويطعن بأئمّة الحديث، ويحاكم حديث النبيّ إلى عقله المأفون؟!!

فيا بؤس من كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خصمه يوم القيامة!!

* * * * *

مرجعيّة عليا

أهل السنّة الجماعة أمّة متماسكة من حيث عقيدتها وأصولها الشرعيّة، ولكنّها نظراً لكثرتها، وامتدادها الجغرافيّ، وتنوّعها الفكريّ، وما كتب عليها من الحرمان من القيادة السياسيّة الجامعة، فقد سهل على أعدائها أن يقتنصوا بعض النخب من قياداتها، ليحرفوهم عن منهج الحقّ، بتلبيسات ومخادعات، وبتدرّج مدروس بعناية، فزلّت بهم القدم فيما لا تحمد عقباه، وانساقوا وراء خطط خبيثة هدّامة.. فمنهم من صحا، وراجع نفسه وتراجع، ومنهم من أصرّ وتمادى، وبرّر سلوكه وتفلسف..

والعصمة من ذلك بعد عناية الله تعالى: أن تكون للعلماء مرجعيّة عليا متميّزة، ذات تخصّصات نوعيّة عديدة، تكون لها رؤيتها الحياديّة الموضوعيّة الجامعة، ومبادرتها العاجلة في تقويم المواقف الطارئة، وتقديم الرأي الناضج في الوقت المناسب، ولا يشذّ عن مشورتها أحد من طلاّب العلم، ولا يخرج عن مواقفها، ولا ينفرد برأيه.. ومِن أهمّ ثمرات هذه المرجعيّة العليا أنّها ترفع مستوى الوعي لدى المشايخ وطلاّب العلم، الذين خدع كثير منهم بأحابيل أعداء الإسلام وأساليبهم لقلّة وعيهم، وبساطة تفكيرهم..

* * * * *

من أجاد تدريب العقل على أصول المنطق ومنطق الأصول؛ بالسبر والتقسيم، وتمييز العلل، وتحديد الشروط والأسباب، وضوابط المنطق المسلّمة نما وعيه لفهم الوقائع والأحداث، وأحسن ربط الأسباب بالمسبَّبات، واكتشف ما خفي من الأسباب فلم يخدع بالمظاهر عن الحقائق، ولم يكن ألعوبة بأيدي العابثين المخادعين..

* * * * *

الإدارة وسيلة، والدعوة غاية، وليس من العدل أن تطغى الوسيلة على الغاية..

* * * * *

الإداريّ الناجح هو الذي يجعل النظام روحاً سارية في مرؤوسيه وعلاقاتهم، لا سيفاً مسلطاً على أعناقهم، وينفّذ بالحبّ ما يعجز النظام عن تنفيذه بالغصب..

* * * * *

الإدارة علم وفنّ يجعل من الضعف قوّةً، ومن القزم عملاقاً.. والاستبداد إفساد ممنهج، يجعل من العملاق قزماً.. فلماذا نذمّ الغرب بما يفعل بنا؟! وهم يتقنون فنّ تجميع الإمكانات والجهود، وحسن توظيفها، وهو لبّ الإدارة الناجحة.. ونحن نتقن فنّ تخريبها وتبديدها؟!

ولا نزال نظنّ أنّ الإدارة عندهم كما هي عندنا تسلّط واستبداد، وتبديد للجهود وإفساد!!

* * * * *

كثيراً ما تكون قوّة القويّ بضعفِ الضعيف، واجتماع القويّ، وتفرّق الضعيف.. ومع ذلك يتّهم الضعيف القويّ، ويلقي عليه باللوم.. وكأنّه يقول له: كن ضعيفاً مثلي، لتعيش مستضعفاً ذليلاً..

* * * * *

حبُّنا.. وحبهم

يحتفلون فيما يزعمون بعيد الحبّ!

ويدَّعون له ما يدَّعون.. ويخدعون به من يخدعون..

وأولى بهم أن يحتفلوا بصنم الكذب.. معبودهم المقدَّس.. إنَّه روح المادِّيَّة العفنة التي تتغلغل في كيانهم كلِّه.. إنَّه أكبر معبود لهم في ليلهم ونهارهم، وسرّهم وعلانيتهم، وحيثما اتّجهت ركائب ظلمهم وعدوانهم.. صنم الكذب.. صنم العهر المقدّس عند القوم.. ذلكم الصنم الذي طاشت عنده المبادئ والحقائق، واستعلنت في دهاليز مكره الأباطيل.. وكيف يعرف الغرب الحبّ الشريف، وهو لا يعرف معنى الشرف والغيرة والعرض؟! وهو غارق في أوحال الطين والحسّ والجنس..

عيد الحبّ.. كغيره من أعياد كثيرة، ليست إلَّا مواسم تجاريّة، لترويج البضائع، وتحقيق المزيد من الأرباح والمكاسب..

عيد الحبّ وأمثاله أيّام لتنفيس بقيّة من مشاعر إنسانيّة مكبوتة، يشكّل كبتها قلقاً نفسيّاً، وعذاباً داخليّاً، لإنسان الغرب، الذي لم تستطع حضارته المادّيّة أن تصنع له شيئاً من الأمن الداخليّ، والسكينة النفسيّة..

عيد الحبّ مهما اصطنعوا له من مناسبة مقدّسة، فليس إلَّا تفنّناً في تقديس الشهوة الأثيمة، والتغطية على فسادها العريض.. الذي ينخر كيانهم كلّه: من نطفة الأجنّة إلى طهر الطفولة المدنّسة، إلى أوكار العبادة المزعومة، المنافقة الأثيمة..

عيد الحبّ لا يلام عليه الغارقون في مستنقعات الإثم والرذيلة، المتخبّطون في ظلمات شتّى العبوديّات الأثيمة، ولا نحزن عليهم، لأنّ هذا ما ارتضوه لأنفسهم.. ولكنّنا نلوم أولئك اللاهثين خلف التفاهات.. الهاربين من النور إلى الظلمات، ومن الهداية إلى الضلالات.. ونحزن عليهم لما ارتضوا لأنفسهم من تيه وضياع..

فيا بؤس من استبدل جحيم الإثم والخيانة، والذلّ والمهانة بنعيم الحبّ الروحيّ الشريف، الذي يسمو على الدنيا وأغراضها، ويتّصل بنور الحقّ الأبديّ الخالد..

شتّان بين حبّنا وحبّهم! حبّنا أصيل خالد، موصول بحبل: ﴿يُحِبّهُم ويُحِبّونَه﴾، ﴿والذينَ آمنُوا أشدُّ حُبّاً للّه﴾، ﴿فَاتّبِعُوني يُحبِبكُمُ الله﴾..

وَحُبُّهُم أوهام وسراب، وخيانات وعذاب، وبؤس وانتحار.. يكفي المحبّ عندنا شرفاً أنَّه يحشر مع من أحبّ، ويشفع له الحبّ، ويرافق في الجنّة من أحبّ..

حقيقة حبّنا التي نعتزّ بها: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» رواه البخاري ١: ١٠ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عَنه.

وبشارة حبّنا التي نعتزّ بها: (إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَناً فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَناً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ) رواه البخاري ٤: ١٣٥ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنه.

* * * * *

الحقائق إمّا أن تكون قطعيّة الأحكام، أو ظنّيّة الأحكام، ومن معنى الظنّيّة أنّها نسبيّة الخطأ والصواب، فلا يجزم بصوابها، ولا بخطئها..

والأمور القطعيّة قليلة محدودة، لأنّها تمثّل الأصول العامّة الكبرى، التي تكون قطعيّة من كلّ جوانبها..

وأظنّ أنّ هذه الحقيقة لا يماري بها عاقل، ولكنّها من حيث الواقع يخالفها، ويخرج عنها كثير من الناس؛ سواء أكان في طرح آرائهم، أو في التعامل مع آراء الآخرين، فترى أحدهم يدافع عن رأيه واجتهاده، أو اجتهاد من يثق به، وكأنّه من القطعيّات، ولا يضع أيّ احتمال لخطئه، أو نسبيّة صوابه، والطرف الآخر يتعامل مع مخالفه كذلك، فلا يعدو أن يكون الحوار نوعاً من الجدل العقيم، الذي يوغر الصدور، ويفسد العلاقات، ولا يكون منه أيّة ثمرة.

* * * * *

عندما غُيِّبَ العقل غُيِّبَ الدين.. وعندما غُيِّبَ الدين.. غُيِّبَتِ الأخلاق.. وعندما غُيِّبَتِ الأخلاق.. أصبحَتِ الأمّة كالسائمة الهائمة على وجهها، لا تدري في أيّ الأودية هلاكها..

ومبدأ الأمر: الخروج عن الحنيفيّة الخالصة إلى عبوديّة شتّى الطواغيت: ﴿حُنَفَاء للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

* * * * *

ماذا يجب علينا لنصرة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم؟!

قبل الحديث عمّا يجب علينا لنصرة نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه، لا بدّ من استعراض أهمّ آثار حملات الإساءة الممنهجة، التي تظهر بين الحين والآخر، ويمكن أن نجملها في النقاط التالية:

ـ لا ينكر أنَّ لهذه الحملات دوراً في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، ولكنَّنا نقول بكلِّ أسف: إنّ ما يقوم به بعض أبناء المسلمين من تشويه صورة الإسلام والمسلمين بأخلاقهم وسلوكهم أسوأ بكثير ممَّا يفعله هؤلاء..

ويؤسفنا أن نقول أيضاً: إنّ لهذه الحملات صدى استجابة أصبحت ظاهرة في أكثر بلاد المسلمين، عند فئة من أبناء المسلمين، فتنت قلوبهم، وغرّبت عقولهم، وتلقَّفوا كلَّ كلمة تأتيهم من خلف البحار، فطاروا لها فرحاً، وراحوا يردّدونها، وينشرونها، ويباهون بها، في روايات لا أخلاقيّة هابطة، وكتابات منحطّة، وإبداعات أدبيّة مزعومة..

ـ تحدث حملات الإساءة ردّة فعل عكسيّة، من قبل نسبة من الناس في المجتمعات الغربيّة للتعرّف على الإسلام، ومعرفة حقيقته..

ويتجلّى ذلك في الإقبال الكبير على شراء كتب التعريف بالإسلام، وترجمات معاني القرآن، والإقبال على دراسة تعاليم الإسلام، وكثير منهم يدخلون فيه، بعدما يعرفون حقيقته ومزاياه..

وإنّنا لا نستبعد أبداً أن تكون هذه الإساءات ردّة فعل حاقدة، على ما يحقّقه الإسلام من اقتحام دينيّ وحضاريّ للمجتمعات الغربيّة، ففي كلّ يوم نسمع عن إسلام بعض العلماء والمفكّرين، ونجوم المجتمعات الغربيّة من مختلف فئات المجتمع، ونسمع شهادات هؤلاء عن الإسلام، وتصريحاتهم، ونقرأ ما تخطّه أقلامهم من كتب، في الدفاع عن الإسلام وبيان محاسنه..

والأمر الأعجب أن بعض هؤلاء المنصفين يشهدون شهادات عن الإسلام، ويكتبون كتباً بمدحه والثناء عليه، لا تقلّ حماسة عن كتابة دعاة الإسلام، وهم لم يزالوا على دينهم..

ـ ومنذ نزول القرآن فقد تحدّى أعداء هذا الدين بأنّهم لن ينالوا إلَّا عكس ما يقصدون من محاربة الإسلام والكيد له، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى

أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِلَّا تنصروه فقد نصره الله﴾ [التوبة: ٤٠] وهي نصوص مطلقة، كأنّها تقرّر سنّة إلهيّة، لا تقف في وجهها قوّة من قوى البشر..

وهذا الأمر ظاهر للعيان في كلّ موقف، منذ عهد الرسالة، وعلى مدار تاريخها، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

إنّ جهل المسلمين بدينهم، وسيرة نبيّهم صلّى الله عليه وسلم وشمائله، وما يترتّب على ذلك من اتّباع وحسن سلوك، هو الذي جرّأ أعداءهم عليهم، فالمعرفة الحقّة الصحيحة أساس كلّ سلوك سويّ راشد.. وقد نعى الله على المشركين أنّ معرفتهم الدقيقة بالنبيّ صلّى الله عليه وسلم لم تقدهم إلى الإيمان به واتّباعه، فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

ومن أهداف هذه الإساءات على المدى البعيد أن تشوّه شخصيّة النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وتضعف قوّة تأثير حياته في نفوس المسلمين، وأن تجرّأ ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب على التعامل مع النبيّ صلّى الله عليه وسلم كأنّه شخص من عامّة البشر، تحاكم سيرته وسنّته إلى آراء الناس وعقولهم..

وأمّا واجب الأمّة تجاه هذه الإساءات فهو ينطلق من واجب الأمّة تجاه نبيّها صلوات الله وسلامه عليه.

* * * * *

ما ينكر في الدين لا يمكن أن يبرّر بمنطق السياسة.. فلا تذهب عقولكم أيّها المعجبون بسياسة بعض السياسيّين عن منطق الحقّ والعدل.. وإلّا أصبحنا بلا مبادئ..

* * * * *

مَن يريد العمل في السياسة لا بدّ له من فقه وثقافة عالية في الإسلام: حقيقته، ومسيرة تاريخه، وواقعه وواقع أمّه وشعوبه..

وكذلك كلّ عالم أو شيخ إذا أراد العمل في الشأن العامّ أو السياسة لا بدّ له من ثقافة عالية في شؤون العصر، ومستجدّاته ومتغيّراته.. وإلَّا فإنّه يسيء ولا يحسن، ويفسد أكثر من أن يصلح..

* * * * *

الخصومة الدينيّة بين أصحاب دينين مختلفين، لا يمكن إلغاؤها إلَّا بتنازل طرف عن بعض مبادئه لحساب الطرف الآخر، أو دخوله طوعاً في دينه.. ولكن الخلاف الدينيّ بين أصحاب الدين الواحد ألا يمكن احتواؤه والوصول فيه إلى وفاق يجمع الطرفين، أو الأطراف المتنازعة على كلمة سواء؟

المتشدّدون من كلّ طرف يجيبون بالنفي المطلق، وكثيراً ما يرفعون درجة الخلاف بينهم وبين الآخرين، وكأنّه خلاف بين دينين متباينين..

* * * * *

العلم كالطعام إن لم يقدر عقل صاحبه على هضمه، ووعي أصوله وحقائقه أضرّه وأفسد حياته وحياة غيره.. وإنّ قليل العلم مع رجاحة العقل، وسداد الرأي والبصيرة خير وأنفع لصاحبه وللناس مِن كثرة العلم مع قلّة العقل والفهم..

فاكتشف عقل من تأخذ عنه قبل أن تقبل على علمه..

* * * * *

الذي يستجيبون لتحريض أعداء الإسلام على إخوانهم إنّما يدلّلون على علّة في دينهم، وتخلّف في علمهم وفهمهم، وانحطاط في وعيهم، وفساد في أخلاقهم.. ولا يرتجى منهم نصرة دين، ولا نفع أمّة..

* * * * *

أهل الفقه بالشريعة ومقاصدها لا يعرفون الأحكام السلبيّة، أو العجز عن تقديم البدائل الشرعيّة، لأنّ ذلك يعطّل إيجابيّة الشريعة وفاعليّتها..

* * * * *

أطلقت أمريكا منذ عقود من السنين مشروع «الإسلام الأمريكيّ»، وأطلقت روسيا الشيوعيَّة مشروع «بلشفة الإسلام»، وكلا المشروعين مؤدّاهما واحد: هو الكيد لدين الله الحقّ، ومحاولة تشويهه وتحريفه، والصدّ عن سبيله..

ودأب كلٌّ من الخنزير الأمريكيّ والدبّ الروسيّ على تنفيذ مشروعه بكلّ الوسائل والأساليب، وجنّدوا لذلك العملاء والأغبياء، وأقاموا مراكز البحوث والدراسات، وأنفقوا طائل الأموال.. وبعض طلبة العلم والمشتغلين بالدعوة إلى الله دخل بعلاقة غزل سخيفة، مع هؤلاء أو أولئك، فبدل أن يصطادهم بزعمه لنصرة دينه كان صيداً هزيلاً بسذاجة عقله، وفسالة رأيه..

ويخطئ من يظنّ أنّ هؤلاء يتخلّون عن ماضيهم أو يتنكّرون له..

* * * * *

استقبال " أوباما " بما استقبل به من شعوب العالم الثالث، يوم دخل " البيضة السوداء " ثمّ سيرته وسيرة إدارته القذرة، خلال ثماني سنين، يدلّنا على مدى غوغائيّة شعوبنا، بما فيها من نخب طفوليّة، تظنّ أنّها قمّة العقل والوعي.. يومها قلت للناس في مقالة: " رويدكم أيّها الناس.! تمهّلوا.. تريّثوا.. "، فكان الكلام في نظر كثير منهم باهتاً سخيفاً.. فلعلّ ما يمرّ بنا من عجاف السنين على أيدي عتاة المفسدين، يعلّمنا ما عجزت عقولنا عن وعيه.. وأن تتعلّم من كيسك خير لك من ألَّا تتعلّم.. يوم دخل منحوه جائزة نوبل للسلام.!! فماذا يستحقّ أن يمنح الآن؟!

* * * * *

نظريّة المؤامرة مسلّم بها، إذ هي واجب العدوّ بنظره في موقفه منّا..

ولكنّ السؤال الذي يتوجّه إلينا: هل تآمرُ العدوّ علينا يعفينا من مسؤوليّتنا، أو يبرّر تقصيرنا في الاستعداد، والأخذ بأسباب القوّة؟

* * * * *

مُنظّماتُ الأمم المتّحدة على اختلاف اهتماماتها، وتَنوّع مجالاتها، ومظاهرها الإنسانيّة البرّاقة إن هي إلَّا منظّمات وراءها الماسونيّة العالميّة، وما يتبعها من جيوش مجيّشة لحرب الإسلام والمسلمين، فلا يعوّل عليها خيراً إلَّا المغفّلون..

* * * * *

الصراع القوميّ صراع أشبه ما يكون بالدوران في حلقة مفرغة، ولكنّه دوران أمام مقصلة الموت، كلّما مرّ أمامها فريق من المتصارعين ذهبت برأسه، وهكذا حتّى يفنى أكثر المتصارعين، ويبقى بعض العقلاء، الذين يدركون غباء ما كانوا فيه..

* * * * *

﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ [الأنفال: ٤٢] في كلّ حركة من حركات الإنسَان يكتشف قصور نظره وفكره، وضعف يقينه، وسوء تدبيره.. فيلوم نفسه، ويندم على تقصيره، ثمّ يعود إلى سيرته.. ﴿وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨].

* * * * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ [الأحزاب: ٧٠].

إذا أردتّ أن تكون كلمتك مقبولة نافعة، ولها وقعها وتأثيرها.. فاحسب لها ألف حساب: في توقيتها، وحال من تقدّم له وظروفه، وتلكم هي الكلمة السديدة.. وإلَّا كان منها عكس ما تريد، وأفسدت ولم تصلح..

* * * * *

الانقلابات العسكرية صنعة أمريكيّة بامتياز، ابتدأت بها ميراثها للتركة الاستعماريّة من العجوز الشمطاء وتابعت سبيلها، وآتت ثمارها المُرّة بقهر الشعوب وإذلالهم بأيدي بعض أبنائهم، وفرض التبعيّة عليهم والظلم، كيلا تقوم لهم قائمة، ولا تقدّر لهم نهضة..

يقول الشاعر اليمنيّ محمّد محمود الزبيريّ رحمه الله تعالى:

والشعبُ لو كان حيّاً ما استخفّ به ... فرد ولا عاث فيه الظالمُ النهِمُ

ولم يأت العسكر بخير في العالم الثالث كلّه.. واسألوا التاريخ القريب، والواقع المعاصر.. فكلّ المنقلبين حرّكتهم أيد أجنبيّة، وهم جهلة أغبياء، خونة لأمّتهم، عملاء أجراء.. ومن الدين زنادقة مارقون، لا يرقبون في شعوبهم عهداً ولا ذمّة..

باختصار ومن الآخر: قوى الإجرام العالميّ لا ترضى للأنظمة الأخرى إلّا أن تكون تابعاً ذليلاً لها، وأيدي سوداء قذرة، تحرّكها كما تشاء، وتستخدمها في كبت شعوبها وإذلالها أوّل كلّ شيء.

* * * * *

دعونا نعمل بدأب، وننتقد بأدب، ولا نأبه بمن يصطاد في الماء العكر..

* * * * *

سياسة الغرب لا مكان فيها للخير والأخلاق، ولا لرجال كالملائكة..

وسياستنا عبادة لله، فلا عجب أن تصنع من البشر ملائكة، لأنّها مسكونة بتقوى الله، والدعوة إلى سبيله، وهدفها إعداد الإنسان الصالح المصلح..

سياستنا تصنع الرجال الأطهار.. وسياستهم فيها صفات الثعلب والحمار..

* * * * *

السياسيّ الألمعيّ الحاذق من يرمي حجراً واحداً، فينفع به صديقاً، ويخزي به عدوّاً، ويشغل فكره، ويحيّر عقله، فلا يدري عدوّه ما يريد بعمله، وبينما هو كذلك إذ بادر بإلقاء

حجر آخر، باتّجاه آخر، فردّ عدوّه المتربّص به من ساحة إلى أخرى، ومن شرق إلى غرب.. وهكذا! وهكذا! يلاعب عدوّه، ويلعب به..

* * * * *

ما حقيقة هذه المعركة؟!

نغمة متنامية هنا وهناك، وهي هجوم فئات في مجتمعاتنا على الإخوان المسلمين.. والسلفيّين والوهّابيّين، والمصطلحات مرشّحة للازدياد بلا حدود.. فما حقيقة هذه المعركة؟! وهل معركة هؤلاء حقّاً مع هذه الفئات؟ إنّ الحقيقة الواضحة تختفي خلف هذه الأكمة الظاهرة.. الحقيقة المجرّدة تقول: إنّ هؤلاء المهاجمين يرفضون الإسلام الحقّ الذي يحمل لواءه هؤلاء الدعاة الصادقون، الذين ينطلقون من الفهم الصحيح للإسلام، ويدعون إليه، ويحرصون على العمل به، بغضّ النظر عمّا أصابوا به أو أخطؤوا؛ لأنَّه شتَّان بين من يريد الحقَّ والخير فيخطئ، وبين من يسير أصلاً في طريق الخطأ والانحراف.. وهؤلاء المهاجمون ليسوا من الجراءة والصراحة ليفصحوا عن دواخلهم، لأنّهم يعلمون أنَّ الأمَّة ترفضهم، وتتجافى عنهم..

* * * * *

﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُون﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون﴾ [المائدة: ٤٧].

الآن الآن.. أفهم طرفاً من إعجاز هذه الآيات، التي حَكمَت ثلاثة أحكام في قضيّة واحدة في ظاهر الأمر، وهي الحكم بما أنزل الله، وقد ذهب المفسّرون في تأويلها، والجمع بين هذه الأحكام اتّجاهات متعدّدة.. وقد ألهمني الله قولاً، إن يكن صواباً، فذاك محض فضل الله وتوفيقه، وإن يكن غير ذلك فأبرأ إلى الله منه، ومن كلّ ما لا يرضيه..

فأقول وبالله التوفيق: إن الحكم بغير ما أنزل الله يتجمّع وراءه الكفر والظلم والفسق؛ فالكفر مَذبَحةُ الحقّ، والظلم مَذبَحةُ العدل وأداء الحقوق، والفسق مَذبَحةُ الخير والاستقامة.. وماذا بقي بعد ذلك من أنواع ظلم الإنسان لنفسه أو لغيره؟!

فعلى حسب إرادة الإنسان ونيّته في الحكم، وعلى حسب نوع العمل وعلاقته يمكن أن يوصف الحكم أنّه كفر أو ظلم أو فسق..

* * * * *

قسَّم العلامة المجاهد عبد الحميد بن باديس رحمه الله شَعبَه في زمانه إلى ثلاثة أقسام:

الأكثريّة وهي لا تفرق بين باريس وبين ابن باديس

وأقليّة واعية ألجمت بالوظائف والمناصب

ومعزولون وهم طبقة جمعيّة العلماء

وبعد قرابة قرن هل ما زلنا كما وصف ابن باديس مجتمعه؟!

ويقولون عما نعانيه: أنّى هذا؟! قل: هو من عند أنفسكم.

إنّ الأغلبيّة يغلب عليها الجهل والغوغائيّة والتبعيّة..

وهذا الكلام لا يعني غلبة التشاؤم، والقعود عن العمل، ولكنّه توصيف للواقع دقيق، ووعي بأحوال الناس عميق، كيلا يخدع الداعية بمظاهر الناس، فيبني عمله على الرمل والسراب..

* * * * *

إنّ الحراك الثقافيّ والاجتماعيَّ يزداد حدّة وتوتّراً كلّما تسارعت التغيّرات الاجتماعيّة والسياسيّة وتنوّعت، وهذا مَا يقتضي من رجال العلم والفكر والدعوة أن يلاحظوا تلك الحركة الثقافيّة الاجتماعيّة، ويواكبوا تلك التغيّرات، ويبيّنوا الموقف الشرعيّ منها، ويقدّموا للأمّة البدائل عمّا لا يتوافق مع الشرع منها، ولا يقفوا المواقف السلبيّة، التي تجعل تلك التغيّرات تفرض نفسها على الأمّة بثقَلها، فلا تستطيع عنها فكاكاً، ولا من أسرها إفلاتاً.. كما يجب إلَّا يكون موقفهم منها التبرير والاستسلام لها..

* * * * *

تقلّبات السياسة حدودها واسعة، حتّى وكأنّها لا حدود لها، ومن لم ينظر لها كذلك تضاربت آراؤه، والتبست عليه المواقف، واضطرب تقويمه لها، وعجز عن المبادرة بما يحقّق مصالحه، ويدفع عنه مكايد أعدائه.. وقد يزيد أعداءه، ويخسر أصدقاءه..

* * * * *

المشكلة في الشعوب، وفي القيادة.. ولكنّها في القيادة.. أكبر وأخطر!
فيا أيّها القادة والنخب في كلّ ميدان! قفوا مع أنفسكم وقفة صدق ومسؤوليّة وتغيير، يكون لها ما بعدها في حياتكم وحياة شعوبكم!

* * * * *

النازيّة أعتى روح جاهليّة عرفتها البشريّة، وإذا كان تجلّيها في الغرب على يد الألمان، فإنّ تجلّيها في الشرق على يد إيران..

* * * * *

الرأي الحكيم ثمرة الرؤية الموضوعيّة الشاملة، وعندما تكون الرؤية قاصرة أو مغرضة، فلن يكون الرأي حكيماً، مهما عرف عن صاحبه من حكمة سابقة..

* * * * *

الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي: " مجلس المين والإجرام، والرعب والإرهاب ": أمريكا، وروسيا، وبريطانيا، وفرنسا، والصين، تتشدق بالحريّة والديمقراطيّة، والدفاع عن حقوق الإنسان، وهي واغلة في دماء الشعوب والأمم، وبارعة في صناعة الموت والعملاء والاستبداد، وتاريخها فاضح مخز، حافل بكلّ المجازر والشرور والمآسي، والقبائح والفضائح، التي يسير بها كل غاد ورائح، لا مسكة لها من إنسانية ولا خلاق، فكم سرقت

من ثروات، وحصدت من أعناق، وفطمت بأسلحتها من أطفال قبل الفطام، وأحالت مدناً كانت عامرة بأهلها إلى يباب وحطام وركام، ورعت من حكام قتلة رعاع أقزام لئام. وستحيق بها سنة الله تعالى التي لا تتبدل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

* * * * *

الإعلام الغربيّ أبو الأكاذيب والخرافات وأمّها، وابن بجدتها.. وهو من عمل وعلّم كلّ المبادئ الميكافيلّيّة، التي يتربّى عليها الساسة الصغار، ويضيف إليها ويطوّرها الأشقياء الكبار.. ويقع ضحيّتها كلّ الأتباع الناعقين، والمغفّلين المفتونين..

فالعجب كلّ العجب أن نطير وراء كلّ كلمة أو تصريح: نقلاً، وتفسيراً، وتحليلاً، ونعلّق قلوبنا بها، ونعقد عليها آمالنا.. أليس ذلك دليلاً قلّة الوعي وسطحيّة التفكير؟!

* * * * *

ما الحريّة التي نفتقدها ونريدها؟

قال لي بعضهم: نحن نعيش حياتنا في أوطاننا، ولا نشعر أنّنا ينقصنا شيء، ممّا يكثر ضجيجكم عنه، ومطالبتكم به.. فما ضرورة ما تطالبون به من أمور لا أهمّيّة لها في حياتنا، ولا تستحقّ كلّ هذه التضحيات الجسام؟! إلّا أن تكونوا طلّاب حكم، ومنافسين على الرئاسة والمغانم، فلن يختلف حالكم عن غيركم!!

إنَّ للحريّة تجلّياتها الشاملة، التي لا تقوم الحياة الكريمة الطيّبة إلّا بها، ولا يتصوّر أمن حقيقيّ، واستقرار اجتماعيّ إلّا بتحقيقها..

الحريَّة هي الكرامة الإنسانيّة، بالفطرة التي خلقنا الله علينا، ومنّ علينا بها، وجعلها مناط تكليفنا وتشريفنا..

الحريَّة هي العدل، وإعطاء الحقوق بلا منّ ولا تأخير، وهي المُسَاواة أمام القانون، فلا نخاف ولا نعجز عن الدفاع عن حقوقنا، ولا تستلب لمن لا يستحقّها.

الحريّة هي أن نعبّر عن رأينا، ونحن لا نتلفّت يمنة ويسرة خوف المُخبر والرقيب، وأقلام المُفسدين في الأرض الأشقياء، المُتسلّقين على جماجم الأبرياء، وصور الأشلاء، وشلاّل الدماء..

ولكم بعد ذلك أن تصوّروا نموذجاً واحداً من استلاب الحريّة؛ كيف تكون الحياة بعده، وكيف تكون تداعياته على حياة الإنسان، ومستقبل الأوطان.. ثمّ احكموا بأنفسكم عن أهمّيّة الحرّيّة وآثار فقدها، وإجرام الجناة عليها..

وباختصار: إنّ من يصادر حرّيّة شعب هو أعدى أعدائه، وأخون الخونة للوطن.. ومن حقّ كلّ حرّ شريف أن يدافع عن شعبه ووطنه.. ولا عاش الخونة، ولا طابت حياة الأذلاّء..

* * * * *

مصيبتنا الكبرى، ومشكلتنا الأولى والأخيرة، والظاهرة والباطنة هي التفرّق في كيانات، كالجزر التي تفصل بينها مياه عميقة.. حتّى لو اجتمعنا صورة فنحن مختلفون حقيقة.. وهذا ما يفقدنا الفاعليّة، ويضرب علينا الشلل وكأنّنا غائبون عن الساحة، وبخاصّة عندما تواجهنا الاستحقاقات الكبيرة، وما أكثرها في هذه الأيّام!

وإنّ أقلّ القليل لو ملكنا ناصية الصدق مع النفس، ومع كياناتنا: أن نجتمع اجتماعاً حقيقيّاً، بشراكة واضحة، على مشروعات استراتيجيّة واحدة؛ كالإعلام، الذي يحقّقُ الحضور الشعبيّ والسياسيّ، والوعي الدينيّ، والتفاف الشعب حول العلماء،

وسئلت على الخاصّ: ما البداية؟ فقلت: تحقيق التوحيد، وصدق التوبة..

* * * * *

عندما قام الأمير شكيب أرسلان ١٨٦٩-١٩٤٦م بترجمة ونشر كتاب (حاضر العالم الإسلامي) لمؤلفه المستشرق الأمريكي لوثروب ستودارد والذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢١م، كان من ضمنه وثيقة هامة للوزير الروماني والمبعوث للآستانة ت ج دجوفارا تحت عنوان: التعصّب الأوروبي أم التعصّب الإسلامي؟ أصدرها بعد الحرب العالمية الأولى وفيها تحدث عن ١٠٠ مشروع تاريخي غربي لتقسيم تركيا أو الدولة العثمانية على مدار ٦٠٠ سنة. تلك المشاريع جاءت من باباوات وقساوسة وملوك وأمراء وبحّاثة وسياسيين ومفكّرين مختلفين، يمكن اختصار هدفهم العام بجملة واحدة وحيدة هي (كيف تنهزم تركيا)؟

أعتقد بأن وعي السوريين وجيرانهم الأتراك كفيل هذه المرة بتفويت الفرصة على مطابخ السياسة السريّة الدولية، الشعب السوري لم يطالب بتغيير العالم ولم يتسبب بثقب الأوزون وجلّ سقفه أن يسترد حرياته التي سحقت على مدار نصف قرن من طرف حكم

محلي تم فرضه عليهم من الخارج، كما أن (تركيا) هي بمثابة الأخ الأكبر للمسلمين نجاحها قوة لهم وفشلها ضعف لهم.

* * * * *

الأمّة التي تخرج من التاريخ لا تعود إليه.. إلَّا هذه الأمّة، تبقى جذوة الحقّ فيها كامنة، لا يراها إلَّا أهل البصائر، ولا يلتفّ حولها إلَّا السعداء..

* * * * *

الشعوب قوّة عنيدة لا يستهان بها، ولا تخضع إلَّا لقوّة عنيدة من حاكمها أقوى منها، وفرق كبير بين قويّ ظالم مستبدّ، وبين قويّ عادل حكيم.

* * * * *

يتّهموننا بظلم المَرأة.. ويَفترون على مجتمعنا أنّه مجتمع ذكوريّ، يتسلّط على المَرأة، ويهين المَرأة.. ويفتعلون صراعاً بين الرجل والمَرأة، لا وجود له إلَّا في عقولهم المُغرضة، ونفوسهم المَريضة.. بينما تعيش أكثر النساءِ في مجتَمعاتنا حُرّة سَيّدة، مُعزّزة مُكرّمة.. وهذا لا يَنفي وجود الحالات المُنكرة الشاذّة.. وتشحن نفوس كثير من النساء المُلتزمات ـ وللأسف، وبغير وعي ـ بهذه الترّهات والأباطيل

* * * * *

قصص طويلة كثيرة تكتب تحت عنوان: «هكذا يتنكّر الوطن لأبنائه ». والحقيقة أنّ الوطن لا يتنكّر، وإنّما المُغتصبون له الخائنون..

* * * * *

لا أرى من وصل إلى قتال المسلمين من أهله، مستحلاً دماءهم وأعراضهم وحرماتهم، تحت راية كفرة فجرة إلَّا مثلهم وصفاً وتحقيقاً، ولا عذر له بجهل، كما لا عذر له بإكراه، ولا يقبل بذلك تأويل ولا تبرير.. فعلام التورّع في أمر قد استبانت الحقائق فيه منذ سنوات،

حتّى وصلت البلاد إلى احتلال صريح من ملحد خبيث، ومنافق خسيس، وكلاهما لا يرقب في مؤمن إلّا ولا ذمّة..

* * * * *

يتساقط رجال أمام بريق الذهب والفضّة، والجاه الزائف، والشهوات الرخيصة.. ويهزأ رجل بكنوز الأرض كلّها، فلا يبيع داره في بيت المقدس بمئة مليون دولار، وبأموال الدنيا، لأنّه لا يخون دينه.. إنّه رجل بألف رجل.. بمثل هؤلاء يباهي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الأمم يوم القيامة.. وأيّ الرجل أفقه بدينه، وأتقى لربّه!؟

* * * * *

لم يعد الإعلام سلطة رابعة مستقلّة كما يدّعون.. هذا كلام نظريّ منفصم عن الواقع، تطويه الكتب، ويتغنّى به طلاب الجامعات، وإنّما هو قوّة بيد السلطة الظالمة، تقوم على الكذب والتضليل، ولا تسمح له تلك السلطة أن يخرج عن سياستها وهيمنتها لحظة واحدة.. وما ندر من ذلك فهو قيد التهميش، أو المُلاحقة والمُحاربة.

فكلّ ما يصدر عن الإعلام يحتاج إلى تمحيص دقيق، والأصل فيه الشكّ وعدم الصدق، ما لم يقم الدليل الظاهر، والحجّة البيّنة على خلاف ذلك..

* * * * *

هاجس الحروب الصليبيّة لا يزال يحرّك عقول الغرب، ويصنع ثقافتهم.. ولا تتجرّد عن ذلك أنظمتهم إلّا ظاهراً.. ومن يدافع عنهم إنّما يخادع نفسه.

* * * * *

ترتكز طموحات العولمة على ثلاثة مصادر للسيطرة: القوّة، والمال، والعلم والثقافة. ممّا يتيح ثلاثة أشكال للتوسّع والتسلّط:

التسلّط العسكريّ، والتسلّط الاقتصاديّ، والتسلّط الثقافي. وقد قدّمت الحضارة الإسلاميّة نموذجاً للإنسانيّة العالميّة فذّاً، لأنّه يعترف بالتنوع والخصوصية في إطار وحدة مرجعيّة مرنة، تراعي تنوّع الاتّجاهات العقديّة والثقافيّة.

* * * * *

في السياسة إذا أخذت ما يطلق من التصريحات مأخذ الكذب والهزل، وفكّرت في باطنه قبل ظاهره فأنت الواعي المحقّ.. وإلّا فأنت ضحيّة المكر مستغفل.

* * * * *

كلّ حقّ لا بدّ له من قوّة تحميه. الإسلام يقرّر هذه الحقيقة ويشرّعها، ويأمر أبناءه بإعداد القوّة بأنواعها، بما شرع من أحكام ووسائل وأساليب.. وأهل الباطل ينكرون استعمال القوّة ظاهراً، ويعملون عليها في العلن والخفاء، ويتّخذون لذلك أقذر الوسائل والأساليب.. للوقوف في وجه الحقّ، والصدّ عن سبيله.

* * * * *

في قيم العدل، وميزان الله تعالى: لا يقف الكمّ مهما تكاثر أمامَ النوع والكيف مطلقاً.. ومع ذلك فالناس على كلّ المستويات مولعون بالكمّ على حساب النوع والكيف، مهما يكن الكمّ قاصراً، ضعيف الأثر والثمرة.. لأنّهم يجدون من طلبة العلم وبعض الدعاة وأكثر الناس من يثني على ذلك ويزكّيه، ويحثّ عليه ويباركه..

والأمثلة على ذلك كثيرة متنوّعة، وخذ لك مثلاً: الاهتمام بالإكثار من تلاوة القرآن دون تدبّر، أو بحفظ المتون دون الفقه بها!!

وأسوأ افتتان بالكمِّ عندما يكون على حساب الحقِّ، وتهويناً له، وتسويقاً للضلال والانحراف، ومقياساً في نظر الإنسان لسلامة منهج المنحرفين..

ولقد ضرب الله لنا مثلاً بالمنافقين في اتّخاذهم مسجد الضرار! كفراً وصدّاً عن سبيله، وتفريقاً بين المؤمنين.. كما ضرب بالمشركين مثلاً بتستّرهم بسقاية الحاجّ، وعمارة المسجد الحرام، لتبرير شركهم بالله تعالى وكفرهم بدينه..

أفلا يتدبَّر أولئك المَفتونون هذين المثلين، ويصحِّحون أحكامهم ومواقفهم، ويعيدون النظر فيها، بما يحبُّ الله تعالى ويرضى، لا بما تملي الأهواء وتفسد؟!

* * * * *

شعوبنا المسلمة تمثّل الأمّة بدينها وثقافتها وقيمها، ولا تستطيع الأنظمة مهما بلغ من تسلّطها أن تفرض عليها القطيعة والعداوة.. نعم هي تؤثّر فيها بعض التأثير.. ولكنّه سرعان ما يضمحلّ ويزول.. وشواهد ذلك قديماً وحديثاً كثيرة لا تنكر..

دقائق الفِقه في الدين لا تلين قناتها إلَّا للراسخين في العلم.. إنّها كالعروس لا تجلى على غير محارمها..

الفِقه في الدين لا يعني مجرَّد الفَهم، ولو كان كذلك لكان الفقهاء ما أكثرهم في الناس، بل هو دقَّة الفَهم، وبعد النظر، بحيث يكون الفَهم ملكة في النفس، تميّز بها الفروق بين الأشباه والنظائر، وتدرك بها بالبداهة ما لا يعيه بالجهد ذو النظر الفاتر..

* * * * *

إنَّ العَمَل الإسلاميّ المُعاصر يسعى لتحقيق المَضمون التربويّ والدعويّ، على كلِّ المُستويات، وذلك بالأخذ بأرقى الأساليب الفنّيّة في الضبط والإدارة، لتحقيق الأهداف المرجوّة، وعلى حسب الإمكانات المتاحة، وبأسرع الأوقات..

هرم المُجتمع الإسلاميّ مُتميّز في بنائه، ومُتميّز في علاقاته، إذ قاعدته الإيمان والعمل الصالح، وعلاقاته تقوم على الأخوّة بين المؤمنين، والعدل والمساواة..

وهرم العَمَل الإسلاميّ مُتميّز في منهجه، ومُتميّز في أسلوب أدائه، وعلاقات أبنائه..

قاعدة مهمّة: صغيرة الكبير المُقتدى لا تزال تتوسّع وتتضخّم كلّما نزلت إلى الدوائر الأدنى الأوسع منها، حتّى تبلغ العامّة، وقد ضاعت الحدود بينها وبين الكبائر.. وكذلك ما استثني من الأصل، أو كان من قبيل الرخص..

* * * * *

الحرب العالميّة الثالثة هي حرب على الإسلام شاملة، ولكنّها بما يشبه الحرب بالوكالة، لأنّ الغرب اكتوى بحربين مدمّرتين، أكلت كلّ منهما الأخضر واليابس..

وعندما ظهرت الصحوة الإسلاميّة في شتّى بقاع الأرض، واقتحم الإسلام قلاع الحضارة الغربيّة من أطرافها أدرك الغرب حجم الخطر الداهم عليهم، فاصطلحوا على تناسي خلافاتهم، والتخطيط المشترك لمحاصرة العملاق قبل أن يخرج من عنق الزجاجة، فيعجزون عن الوقوف بوجهه إلّا بحرب ضروس، قد تستأصل شأفتهم.. فاستطاعوا بعملائهم الخونة، والجهلة الأغبياء، ممّن هم من داخل حصوننا، أن يقتلونا بأيدي بعض أبنائنا، ومن هنا كان المنافقون أخطر على الأمّة من الكافرين..

* * * * *

بكلّ وضوح قال بعض الساسة الألمان في مقابلته مع الإعلاميّ القدير الأستاذ أحمد منصور: الأخلاق لا مجال لها في السياسة الدوليّة.

إنّها كلمة مختصرة، عميقة معبّرة، تلخّص لنا سياسة الغرب، التي لا يزال كثير منّا يعوّل عليها أن تقف مواقف أخلاقيّة تنسجم مع الشعارات الإنسانيّة التي تعلنها، وتفسّر لنا كثيراً من المواقف، التي تخرج عنها بكلّ وقاحة وصفاقة، ومن أهمّ سياساتها أنّها تقوم على تقسيم المقسّم، وتجزيء المجزّأ.

* * * * *

الثورة لحظة هيجان عاطفيّ إنّ لم تضبط بقوّة الوعي تحوّلت إلى بركان يقتل أبناءه قبل أن يضرّ أعداءه..

* * * * *

الثالوث الذي راهن النظام عليه في جميع مراحل الثورة وأطوارها، ولا يزال يراهن:

ـ تفرّقنا إلى درجة التخوين والاقتتال، والتكفير واستحلال الدماء.

ـ واختراقنا من قبل عدوّنا، وانكشاف أسرارنا على كلّ المستويات.

ـ وخطابنا القاصر، الذي أضرّنا، وخدم عدوّنا، فوظّفه واستغلّه، وألّب به علينا العالم كلّه.

* * * * *

أمّة بلا وَعي تذوق المآسيَ بكلّ اتّجاه، وبغير حساب.

* * * * *

السياسة لعبة ذكاء مغرية، يتقنها الخبثاء، وتستجرُّ الطامحين، وينزلق إليها البسطاء.

السياسة في عالم اليوم هي فنّ خداع الشعوب، واختراع المصطلحات، والمباراة الكلاميّة بين المتنافسين..

* * * * *

العالم لا يحترم إلَّا الأقوياء.. والدور الدوليّ في السياسة كان ولا يزال هو الوقوف مع الأقوى، ولو كان ظالماً مجرماً.. لتحقيق المصالح والمكاسب، ولا يهمّه شيء من القيم والمَبادئ، وهي في تعامله مادّة استغلال وتسويق ليس إلَّا.. ومن ظنّ خلاف ذلك فهو مخدوع واهم.. فكيف لو كان الأقوى هو العميل برتبة امتياز؟!

* * * * *

للسياسة آليّات وأساليب للعمل فيها، وللدعوة آليّات وأساليب للعمل فيها، والمشكلة عندما يعمل الشيخ في السياسة بآليّات الدعوة وأساليبها، فيفشل في عمله السياسيّ، ويجرّ على دعوته شتّى المتاعب.. ولو كان متأهلاً للعمل السياسيّ لما عمل بغير أَدواته..

وأمّا السياسيّ فهو لا يقترف هذا الخطأ، بل لا يستطيعه.. لأنّه يعدّه من الفَشل في عمله السياسيّ المُحترف.. ولو تظاهر بالعَمل باسم الدين لكَانَ الأمر صوريّاً فحسب.

* * * * *

القرآن الكريم يفضح منهج الطغاة وسلوكهم في كلّ زمان ومكان، فكيف يُتصوّر أن تحميهم أحكام الشريعة، أو تدافع عنهم؟!

* * * * *

لا ينتظم أمر الأمّة، ولا يقوم بناؤها المحكم إلَّا على أربعة أركان: جهاد العلماء، وعدل الأمراء، وسخاء الأغنياء، ودعاء الأتقياء.

* * * * *

تقوم أنظمة الطغيان على أربعة أسس: مُصادرة حقّ الأمة في المشاركة المدنيّة والسياسيّة، ونَهبُ ثرواتها، وإشَاعةُ الظلم بين أبنائها، ومُوالاة أعدائها.

* * * * *

عقليّة الطغيان عندما تسيطر تُوَلّد طغاة، بعد موت أيّ طاغية.. فمن العبث أن تحارب طاغية، وآلة الطغيان تنتج وتصدّر..

* * * * *

«الصنم» صورة مزيّفة عن حقيقة.. لا بدّ لها أن تبهت وتهترئ، وتتهالك وتسقط.. ولكن: لا بدّ من عامل الزمان، ومن عمل الإنسان.. ومَن عاجَلَ الصورةَ أوّل ظهورها وزمانها فأراد إسقاطها كان كمن يكسر غصناً من أغصان الربيع الغضّة فسيظهر وراءه غصن آخر لا محالة، فتلك سنّة الله في خلقه، ولا يعاند سنّته إلَّا جاحد أو غبيّ..

* * * * *

لا مناص عن الصراع بين الحقّ والباطل، فتلك سنّة الله في الحياة، فإمّا أن تكون في رأس الحربة أم في ذيلها.. ولو كنت في ذيلها فلا مناص لك عن أن تعلن موقفك من الحقّ بلا مراوغة ولا مواربة.. وإذا كنت تعجز عن ذلك فاسكت، ولا تخذل أهل الحقّ بكلمة.. وإلَّا فإنّ قصارى ما يريد منك الباطل أن تقف فيما تزعم على الحياد.. وأيّ حياد مزعوم بين الحقّ والباطل؟!

* * * * *

لا تتعب نفسَك أيّها العاقل الحرّ في محاورة بعض المفتونين. فمهما حاولت فلن تجد منهم آذاناً صاغية، أو عقولاً واعية، ولن يقتنع معك من عميت بصيرته، واختلّت موازينه، فهو يسكت عن الظالم، ويتّهم المظلوم، ويدع المجرم، ويلوم الضحية، فإنّ مشكلة من يقف مع نظام الظلم والإجرام، ويردد تلك الأكاذيب والترّهات، ليست في المنطق والتفكير، إنّها في موت الضمير.. ومشكلة بعضهم ما تعرّض له من غسيل للمخّ على مدى عشرات السنين.. فانطمست بصيرته، وتشوّهت شخصيّته.. فهل تستطيع التأثير عليه في بضع أحاديث؟! ومع ذلك فمعذرة إلى ربّكم، ولعلّهم يتّقون.. وخير لنا أن نشتغل بإصلاح أنفسنا..

يقول فيلسوف الثورة الفرنسية، جان جاك روسو: (في المواقف الأخلاقية يمكن للمنطق أن يضلّلنا، الضمير وحده هو الذي يعصمنا من الخطأ).

وقبله قال شاعرنا:

يقضى على المرء في أيّام محنته ... حتّى يرى حَسناً ما ليس بالحسَنِ

* * * * *

تأبى الوقائع إلّا أن تفضح المنافقين، وتكشف خباياهم ودخائلهم، ولكنّ العجب كلّ العجب أن يبقى على ولائهم بعض المنسوبين إلى العلم والدين؟! ولكنّ الذَّنَب لا يَملكُ إلّا أن يتبع صاحبه، ويكون مع مؤخّرته..

* * * * *

إذا لم يقو العالِم على الوقوف بوجه الفتنة بقوّة وبصيرة، ولم يميّز بين الابتلاء والفتنة، فخير له أن يقعد ببيته، وليغلق عليه بابه..

* * * * *

ما هي الفتنة شرعاً؟

الفتنة شرعاً هي: قمع حريّات التديّن والاعتقاد، (بحجة المحافظة على الأمن، وإفشال مخطّطات العدوّ).

وأمّا تسمية جهاد الطغاة والظالمين والمنافقين، وما يترتب عليه من تضحيات في الأنفس والأموال فتنة.. فهذا تزييف للوعي، وافتراء على الدين، بل الجهاد شرعاً فريضة محكمة ماضية، والمَوت في سبيل ذلك شهادة.

* * * * *

والله إنّني ليحزنني أشدّ الحزن أن يبيع مسلم دينه وحياته بثمن بخس، وراء تبعيّة عمياء لمضلّلين متاجرين بدين الله، يتحرّكون بأيدي أعداء لدين الله وعباده.. فيخسر هؤلاء الجهلة الأغبياء دينهم ودنياهم، وتختم حياتهم بالقتل والإجرام!

وتلك من دواهي ضياع العلم، وتربّع الجهلة المنافقين على سدّة التوجيه والقيادة، فما أسهل أن يكونوا أدوات رخيصة بأيدي الأعداء!

* * * * *

كن إنساناً مُستخلفاً، ولا تكن عبداً للطاغوت مُتخلّفاً.

* * * * *

ليل الظلم عسعس، وصباح الحقّ تنفّس..

* * * * *

بين الرخاء والبلاء:

في أحوال السلامة والرخاء كان التنظير الدعويّ على أرقى المستويات: نحلّق في آفاق المثاليّة، ونسرح مع أحلام الأمنيات، التي تغمض العينين عن حمّى الابتلاء، وتتجاهل ما لا ترضى من العقبات والتحدّيات، كما تتجاهل الواقع.. وكان الواقع العمليّ على غاية العجز والتواضع، وضعف الحركة والأداء.

وعندما أقبل الابتلاء بألوان مآسيه وما فيه، وكشّر العدوّ عن أحقاده، وكان بالأمس القريب يتظاهر بالإيمان، ويتدثّر جلود الحملان.. أبى السارحون مع الأحلام أن يقرّوا بالحقائق، ويعترفوا بالواقع والوقائع، ويحسنوا قراءة المشهد بخفاياه، التي ظهرت، وبواطنه التي

استعلنت، وأصرّوا على قراءتهم المخدوعة، وأفكارهم المصنوعة، وأبوا إلَّا دفن الرؤوس في الرمال مهما يكن الواقع والمآل..

وكان قدر الله الغالب في فضح الباطل وكشف عواره هو القضاء الفصل، والحكم العدل، ليقف المثبّطون المخذّلون، والمفتونون المخدوعون حائرين عاجزين، وليعلموا أنّهم يراهنون على نظام فاسد، ويطرقون في حديد بارد، ويتكلّمون مع جسد هامد.

* * * * *

الطغاة أقزام ينتفشون كالطواويس، فأمّا أهل البصيرة من المؤمنين فإنّهم يرونهم على حقيقتهم، فلا يخدعون بهم، ولا يغترّون، مهما ملكوا من مظاهر القوّة وأسبابها.. وأمّا المنافقون، والمفتونون بالدنيا وزخرفها، فإنّهم يعظّمونهم، ويستكينون لهم، ويشركون بهم مع الله تعالى، في الحبّ والتقديس، واعتقاد النفع والضر.. وما هم فيه ليس إلَّا كَالتحَصُّنِ ببَيتِ العَنكَبُوتِ: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُون﴾ [العنكبوت: ٤١].

* * * * *

كنت كلّما قرأت تعبير الصدّ عن سبيل الله في القرآن ذهب وهمي إلى أنّ الآية تخصّ الكافرين، وتتحدّث عنهم.. ثمّ اكتشفت أنّ كثيراً ممّن يدّعي الإسلام لا يقلّ شرّاً في الصدّ عن سبيل الله عن صدّ الكافرين.. بقصد، أو بجهل وسوء عمل..

* * * * *

مناكفة الباطل لها لذّة تطيش أمامها كلّ مغريات الدنيا، لأنَّها تستحضر لذّة الرضوان، وعرف الجنان.

مُناكفة الباطل جزء لا يتجزّأ من الإيمان، وصدق الغيرة على دين الحقّ، وهو لبّ الدعوة إلى الله، وعين الحكمة المُقتبسة من هدي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وسيرته..

* * * * *

إذا كتب الابتلاء على أخيك بعدوان الظالمين، وافتراء المفترين، فإذا لم تقف معه بدافع نصرة المؤمن لأخيه المؤمن، فكن معه بدافع المروءة والإنسانيّة، كما كان بعض أهل الجاهليّة.. فإذا لم يكن منك هذا ولا ذاك، فأي مخلوق أنت؟!

* * * * *

ما أطول ألسنة البعض بالباطل!
وما أقصر أيديهم عن نصرة الحق!
وما أقعدهم عن فعل الخير!
ويحسبون أنهم مجاهدون.

* * * * *

صنّاعُ التغيير في المجتمعات هم الذين يُؤثّرُون ولا يَتأثّرُون، وعندهم من الإيمان واليقين بمبادئهم، والثقة بطريقهم ومنهجهم ما يجعلهم لا يبالون بكيد الباطل والضغوط المُجتمعيّة، التي يرونها بعينِ البصيرة هشّة موهومة، عاجزة مهينة، فأنّى لها أن تقف في وجه صاحب المَبدأ، الصادق في نصرة مبدأه؟!

* * * * *

يتمسّح بعض الناس «بالحكمة» فيما يقدّم من مداهنة في دينه، وتنازلات عن الحقّ، وما علم هؤلاء أنّ الحكمة ميزانها الحقّ هو المنهج النبويّ، لا أهواء الناس..

* * * * *

عجبتُ لمن كان رأساً في الحقّ كيف يرضى لنفسه أن يُصبحَ ذيلاً للباطل؟! ولكنّه عمى القلب وانتكاسه.. وكما قال الشاعر:

يقضى على المرء في أيّام محنته ... حتّى يرى حسناً ما ليس بالحسن

* * * * *

إلى أيتام شعبنا الكرام.. الذي تناثروا في كلّ مكان، كحبّات العقد في صحراء هذه المدنيّة الزائفة، التي لا تعرف إلَّا الحقد والمكر، وظلم الإنسان للإنسان.. أبشّركم أيّها الأحبّة الأطهار أنّ لكم غداً قريباً، مشرقاً باسماً.. ينتصر لكم فيه العدل الإلهيّ على الظلم والجريمة المنظّمة، التي حرمتكم من أبسط حقّ لكم في النشأة الكريمة..

ولكم من مشكاة قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [الضُّحى: ٦]، نوراً لا يخبو، وأملاً لا يبعد، ومعيناً لا ينضب.. وإنّ غداً لناظره قريب.

* * * * *

آيات الله في الزمن:

آيات الله في الزمن كثيرة، منها أنّه عدوّ الظالم المبطل، وصديق المظلوم المحقّ.. فكلّما تقلّب الليل والنهار، ومرّت الساعات والأيّام دنت ساعة القصاص من الظالم، والانتصار للمظلوم المقهور.. أفليس في ذلك عبرة للظالم المبطل لو كان يتدبّر ويعقل؟! أن يكفّ عن ظلمه، ويسارع إلى ردّ الحقّ إلى المظلوم؟!

* * * * *

لا أحبّ نشر ما يزرع اليأس، ويروّج الإحباط.. ففي الأمّة خير كثير، وفي المُجاهدين المُرابطين من يجدد حياة الأوّلين.

* * * * *

﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النور: ١١].

عندما يكون الإجرام حبيس نفس المجرم فإنّه يكون بمأمن من كشف خداعه، وافتضاح أمره، ونزول العقوبة به، ويكون كالقنبلة الموقوتة، مهيّئاً للانفجار بأيّة لحظة، أفليس انفجاره إذن هو السبيل لدماره، وتخلّص الناس من شرّه، ولو أصابهم من شرّه ما أصابهم.. فلاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم..

* * * * *

أصبحت الأمّة بين مندفع أهوج، هو جزء من نكبتها وبلائها، يزيد الأمّة مآسي على مآسيها، وبين سلبيّ متفرّج، كأنّه شامت يتشفّى، وبين فئة موتى الضمائر، ليسوا من بني البشر، أبوا إلّا أن يكونوا يداً للطاغوت، ونعلاً في رجله.. لينالوا شيئاً من فتات مغانمه.. وبين قلّة قليلة، عاقلة غيورة، تتقدّم الصفوف، لتواسي النفوس، وتداوي الجراح، وتخفّف ما تستطيع من المعاناة، وتقف في وجه المزيد من المآسي والنكبات.. إنّها لا ترى عذراً لها، ولا يهون عليها أن تقف قاصرة عاجزة، سلبيّة غير مبالية، وكأنّها ليست من هذه الأمّة، ولا يهمّها شأنها..

* * * * *

درس من الهجرة النبويّة!

بعد الهجرة النبويّة، وخروج المهاجرين أفراداً وأسراً من مكّة المكرّمة لا شكّ أنّه حدث شرخ اجتماعيّ وسكّانيّ بصورة سلبيّة بنظر المشركين في مكّة المكرّمة.. كما حدث ذلك بصورة إيجابيّة في المدينة المنوّرة..

فلو تصوّرنا أنّ وساطة حكيمة خيّرة، قامت بين الطرفين، فجاءت بعد الهجرة النبويّة، وقد أرّقها هذا الحال فطلبت من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن عودوا إلى مكّة المكرّمة، ونحن نضمن لكم العيش بحرّيّة وأمان بين أهلكم وعشيرتكم، ونتفاهم لكم مع زعمائها ألّا ينالكم منهم أيّ أذىً..

فماذا نتصوَّر أن يكون الجواب النبويُّ، من وجهة سياسيَّة بحتة، وليس افتئاتاً على مقام النبوَّة وقدسيَّة الوحي؟!

الذي أتصوّره أنّ الجواب النبويّ سيكون قاطع الرفض، لسبب ظاهر ينطلق من استعلاء الحقّ على الباطل وهو: أنّ الخطوة النوعيّة، التي يخطوها الحقّ في صراعه مع الباطل يعدّ التراجع عنها انتكاساً عن الحقّ، وانتصاراً للباطل.. وأنّ سنّة الله في الحياة أنّ عجلة التاريخ لا تعود إلى الوراء، وأنّ المارد إذا خرج من قمقمه (وهو كناية عن عمل قانون التغيير إذا تحقّقت شروطه) فلن يعود إليه أبداً..

هذا، والمسلمون كانوا مستضعفين، وطغاة مكّة لم يقتلوا من المؤمنين تحت القهر والتعذيب عدداً يذكر.. فقيسوا حال الثورة السوريّة على هذا المثل، واعرفوا لماذا يرفض الشعب

السوريّ الحوار مع هذا الطاغوت، وبقاءه في الحكم، ولو ليوم واحد.. واعرفوا حجم المؤامرة الدوليّة على هذه الثورة..

* * * * *

رسائل عاجلة:

إلى أهل الوفاء! وما أقلّهم!!؟

أيّها الحرّ الأبيّ، السريّ الوفيّ! القائم لله بحجّته! المقدم في نصرة الحقّ غير هيّاب ولا وجل! لا تحزن.. لا تحزن.. وليس لمثلك أن يحزن.. وأنت أحقّ مَن يقال له كما قيل لنبيّك صلّى الله عليه وسلّم أوّل بعثته: «كلّا! والله لا يخزيك الله أبداً»..

نعم! لا يخزيك الله مجاهداً ومهاجراً، حيّاً وميتاً، لأنّك قمت لله، وتحرّكت لنصرة دين الله، وبذلت وأوذيت، وصبرت وضحّيت، وما كان الله ليضيع إيمانكم.. إنّ الله بالناس لرؤوف رحيم.. الأرض كلّها لا تعدو ذرّة في ملك الله..

وإنّ أعظم كلمة عرفتها البشريّة في نصرة الحقّ وتأييده، والثبات عليه والتضحية في سبيله هي قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: (يَا عَمّ! وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ الله أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُه).

ومثلها قوله صلّى الله عليه وسلّم يوم الحديبية: (.. وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ الله أَمْرَهُ..).

بقتلي لن يموت الحقّ، بل خابت مساعيكم..

وموتي في سبيل الله يحييني ويفنيكم..

* * * * *

عندما يحمل رجل لواء الحقّ من كلّ جوانبه، بصدق همّته، وقوّة عزيمته، وتتمثّل به محبّة الحقّ وعزّته، وتضحيته وجهاده، وصبره وثباته، فلن يهزمه الباطل، مهما أوتي من مكر الطغيان، وقوّة السلطان، وهذا من معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً..﴾ [النحل: ١٢٠].

* * * * *

أنظمَة الظلم والطغيان:

صنع الاستعمار عَلى عينه أَقذرَ مَنظومة أنظمَة، عَرفتهَا المنطقَة العربيّة، بل عرفتها الإنسانيّة، غذاها برجسه وكيده، ووكل إليها مَا عَجز عن فعله، ولعب بها وبمقدّرات شعوبها كَما يلعب الطفل بدميته.. حتّى طفّ الكيل، وطما السيل، فثارت الشعوب المقهورة تحت وطأة هذه الأنظمَة المجرمة، التي لا بدّ أن تطالها سنّة الله في خلقه.. ثمّ يستنكر بعض الناس عَلى الشعوب أن تثور عَلى جلاّديها.. ويفرض لها بعضهم باسم الدين شرعيّة هي لا تبالي بها!

* * * * *

إنّ حمل السلاح مسؤولية كبيرة.. وأمانة عظيمة، لا بدّ أن تسبقها بمراحل طويلة: تربية إيمانيّة عميقة، على فهم حقيقة الجهاد ومقاصده، وشروطه وآدابه، وعلى الطاعة بالمعروف، ثمّ يسبقها قبل التدريب الفنّيّ تدريب جسديّ ونفسيّ على النظام والانضباط، كيلا يتحوّل المجاهد إلى مجرم قاتل..

* * * * *

لا يخامرني أدنى شكّ أنّ دعوة الحق ماضية في طريقها، بقدر الله الذي كتب لها مسيرها، ليطهّر رجالها، ويصطفي شهداءها، ويفضح منافقيها، ويعذّب الظالمين المجرمين بأيدي المؤمنين المجاهدين، ولكنّ المسيرة المتخبّطة المتعثّرة أثبتت أنّ المخاض عسير، والطريق شاقّ طويل، وأنّ مخلّفات الباطل وزيفه لا بدّ أن تقتلع بقوّة، وتلقى في المزابل، قبل أن يمكّن للحقّ، وتعلو رايته..

ومهما مكر الماكرون، وتآمر المتآمرون فالله: ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

* * * * *

من أوقد نار البغي إن لم يحترق بلهبها اختنق بدخانها..

* * * * *

الثورة في الأرض لا بدّ لها أن تقترن بثورة في التفكير والتخطيط، والحشد والإدارة، والتوظيف والمتابعة.. ولا بدّ لها أن تصنع الرموز، وتعدّ القادة، وتستبق الأحداث، لا أن تواكبها فحسب.

* * * * *

أهل الباطل يفترون الخبر كما يشاؤون، ويلصقونه بمن يشاؤون، ثمّ يروّجونه بكلّ وسيلة، ويجنّدون لترويجه العملاء والغوغاء، ويقع في شركه البسطاء السطحيّون من أبنائنا، ويتطوّع لترويجه الجهلة المتعالمون بكلّ غباء، ثمّ يستثمره أهل الباطل إلى أبعد حدّ، ويجعلونه شمّاعة وسلاحاً، يرهبون به من يشاؤون.

* * * * *

«خذّل عنّا ما استطعت، فإنّ الحرب خدعة..» كلمة نبويّة رائعة، قالها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لنُعيم بن مسعود الأشجعيّ، عندما أسلم يوم الخندق..

إنّ المؤمن يُخذِّلُ عن إخوانه، ولا يخذلهم..

* * * * *

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: «والظالمُ الفاسق ينبغي أنْ يُذمّ ليَغتمّ، ولا يُمدَح ليَفرح» [إحياء علوم الدين ٣: ١٦٠]!

هذا هو الأصل والقاعدة، ولكنّنا أصبحنا في زمن قد تملي على الداعية ضرورة الحكمة، ومصلحتها الحقيقيّة الراجحة أن يسكت عن الذمّ، ويستعمل شيئاً من المدح لدفع شرّ واقع أو متوقّع، بأغلب الظنّ، لا بالوهم..

* * * * *

نداء لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد!

إنّ خطاب خالد بن الوليد رضي الله عنه الذي خاطب به أمراء الجيوش في زمانه لا يزال صالحاً لخطاب الأمراء في هذا الزمان، وإنه لو بُعِث اليومَ حيّاً فرأى حالَ قادة الفصائل في الشام لما خاطبهم بغير هذا الخطاب:

«فاللهَ الله يا أيها القادة، إنّ هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه البغي ولا الفخر. أخلِصوا جهادكم وعملكم لله، ولا تقاتلوا نظام الأسد وحلفاءه وأنتم أشتات متفرقون، فإن هذا لا يحلّ لكم، ولا يجوز في عقل ولا دين.

إنّ الذي أنتم فيه من الفرقة أشدّ على أهل سوريا من الكرب الذي غشيهم وأنفع للنظام من الكثرة والسلاح. لقد فرقت الدنيا بينكم وأُفرِد كل أمير منكم بفصيل من الفصائل، ولا ينتقصه إن دان لغيره من الأمراء ولا يزيده إن دان له غيره.

إنّ تأميرَ بعضكم عليكم لا ينقصكم عند الله، فهلمّوا فوحّدوا جمعكم ورصّوا صفّكم، فإنّ أعداءكم قد تهيّئوا واتّحدوا ليوم له ما بعده، فإن غلبتموهم اليوم لم تزالوا غالبين، وإن هُزمتم لم تفلحوا بعدها أبداً، لا قدّر الله». ذاكال

هذا الخطابُ يخاطبكم به خالد بن الوليد رضي الله عنه من وراء حجاب القرون، فأين السامعون؟ وأين المجيبون؟

* * * * *

﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل﴾ [آل عمران: ١٧٣].

﴿حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيم﴾ [التوبة: ١٢٩].

يا ربّ ممّ أشكو؟ أم ممّن أشتكي إليك؟

من جاهل أحمق، أم من مغرور متعالم، يقف مع الظالم، ويفتري على العالم، ويركب رأسه بالباطل؟

أم ممّن يلبس لبوس العلم، ويمنح المجرم ما لم يحلم به من طهر الشرع، ونصرة الحقّ؟ أم من قريب منّا يشمت بنا، كما يشمت العدوّ بعدوّه؟!

أم ممّن يزعم نصرتنا، ويدّعي الدفاع عنّا، وقد أعاد فينا مَثَلَ الدبّ مع صاحبه، ومنح المجرم صكّ براءته؟!

رحم الله الخليفة الفاروق ورضي الله عنه عندما شكى إلى الله علّتين مهلكتين للأمّة فقال: «اللّهُمَّ إنّي أشكو إليك جلد الفاجر، وعجز الثقة».

فكيف وقد اجتمع علينا إلى ذلك: تكالب الأعداء، وتخاذل الإخوة الأشقّاء، وسفه الأبناء، وسوء فهم العقلاء؟! ثمّ نخدع أنفسنا بكثرة الدعاء.!!

إذا ما أضعنا شامها وعراقها ... فتلك من البيت الحرام مداخله

* * * * *

الأمر من أوّل لحظة مؤامرة على هذه الأمّة، ولكنّ خيوطها تتكشّف يوماً بعد يوم.. ونحن لا اجتماع كلمة، ولا وعي، ولا علم، ولا تخطيط، ولا هدف؟!! حقّاً! لقد تآمرنا على أنفسنا قبل أن يتآمر علينا عدوّنا..

* * * * *

سنّة الله تقول لنا بكلّ وضوح: أن كونوا كما أراد الله يكن الخلق لكم كما تريدون.. ويأبى كثير منّا إلَّا الإصرار على ما هم عليه.. أعلى القلوب أقفال من حديد؟

* * * * *

النيّة هي الحكم..

هاجر بعض الصحابة رضي عنهم الله فراراً بدينهم، بتوجيه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى أرض الحبشة، وكانت يحكمها ملك نصرانيّ عادل، فكانت هجرتهم في سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته.. وهاجر بعضهم إلى المدينة، ولكن لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فكانت هجرته إلى ما هاجر إليه..

واليوم يهاجر من السوريّين من يهاجر إلى أوربة فراراً من براميل الموت، وحياة الذلّ والقهر فلعلّ هجرتهم تكون إلى الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، إذا أخلصوا النيّة، واستقاموا على دين الله، واستمسكوا بحبله المتين..

* * * * *

قد ترى لأوّل وهلة: الظلم له السيادة، والحقائق مغيّبة، ضائعة متناثرة.. وقد يختلطُ عليك المنح بالمنع، والعِقابُ، بالثّواب، وتمتزجُ الأشلاءُ بالأرواحِ الطّاهِرة.. وتَسُودُ لغةُ الجراحِ على لغة العقل والسلم، والحبّ والأمن..

ولكن: إيّاك أن تسترسل مع هذه الأوهام الغبيّة.. ففوق الكون كلّه إلٰه عدل.. لا تخفى عليه خافية، ولا يجاوزه ظلم ظالم..

* * * * *

الله أكبر! إنّ حجم الضلال والتضليل في هذه الأمّة بلغ حدّاً تنوء بحمله الجبال، وتشيب لهوله الولدان.. لقد اتّسع الخرق على الراقع، غُزينا في فكرنا وعقيدتنا، وبعقر دارنا، وأتينا من أقرب الناس إلينا، من أبنائنا وشبابنا ومثقّفينا.. واستهدفنا بأقدس أصولنا.. ومن تعقد عليهم الآمال قد استهلكوا بتوافه الأمور..

فاللّٰهُمَّ ألهمنا رشدنا، هيّئ لنا من أمرنا رشداً، واحفظنا من مضلاّت الفتن، ما ظهر منها وما بطن..

* * * * *

إنّ أعظم نجاح لمشروعك أن تجعل مشروع غيرك هو الكيد لمشروعك.. فكلّما خطوت خطوة في بنائك زدتهم شقاء ورهقاً، وأشغلتهم بردود أفعال عن العمل لمشروعهم..

* * * * *

أهل الإيمان يؤثرون الصمتَ عندما يرون أن الصمتَ أرجح من كلام يحاسب عليه قائله ولا يؤجر.. وأهل الفجور لا همّ لهم إلّا أن يتكلّموا على جميع الأحوال، بل يحاولون تصدّر المجالس، والاستئثار بالكلام.. لأنّهم لا يبالون بالحساب على الكلام..

* * * * *

إذا بلغ الظلم مداه، وتناسى الظالم قدرة الإله، وكانت الحرب على دين الله، واجتمعت قلوبنا على شريعة الله، ولم يكن للمظلوم سوى الله، ساعتها يأتي الفرج من الله، فلا تيأسوا يا عباد الله من روح الله.

* * * * *

الحديث عن الظالمين وأعمالهم إن لم يثمر عملاً نافعاً فهو من الاشتغال بما لا يعني، يضيّع الوقت، ويظلم القلب..

* * * * *

حياتنا شاهد بعد شاهد على طاغوت يتستّر على طاغوت، ويمدّه ويحميه، ويقدّم له كلّ أسباب القوّة والتمكّن، لقهر الشعوب وظلمها، والتسلّط عليها وإذلالها.. ثمّ يدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان بكلّ صفاقة.

* * * * *

أصحاب البناء الهشّ..

الذين يراهنون على انتصار الطاغوت، لما يرون من ضعف أهل الحقّ، وتفرّقهم واختلاف كلمتهم، إنّما مثلهم كما أخبر الله تعالى في كتابه عن أصحاب مسجد الضرار: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين﴾ [التوبة: ١٠٩].

إنّهم أصحاب البناء الهشّ: إيماناً وفكراً، ووعياً ورشداً، فلا عجب أن ينهار بنيانهم في نَارِ جَهَنَّمَ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِين..

* * * * *

لا فائدة من خطاب مَسلُوب الإرادة، إلَّا أن تتحرّر إرادته أوّلاً..

وما أشبه مَسلُوب الإرادة بالمعتوه، الذي لا يعقل عنك شيئاً ممّا تقول! فمن العبث خطابه، ومن العبث حواره..

* * * * *

كتب الله علينا أمراً، وكتب لنا قدراً وسنناً: أن تجتمع كلمتنا لننال رضا ربّنا، وليؤتينا النصر الذي وعد من أخذ بأسبابه..

وكتبنا على أنفسنا التفرّق والاختلاف، والتقاطع والتدابر، ثمّ نطلب من الله تعالى النصر الموعود!! وكأنّه حقّ لنا محتوم، ونحن أهل لنيله مهما كنّا عليه من حال!!

* * * * *

أعداؤك لا يكتفون بمؤامرة واحدة، فلن يخسروا مؤامرة إلَّا نسجوا على غيرها، ولن يهدأ لهم بال حتّى يحقّقوا بعض أهدافهم، ويسعون دائماً إلى تحقيق المزيد..

تلك بدهيّة من بدهيّات الصراع بين الحقّ والباطل..

* * * * *

من أعظم أبواب الفتنة على الإنسان اختلاط الباطل بشيء من مظاهر الحقّ، فيلتبس على ضعاف الوعي والبصيرة، ومن ثمّ كان لا بدّ لهم من العودة إلى العلماء الربّانيّين أهل الذكر، الراسخين في العلم: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

* * * * *

شمس الحقّ مشرقة دائماً.. ولكنّنا نحجبها عن أنفسنا بغبار وأدخنة، وسحب من غيوم الظلمات: ظلمات الأهواء والشبهات والشهوات.. وتأبى إرادة الله إلَّا أن تبدّد كلّ ما يحجبها، وتبقى الشمس مُشرقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

* * * * *

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون. إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِين﴾ [الجاثية: ١٨ـ ١٩].

﴿المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

آيات صارخة، تكشف خبث الظالمين، ودخائل المنافقين، وتحذّر من كيدهم وأساليبهم، وتبيّن أنّ ولاية الله تعالى للمؤمنين ونصره لهم إنّما هو على قدر تميّز صفّهم عن صفّ الظَّالِمِينَ والمُنَافِقِينَ.

* * * * *

أصبحنا أحجاراً على رقعة الشطرنج، وألعوبة بأيدي الكفّار والمنافقين عندما فقدنا الإرادة والعزيمة، والاعتصام بحبل الله المتين..

* * * * *

إنّ أصحاب المبادئ، الذين يعتزّون بقيم الحقّ، ربّما كان لأحدهم من الأنفة وعزّة النفس ما يجعلهم يتباعدون عمّن يكذب عليهم ولو مرّة واحدة إلّا أن يحدث توبة وإنابة.. فكيف بمن يكذب ألف مرّة؟! فكيف بنظام قام من أوّل يوم على الكذب والخداع؟! وقد كتب عند الله كذّاباً، وقد كتب الله لأمثاله ألّا يفلحوا في الدنيا، ولا في الآخرة: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]، ولكنّ الله يمهل ولا يهمل، وحكم الله لا تحيط بها عقول البشر.

* * * * *

العقلاء بحقّ مهما كانت انتماءاتهم السياسيّة يرجى لهم أن يؤبوا إلى رشدهم، فيعترفوا بالحقّ على أقلّ تقدير، وربّما ملكوا الجرأة والقوّة الأدبيّة فصحّحوا مسارهم، وسلكوا طريقه..

مصيبة الإنسان الكبرى عندما يكون عقله مختطفاً من هواه، فيبدو للناس عاقلاً، وهو في الحقيقة لا يعدو الطفولة العقليّة..

* * * * *

الأئمّة المضلّلون.. كي تكتمل صورة جهلهم وتضليلهم، ولا يرتاب بهم المغفّلون، الذين يضعون حسن الظنّ في غير مواضعه لا بدّ لهم أن يذهبوا في التضليل، والافتراء على دين الله إلى أقصى مداه، وهذا من رحمة الله بعباده ولا شكّ..

* * * * *

بأي كيل تكيلون؟!

يسلكون سلوكاً همجيّاً متخلّفاً، ويريدون من الآخرين أن يعاملوهم بسلوك حضاريّ راق.. لم يبق لديهم من حرّيّة الرأي والتعبير إلّا أن يمارسوا الإساءة والاعتداء على عقيدة مليار ونصف من البشر ومشاعرهم، ثمّ يطالبونهم باحترام أفكارهم الفاسدة، ومشاعرهم الحاقدة، وحقوقهم التي تتدرَّع بالبغي والعدوان..

يزرعون الإرهاب في شرق العالم وغربه، ويقتلون المئات والألوف من الأبرياء الآمنين، من الأطفال والرجال والنساء، ويبرِّرون أعمالهم بملاحقة فلان أو فلان من الإرهابيّين المطلوبين.. وإذا انتقم بعض الناس لآبائهم وأمَّهاتهم وأطفالهم وأمن أوطانهم قامت قيامة القوم ولم تقعد، ونادوا بالويل والثبور، وعظائم الأمور، واستنفروا أمثالهم من الطغاة، وضغطوا على الأصدقاء، ولوَّحوا بالتهديد للضعفاء..

وبمثل هذا المنطق وهذه العنجهيَّة الهمجيَّة، يتشدَّقون بالتقدُّم والتحضُّر، ويدَّعون الحرص على نشر السلام والوئام، وإنهاء حالات التأزُّم والاحتقان..

فما لكم أيُّها المبطلون المخسرون كيف تحكمون؟! وبأيِّ كيل تكيلون؟!

لسنا مع القتل والعدوان، وردود الأفعال التي تخرج عن العدل وشريعة الإسلام، ولا نبرِّر ذلك بأيِّ سبب من الأسباب الهمجيَّة آنفة الذكر، ولكنَّنا لا ننكر ولا نتجاهل أنَّها أسباب لردود الأفعال، ليس من شأن العقلاء أن يتجاهلوها، لأنَّهم سيبقون في دائرة مفرغة، وجدل عقيم، وواقع مأساويٍّ أليم.. لن يخرجهم منه الغرور والعناد، والصلف والكبرياء إلّا من مطبّ إلى مطبّ أسوأ منه وأخزى..

إنَّ التعايش بين الأمم والحضارات لا يكون إلَّا بالعدل والإنصاف، واحترام قيم وخصوصيّات جميع الأطراف، وألَّا يطغى الكبير بقوَّته، ولا يتجاوز الحقَّ بسلطته، فأعزُّ ما يملك الضعيف قِيَمُه وخصوصيَّتُه، وهو مستعدّ أن يخسر حياته، ولا يخسر شيئاً منهما..

فهل يرعوي الأقوياء عن منطق التحطيم والإقصاء؟! وهل يعتبرون بدورة التاريخ التي تحكم جميع الأحياء، ولا تحابي الأقوياء؟!

* * * * *

أيها المهاجرون، أخلصوا نيتكم لله، وأبشروا

موجة جديدة من الهجرة يتعرّض لها أهل الشام.. يتناثرون في كلّ أرض، وتضيق بهم البلاد، ويتعرّضون للأذى والاضطهاد، وربّما فرّوا من العذاب إلى ما هو أشدّ منه، وربّما فرّوا من الموت إلى الموت..

ولله الأمر من قبل ومن بعد.. ولا يسع المؤمن إلَّا أن يسلّم أمره لله فيما قدّر، ويعلم أنّ أمره كلّه له خير، كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه..

يَقُوْلُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. [النساء: ١٠٠]

يَقُوْلُ الإمام الطبريّ: ﴿يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً﴾، يقول: يَجِدْ هذا المهاجر في سبيل الله ﴿مُرَاغَماً كَثِيراً﴾، وهو المضطرب في البلاد والمذْهب. يقال: (راغم فلانٌ قومه مراغماً ومُرَاغمة).

وكلمة «مُراغَم» هي اسم مفعول واسم مكان، وتعني مكاناً إذا ما وصلت إليه ترغم أنف خصمك الذي كان يستضعفك، فهل هناك أفضل من هذا؟

فمن يهاجر يجد في الأرض مكاناً للهجرة، ومأوى يسلكه، فيه الخير والسعة والرزق والعزّة، وهذا ترغيب في الهجرة لمن ضيِّق عليه في دينه، وتعرَّض للفتنة فيه، ووعد صريح لمن يخشى ترك المال والأهل ومشقَّة السفر والبعد عن الديار بأنَّه سيجد ما يغنيه، ويرغم به أعداءه، متى كانت هجرته خالصة لوجه الله!!

فالله سبحانه يعطي المهاجر أشياء تجعل من كان يستضعفه ويستذلُّه يشعر بالخزي إلى درجة أن يكون أنفه في الرَّغام، وهو التراب. والمستضعف في أرضٍ عندما يهاجر في سبيل الله موعود من الله بالسعة والرزق والقوَّة والمنعة.

وَيَقول سيِّد رحمه الله: «إنَّ المنهج الرباني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوِّعة، وهي تواجه مخاطر الهجرة في مثل تلك الظروف التي قد تتكرر بذاتها، أو بما يشابهها من المخاوف في كل حين.

وهو يعالج هذه النفس في وضوح وفصاحة فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف ولا يداري عنها شيئاً من الأخطار، بما في ذلك خطر الموت، ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله سبحانه وتعالى..

فهو أوَّلاً يحدِّد الهجرة بأنها «في سبيل الله».. وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام. فليست هجرة للثراء، أو هجرة للنجاة من المتاعب، أو هجرة للذائذ والشهوات، أو هجرة لأي عرض من أعراض الحياة.

ومن يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحة ومنطلقاً فلا تضيق به الأرض، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة:

﴿وَمَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَسَعَةً﴾..

وإنما هو ضعف النفس وحرصها وشحُّها يخيَّل إليها أنَّ وسائل الحياة والرزق، مرهونة بأرض، ومقيَّدة بظروف، ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلاً.

وهذا التصوّر الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة هو الذي يجعل النفوس تقبل الذلَّ والضيم، وتسكت على الفتنة في الدين، ثمَّ تتعرَّض لذلك المصير البائس. مصير الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم. والله يقرِّر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر في سبيل الله.. إنَّه سيجد في أرض الله منطلقاً، وسيجد فيها سعة، وسيجد الله في كل مكان يذهب إليه، يحييه ويرزقه وينجيه..

ولكنَّ الأجل قد يوافي في أثناء الرحلة والهجرة في سبيل الله.. والموت لا علاقة له بالأسباب الظاهرة إنَّما هو حتم محتوم عندما يحين الأجل المرسوم. وسواء أقام أم هاجر، فإنَّ الأجل لا يستقدم ولا يستأخر.

غير أنَّ النفس البشريَّة لها تصوراتها ولها تأثّراتها بالملابسات الظاهرة... والمنهج يراعي هذا ويعالجه. فيعطي ضمانة الله بوقوع الأجر على الله منذ الخطوة الأولى من البيت في الهجرة

إلى الله ورسوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.. أجره كلُّه. أجر الهجرة والرحلة والوصول إلى دار الإسلام والحياة في دار الإسلام.. فماذا بعد ضمان الله من ضمان؟

ومع ضمانة الأجر التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة في الحساب. وهذا فوق الصفقة الأولى.

﴿وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. إنها صفقة رابحة دون شك. يقبض فيها المهاجر الثمن كلّه منذ الخطوة الأولى.. خطوة الخروج من البيت مهاجراً إلى الله ورسوله، والموت هو الموت. في موعده الذي لا يتأخَّر. والذي لا علاقة له بهجرة أو إقامة.

ولو أقام المهاجر ولم يخرج من بيته لجاءه الموت في موعده. ولخسر الصفقة الرابحة. فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة. بل هنالك الملائكة تتوفاه ظالماً لنفسه! وشتَّان بين صفقة وصفقة! وشتَّان بين مصير ومصير»! [في ظلال القرآن بتصرُّف يسير ٢: ٧٤٦].

وبعد؛ فلقد بيّنت هذه الآية الكريمة أنَّ المهاجر في سبيل الله بين احتمالين لا ثالث لهما:

ـ إمّا أن يُمضي الله له هجرتَه، ويبلغ غايته، فيجد في مُهاجَره مراغماً كثيراً وسعة، بوعد الله، والله لا يخلف الميعاد..

ـ إمّا أن يأتيه الأجل قبل بلوغ غايته، فيقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيماً..

* * * * *

ثورات الربيع العربيّ كان يراد لها أن تكون مشاريع نهضة للشعوب العربيّة، واستعادة لهويّة الأمّة وريادتها الحضاريّة، فسارع الغرب ووكلاؤهم وأجراؤهم في المنطقة إلى التآمر عليها وإجهاضها.. ولكنّها ربيع.. وهل لأحد أن يحوّل الربيع إلى شتاء أو خريف؟!

* * * * *

كثيراً ما يتداخل في الواقع الحكم الشرعيّ مع الضرورة التي تفرضها الظروف، مع السياسة الشرعيّة، التي هي أوسع أبواب الأحكام، ولا يسع طالب العلم، أو الداعية أن ينظر إلى جانب من الأمر، ويهمل غيره..

* * * * *

أيّها المجاهدون! تَحرَّروا قبل أن تُحرِّروا..

* * * * *

فتوى عاجلة لا يختلف فيها اثنان:

١ـ تحريم الاقتتال بين الفصائل المجاهدة، مهما حدث بينها من خلاف، وضرورة الرجوع إلى هيئة شرعيّة يحتكم إليها المختلفون، ويلتزمون بأحكامها.

٢ـ كلّ اقتتال بين الفصائل المجاهدة هو اقتتال فتنة محرّم، وليس بجهاد شرعيّ، مهما زيّن الشيطان لأصحابه خلاف ذلك.

٣ـ أنّه يحرم على أيّ مجاهد من أيّ فصيل كان أن يستجيب لأمر قادته في قتال فصيل آخر، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وعليه أن يعتزل عن مثل هذا القتال، ويكفّ يده، وإلَّا فقد أحبط بيده ما سبق من جهاده.

* * * * *

يتملّك الحزن قلبي على ثلاثة:

رجل آتاه الله علماً وذكاءً ومواهب، وحباه من الجاه ما حباه، فرضي لنفسه أن يكون تبعاً لطاغية، يسوّق له مواقفه، ويبرّر له جرائمه.. وهل لمثله دين ليبيعه؟!

ورجل كانت له بداية في الدين حسنة، ولم تكن له قدم راسخة، وكان يرجى له الخير والرشد، حتّى إذا لاحت لعاعة من الدنيا سارع إليها.. وعندما احتدمت المعركة بين الحقّ والباطل آثر العاجلة على الآخرة، فانحاز إلى صفّ الباطل، يطبّل له ويزمّر، وباع دينه بدنيا غيره، وهو في سرّه من أعرف الناس به..

ورجل في صفّ الحقّ فيما يبدو، ولكنّه ضائع البوصلة، فأقواله ومواقفه لا تخدم إلَّا الباطل وحزبه.. وكم ينتقد الناس أقواله ومواقفه فلا يزيد إلَّا عناداً وإصراراً!

والسؤال لهؤلاء الثلاثة: هل تنتظرون عمراً جديداً، لتبدؤوا حياتكم مع الحقّ؟

وطوبى لأهل الحقّ، لقد أصبحوا اليوم غرباء غرباء.. توجّه السهام إليهم من أقرب الناس لهم، ولا يجدون على الحقّ أعواناً، وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً..

* * * * *

عندما تكون المعركة بين الحقّ والباطل كرّاً وفرّاً، ونصراً وهزيمة فهذا يعني أنّ أهل الحقّ لم يستكملوا ما أمروا به من إعداد العدّة، والأخذ بأسباب النصر.

وما أسوأ أن تقفَ همّة المجاهد عند تحقيق نَصْر محدود، في جولة من جولات الصراع بين الحقّ والباطل! أو يصاب بغرور القوّة، الذي هو أخطر المقاتل.

فيا أيّها المجاهدون استكملوا عدّتكم للنصر، أو راوحوا مكانكم سنين أخر!

* * * * *

ما غلبنا أعداء الإسلام في معركة قطّ كما غلبونا في معركة تمزيق الكلمة.. وأن يكون بعضنا أعداء بعض! فتلك المعركة نتحرّك فيها بهمّة، ونجول فيها بشراسة، ونصدق الودّ مع أعدائنا، ونستبسل في حرب إخواننا، ونكيد لهم بكلّ ما نملك.. ونحسب بكلّ سذاجة وغباء أنّنا نغار على عقيدتنا، وننتصر لديننا!! ألا قبحّ الله رؤوساً أتخِمت بالهوى، واستنصرت بالظالم على المؤمن، ولم تنتفع بشيء من العلم والهدى إلّا تعالياً وغروراً!!

* * * * *

ظاهرة متكرّرة على مدار التاريخ.. استغباءُ أعداء الإسلام لعدد كبير من علماء الأمّة، وجعلهم يسيرون في ركابهم، ويفترون على دين الله بما يرضي أهواءهم.. فما السرّ في ذلك يا ترى؟!

* * * * *

العالم اليوم على صفيح من نار، لا يزال يُحمى ويُحمى، وينفخ فيه المجرمون الطغاة.. حتّى يأتي وعد الله، فيحترقون مع من يحترق.. إنّ الله لا يخلف الميعاد..

* * * * *

يُمَنُّون أنفسَهم أن يعُودوا تحت وطأة السفّاح الغادر.. ربّما يعودون، ولكن بئس ما اختاروا لأنفسهم، وسيندمون على تلك العودة البئيسة الذليلة.. إنّهم ليراهنون على اقتباس النعيم من وطأة الجحيم..

* * * * *

عندما تحسب لكلّ خطوة حسابها تتمكّن من فلّ عزم عدوّك، وكسر شوكته، مهما خطّط ومكر، ولو كان مكره كبّاراً..

* * * * *

بلاء الأمّة في منافقيها، إنّهم يباع بهم ويشترون في سوق نخاسة السياسة القذرة، ولا دين يردع، ولا أخلاق تمنع .. وهذا دأبهم ولا عجب.. ولكن العجب كلّ العجب أن نرى بعض الصادقين مخدوعين بهم، يبرّرون لهم الأفعال، ويلتمسون لهم الأعذار، ولا يقومون بما يجب عليهم من العمل، والتعاون مع إخوانهم على البرّ والتقوى..

* * * * *

أخذ الخونة المفسدين، بالحزم والمحاسبة القانونيّة لا يتنافى مع إعلان العفو المشروط عمّن يظنّ أنّه رأس الفتنة، والعقل المدبّر لها، وهذا هو المنهج النبويّ، والسياسة الإسلاميّة الحكيمة في التعامل مع المنافقين، وليس في ذلك ضعف، أو خروج عن الحكمة، بل هو عين الحزم والحكمة، وفيه الكثير من المصالح الظاهرة، ولا شيء فيه من الخطر أو الضرر على من ملك القوّة، وجمع بين الحزم والرحمة..

* * * * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ [التوبة: ١١٩].

إذا كنت من الصادقين، ومع الصادقين فلن تخدع بكذب الكاذبين وأساليبهم:

تبحث عن الحقيقة اليوم، وتجتهد في البحث عنها، بين ركام الظنون والتكهّنات، وضباب الأكاذيب والإشاعات.. ولن تصل إليها إلّا بشقّ الأنفس..

وستأتيك في الغد مستعلنة جليّة، لا تقبل الزيف والتزوير، ولكن ربّما في الوقت الضائع.. ولو كنت ذا حاسّة عمريّة فاروقيّة، لما وقف أمام بصيرتك خداع ولا ضباب، ولكشفت الكذب والتزوير من أوّل الأمر..

فقد كان عمر الفاروق رضي الله عنه إذا حدّثه أحد بحديث وكذب كذبة قال له: «أمّا هذه فاحبسها عندك».

* * * * *

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وسلّم قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيّاً، ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلاَءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَه». رواه البخاري ٥: ١١٠).

المنّ على الأسرى أقرب لطبيعة الشريعة السمحة، شريعة الرحمة والهداية، وأحبّ إلى الله تعالى، وإلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم. وإنّه خلق الرحمة والوفاء، الذي جبل عليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ومعلوم أَنَّ النَّبِيَّ صلّى الله عليه وسلّم عندما رجع من الطائف دخل مكّة بجوار المُطْعِم بن عديّ، وكان مشركاً.

* * * * *

في مثل هذا اليوم: السابع عشر من شهر رمضان المبارك، من السنة الثانية للهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى، التي سمّاها الله تعالى: (يوم الفرقان)..

وكانت فاتحة انتصار الحقّ على الباطل، وثمرة التربية النبويّة الشاملة، التي أعدّت جيل الصحابة رضي الله عنهم لحمل الأمانة، وأداء الرسالة، وبذل المهج والأرواح لنصرة هذا الدين..

فكانت غزوة بدر الكبرى أوّل اختبار كبير لهذه التربية النبويّة، في مواجهة الباطل.. فنجح الصحابة رضي الله عنهم أعظم نجاح، وكانت غزوة بدر وسام فخار في الدنيا والآخرة لكلّ من شارك فيها..

* * * * *

لا مجال للقياس ولا مقاربة بين أهل الحقّ، ولو كانوا مذنبين ومقصّرين، وبين أهل الباطل، وهم الظالمون المجرمون.. فكيف لعاقل أن يشتغل بلوم المقصّرين، ويقعد عن نصرتهم على عدوّهم بحجّة تقصيرهم، ويسكت عن ظلم المجرمين، ولا ينكر عليهم؟! *

* * * *

الشريك المستبدّ هو الذي لا يستطيع الشراكة إلَّا مع من يكون تبعاً له، ليتمكّن من ظلمه بغير حساب.

* * * * *

الذين يرهنون أنفسهم وطاقاتهم لأعداء الأمّة ومخطّطاتهم إنّما يسيئون أوّل ما يسيئون إلى أنفسهم، ويكتبون بأيديهم صكّ شقائهم وسوء مآلهم.. ﴿..وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

* * * * *

الظالم يسير عكس سنن الله تعالى في الحياة.. وأهل الحقّ يسيرون وُفقَها، وما دام الأمر كذلك؛ فما أسرع انتصار أهل الحقّ، وهزيمة أهل الباطل..

ومعاكسة الظالم لسنن الله تعالى في الحياة لا يعني انتصار أهل الحقّ، إن لم يأخذوا بسنن الله تعالى، ويصدقوا في اتّباع منهجه..

* * * * *

«التاريخ يعيد نفسه»، مهما يكن لهذه الكلمة من مصداقيّة ولو جزئيّة، فإنّ الواقع يقول: إنّ بعضاً من «صنّاع التاريخ»، بحكم مواقعهم ومسؤوليّاتهم وتأثيرهم، لا يحسنون قراءة التاريخ، بل لا يقرؤونه..

ومن ثمّ فهم لا يفهمون الواقع على الوجه الصحيح، ولا يحسنون التعامل معه.. وهم بذلك يكتبون على أنفسهم العيش على هامش الواقع والتاريخ، وأن يكونوا عبرة من عبر التاريخ..

* * * * *

أبطال الرباط والجهاد، من كلّ فئة من هذا الشعب الأبيّ، تقدّم ما استطاعت من جهدها، وتضحّي في سبيل دينها.. إنّهم شُمُّ العرانين، بيضُ الوجوه، باسِمُو الثغور في الثغور، سَرابيلهم الإخلاص والهدى، والصدق والتقوى، والثبات والإقدام في كلّ ميدان، يجدّدون سيرة الآباء والأجداد، يتنافسون على اقتحام الردى، والجراءة على أبواب الموت والشهادة، قد اجتمعت قلوبهم على الحبّ والإخاء، والبذل والصفاء، لا همّ لهم إلّا رضوان الله، والاقتداء بسيّد الأنبياء، والتمثّل بحال صحبه الأوفياء، مهما كان مآلهم فإنّه إحدى الحسنيين، والآخرة عند ربّك للمتّقين.

* * * * *

لسان القدر قالها لنا في كلّ مناسبة: «توحّدوا لتهتدوا.. وتُنْصَروا وتسعدوا»..

قالها لنا منذ البداية.. فقلنا له: لا يضيرنا.. فنحن الشعب كلّه.. وقد ثرنا هنا وهناك..

قالها لنا وقد واجهنا الرصاص، والحديد والنار.. فقلنا له: لا يضيرنا فالله معنا!!

قالها لنا وقد اشتدّ علينا البلاء، وتكالب الأعداء.. فقلنا له: لا يضيرنا.. نحن بالحقّ أقوياء.. قالها لنا.. فقلنا له: قالها لنا فقلنا له:.. وهربنا منها في كلّ ميدان..

وكلّما اقتربنا منها جاءنا النصر على طبق من التيسير والتوفيق، وبغير حساب.. وكلّما ابتعدنا عنها تسلّط علينا العدوّ، وعمّنا الخذلان..

* * * * *

ماذا أقول؟! عندما تكون الدمعة آخر سلاح، وأقوى رجاء، وأفصح تعبير عن واقع يعجز

ماذا أقول؟! إذا فقدت الأمّة إحساس الجسد الواحد، فأصبح مشهد الإنسان، وهو يقتل، ويعذّب، ويحرق، ويبكي، ويستغيث.. ويطرد، ويشرّد، لا يحرّك الساكن، ولا يهزّ المشاعر..

ماذا أقول؟! إذا لم يبق من إنسانيّة الإنسان بعض ذماء، وقطرة حياء.. يرى الدمعة الحرّة فلا تحرّك منه إلّا أنانيّة مقيتة، وتهمة خفيّة، وشماتة تجعل الإنسان لا يملك إلّا أن يشيح عن أخيه الإنسان..

ماذا أقول؟!وماذا أقول؟! وخير ما أقول أنا وغيري: «حسبنا الله، ونعم الوكيل، نعم المولى، ونعم النصير.. وبانتظار الجواب الإلهيّ الحقّ: ﴿فَانْقَلَبُوا..﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

* * * * *

الذين يراهنون على انتصار الطاغوت ويتمنّونه أين موقعهم من الإيمان وحقيقته؟! والله جلّ وعلا قدّم البراءة من الطاغوت على إعلان الإيمان بالله وتوحيده، فقال سبحانه: ﴿..فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا..﴾ [البقرة: ٢٥٦]..

وهل يتصوّر أن يجتمع في قلب المؤمن حبّ الله وحبّ رسوله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، والولاء لله ولرسوله صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، وحبّ الطاغوت والولاء له؟! أم يظنّ هؤلاء أن لا تكاليف للإيمان، ولا تبعة على مدّعيه؟! ورحم الله الحسن البصريّ إذ يقول: «ليس الإيمان بالتمنّي، ولا التحلّي، ولكن ما وقر في القلب، وصدّقه العمل».

* * * * *

ما يحدث في سورية هنا وهناك من انتصارات وانشقاقات، ما هي إلّا مسكّنات ألم عن وجع أكبر نعاني منه منذ انطلاق الثورة، وإلى يومنا هذا.. هذا الوجع الأكبر هو فقد القيادة الواحدة، الفاعلة الراشدة..

أيّها العلماء الأحرار! الثورة أمام منعطف خطير.. المؤامرة عظيمة، والتحدّيات كبرى، ولا يقف في وجه ذلك إلا وحدة الصفّ واجتماع الكلمة..

* * * * *

نجاحات حماس في قضيّة شاليط

لقد كانت تكاليف هذه الصفقة على العدوّ مرهقة ماديّاً، ومذلّة معنويّاً وسياسيّاً.. وكانت نجاحاً نوعيّاً لحركة حماس، بل نصراً تاريخيّاً عزيزاً، وفتحاً مبيناً..

النجاح العسكري في عمليّة الاختطاف.

النجاح الأمني في إخفاء الأسير طيلة هذه المدّة، وبخاصّة إذا علمنا ضعف الإمكانات المادّيّة، وإحاطة الأعداء بحماس من كلّ جانب، وتآمرهم عليها، حتّى من بعض الأقرباء المفاوضين والوسطاء المقرّبين.

النجاح السياسيّ في إدارة المفاوضات، بل التفوّق على جميع المفاوضين، والجمع بين الإصرار على المطالب والمرونة في المفاوضات، والإيجابيّة وبعد النظر.

النجاح بل الانتصار في معركة غزّة التي وقعت لتحرير شاليط.

النجاح الوطني في اختيار الأسرى السجناء، والتجرّد عن الرؤية الحزبيّة، والشفافيّة في التعامل مع القضيّة.

وأما دعوى التكلفة الباهظة لأسر شاليط فهي دعوى متهافتة.

لقد استقبل رئيس الوزراء الإسرائيليّ شاليط، ولسان حاله يقول: (لعنة الله عليك أيّها الجنديّ المشؤوم، بما جررت علينا من ذلّ ومتاعب).

لقد كان نجاح حماس في هذه الصفقة يوماً أغرّ في تاريخها، ومعلماً من معالم نجاحها المتألّق، فهذه أكبر عمليّة تبادل أسرى في تاريخ فلسطين

الصحف الإسرائيليّة: الدولة العبريّة نزلت على ركبتيها أمام حماس

خالد مشعل: إنّ حماس حطّمت النظريّة الأمنيّة الإسرائيليّة

والسؤال الصعب الذي يعجز عن الجواب عليه كثير من قادة العدوّ، أو لا يريدون مجرّد التفكير فيه: كم كانت تكلفة تحرير شاليط، بدءاً من أسره، وانتهاء بهذه الصفقة التي تمّ التوافق عليها؟! وكم أخذت من الجهد والمال؟! أظنّ أنّ مجرّد تفكير أيّ قائد منهم بذلك سيصيبه بانتكاس فكريّ، واكتئاب نفسيّ، وانهيار عصبيّ..

واعجب بعد ذلك لبعض أبناء العرب الذين يعدّون أسر شاليط من أوّله إلى آخره كارثة على شعب فلسطين، وقضيّة فلسطين.. ضرّها، ولم ينفعها، وآذاها، ولم يخدمها..

والأمر لا يعدو الوفاق مع حماس أو الخلاف والشقاق، وعين الرضا أو عين السخط.. ونسأل الله أن يرزقنا العقل والبصيرة، وأن تسمو أخلاقنا إلى أن نقول كلمة الحقّ والعدل في الرضا والغضب

* * * * *

قال: لماذا أيدتم الخروج المسلح على بشار الأسد.. ألم تدرسوا فقه المآلات؟

قلت: لم يدعُ أحد من علماء الشام سواء في الداخل أو الخارج الى الخروج بالسلاح على النظام النصيري المجرم عام ١٩٨٠.. أو عام ٢٠١١، لكن النظام هو الذي أجبر الناس على الدفاع عن أنفسهم ضد اجرامه..

وعدم تأييد الدفاع عن النفس من قبل المعتدى عليهم لا يجيز أن تقف بصف المعتدي وتؤيده.. ويحرم أهل السنة القتال تحت راية الحاكم الظالم ضد من يخرج عليه يطالب بحقه قال الإمام ابن حجر رحمه الله: «إلا أن الجميع يحرمون القتال مع أئمة الجور ضد من خرج عليهم من أهل الحقّ» ويرون أن من خرج على الحاكم الظالم الذي يريد أن يسلب حقه معذور حيث قال ابن حجر: «وَأَمَّا مَنْ خَرَجَ عَنْ طَاعَة إِمَام جَائِر أَرَادَ الغَلَبَة عَلَى مَاله أَوْ نَفْسه أَوْ أَهْله فَهُوَ مَعْذُور وَلَا يَحِلّ قِتَاله وَلَهُ أَنْ يَدْفَع عَنْ نَفْسه وَمَاله وَأَهْله بِقَدْرِ طَاقَته».

ويحرمون قتال الخوارج الذين يكفرون المسلمين إذا خرجوا على إمام جائر، قال ابن حجر: «قال الإمام علي عن الخوارج: إِنْ خَالَفُوا إِمَاماً عَدْلاً فَقَاتِلُوهُمْ، وَإِنْ خَالَفُوا إِمَاماً جَائِراً فَلَا تُقَاتِلُوهُمْ فَإِنّ لَهُمْ مَقَالاً». وقال ابن القاسم: «ولو دخلوا مدينة لا يريدون إلا الإمام وحده فلا تقاتلوهم إذا كان الإمام جائراً ظالماً».

وسئل الإمام مالك عن الحاكم إذا قام من يريد إزالة ملكه هل يجب الدفاع عنه؟ فقال: «أما مثل عمر بن عبد العزيز فنعم، وأمّا غيره فلا، ودعه وما يريد، فينتقم الله من ظالم بظالم، ثمّ ينتقم الله منهما جميعاً».

* * * * *

ضريبة التفرّق واختلاف الكلمة إلى أبعد حدّ، من: استحلال الأعراض والدماء، والتآمر على الإخوة مع الأعداء، هذه الضريبة سارت بنا في متوالية هندسيّة قذرة، ومن سيّء إلى ما هو أسوأ، وكلّما امتدّ بها الزمن ازدادت سيّئاتها، وتضاعفت ويلاتها، وانتقلت من منكر شنيع إلى معروف يبرّر له، ويدافع عنه، وهيّأت للعدوّ فرصاً لا يحلم بها، من الاختراق والتمكين، وتحويل بأسنا إلى صدورنا وصدور إخواننا..

ولا يهمّنا من حيث النتيجة والأثر، ولا ينفع الجدل، إذا كان هذا الأمر بالتواطؤ مع العدوّ والخيانة، أو بغباء وعبوديّة لهوى النفس، ممّن يتسلّم دفّة العمل، ويتصدّر القيادة، وينتفخ عُجباً وغروراً، مدّعياً لنفسه ما لم يدّعه الخلفاء الراشدون..

فكيف لطالب علم بعد ذلك، يظنّ به الوعي والرشد، حرصاً بزعمه على جمع الكلمة، أن يفتي لأحد من الناس باستحلال الأعراض والدماء، وهو ما يعدّ غاية مطمح الأعداء؟! حقّاً إنّ من الغباء ما قتل ودمّر وأفسد!

* * * * *

مَعَ سُنَن الله في الأنفُس والآفاق: التعلّل بالمتآمرين في مواجهة التغيير:

لاحظتُ منذ مدّة نغمة نشازاً، وشمّاعة من القول، أصبحت سارية بين كثير من الكاتبين في الشأن السوريّ، وهي: (الاتفاق الدوليّ.. الاتفاق الدوليّ.. الاتفاق الدوليّ..) وهي نغمة مخذّلة مثبّطة، تبرّر القعود والتقصير، عدا عن أنّها مجانبة للحقيقة، وكلام بغير علم في أكثر الأحوال، وحدّث ولا حرج عن آثارها السلبيّة، التي تفتّ في عضد العاملين، وتقدّم الحجّة، بل الحجج للقاعدين والمتقاعسين..

وعلى وجه العموم أقول: ليس هناك اتفاق دوليّ.. وإنّما المجتمع الدوليّ عموماً لسان حاله يقول لنا: نفسي نفسي.. فأكثر الدول ـ غير الدول الكبرى ـ غارقة في شؤونها الخاصّة ومصالحها، ومشكلاتها وما يواجهها من تحدّيات، داخليّاً وخارجيّاً. ولا تفكّر في الآخرين إلَّا من خلال هذا المنظار..

المجتمع الدوليّ عموماً لا يحترم إلَّا الأقوياء، ولو كانوا ظالمين وعلى باطل، ولا يستهين إلَّا بالقاعدين المتخلّفين، ولو كانوا مظلومين مستضعفين.. وعلى ذلك عشرات الأمثلة والنماذج..

المجتمع الدوليّ عموماً يقف متفرّجاً علينا في أحسن أحواله، ويرفع قبعته احتراماً لنا إذا رآنا نتحرّك بقوّة ذاتيّة، فاعلة ناهضة، وننتزع حقّنا بأيدينا، بعزم واقتدار، وعندئذ يحسب كلّ حساب لعلاقته معنا مستقبلاً، بناء على حرصه على مصالحه.. وما سوى ذلك فكلّ يعمل لنفسه، وينازع الآخرين في طريقه نحو مستقبله وآماله..

فدعكم أيّها الناس من هذه الشمّاعة: (الاتفاق الدوليّ..)، ومشاعر التآمر السلبيّة، التي آذت آذاننا، وأصبحت مجوجة مهترئة، وهي لا تخضع لمنطق، ولا تقف عند حدّ.. وفكّروا دائماً بالعمل الإيجابيّ البنّاء، والتغيير لما في النفس من سلبيّات ومعوّقات، تحول بينكم وبين

الأهداف المنشودة، وعندئذ تكونون: ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُم﴾ [محمد: ٣٥].

* * * * *

أنّى للنصر أن يأتي لأمّة لا تعرف عدوّها من صديقها، وتخاصم صديقها أكثر ممّا تخاصم عدوّها؟! ويعبث بها عدوّها كما يعبث الطفل بألعابه..

أنّى للنصر أن يأتي لأمّة تقدّس أهواءها، وتهرب من أمر ربّها؟!

أنّى للنصر أن يأتي لأمّة لا وزن لكبيرها، ولا رأي لحكيمها، ولا احترام لعالمها؟!

أنّى للنصر أن يأتي لأمّة؟! تعبث بالدماء المعصومة، والحرمات المصونة، وتتورّع عن الإسراف بالماء؟!

أنّى للنصر أن يأتي لأمّة؟!

أحسنّا الظنّ بالمجتمع الدوليّ إلى درجة البلاهة..

وببعض الناس إلى درجة الغفلة..

وبأقرب الناس إلينا إلى درجة التواكل، والتقصير في العمل..

وبأنفسنا إلى درجة الغرور بالنفس، وعدم الإصغاء إلى النّصح..

وأسأنا الظنّ بأهل الخبرة والرأي إلى درجة الاتّهام والتخوين..

والحقيقة المرّة أنّنا كلّنا رؤوس، مستعدّون لتعليم كلّ الناس، وقيادة كلّ الناس.. إلّا أنفسنا.. إلّا أنفسنا..

* * * * *

مواقف الغرب من الأحداث السياسيّة، والمآسي التي تعصف ببلادنا تكشف لنا عن عمق الشرخ والتباين بيننا وبينهم، في العلاقة الإنسانيّة، وفي نظرة الغرب إلينا، وحقيقة تعامله معنا.. وهذا التصوّر على أحسن الاحتمالات، وأبعدها عن دور الغرب في صنعها، واستحضار أبعاد العلاقة التاريخيّة وتأثيرها، التي لا تزال تغذّي ذاكرة الرجل الغربيّ بالحقد جيلاً بعد جيل..

وإذا أردنا أن نستشفّ هذه العلاقة فإنّنا نكتشف فيها الحقائق التالية:

١ـ ينظر إلينا الغرب أنّنا شعوب همجيّة متخلّفة، لا نستحقّ شيئاً من الحقوق الإنسانيّة، التي تتمتّع بها شعوبه.

٢ـ ويرى الغرب أنّ شعوبنا تعيش على بحار من الثروات الطبيعيّة، التي لا يحقّ لها وهي المتخلّفة، أن تنفرد باستغلالها، والانتفاع بها، لذا فمن حقّهم أن يتسلّطوا على خيرات بلادنا وثرواتها كما يشاؤون، وينهبوها بكلّ الأساليب.

٣ـ ويرى الغرب أنّ العملاء الأجراء هم خير من يحقّق لهم ذلك، وهم الذين صنعوهم على أعينهم، ونصّبوهم ليكونوا وكلاء عنهم لتحقيق مخطّطاتهم، وهم أيضاً الأقدر على تطويع الشعوب، لتكون مستعبدة لهم أبد الدهر.

والويل كلّ الويل لمن طالب من شعوبهم بحرّيّته وكرامته، واستقلال قراره.. إذ لا سبيل له إلّا القتل والسحق، إرضاء لأوليائهم..

أفلا تعقلون.! عقلاء الدنيا ينادونكم أن اركبوا قطار التاريخ، ولا تدسّوا العصيّ في عجلاته.. فسيمضي بكم أو بدونكم.. وستدوسكم عجلاته إن وقفتم في طريقه.. والتاريخ بكلّ فصوله وأسفاره يعظكم مواعظ ناطقة، ويقدّم لكم صوراً شاهدة صادقة.. فهل تستطيعون أن تكبتوا حركة التاريخ وتعطّلوها؟! والإحصاء العلميّ، والرسم البيانيّ يكشفان لكم أنّكم في انتكاس، وعدوّكم في صعود، فما جدوى المكابرة والعناد؟!

* * * * *

إنّ الماسونيّة هي أخطر منظّمة سرّيّة في العالم، وهي اليد الطولى للاستعمار قديماً وحديثاً، وتعتمد استراتيجيّة بعيدة المدى، للسيطرة السريعة على المجتمعات، وإحكام قبضتها على مفاصل قوّته، ورموز التأثير فيه.. وأهمّ مظاهرها: الاختراق لكافّة قوى النظام ورموز المجتمع حتّى النخاع، وتوظيفها فيما يحقّق مخطّطاتها..

* * * * *

الكلام الصحيح في الوقت الخطأ يصبح خطأً غير صحيح.. بغضّ النظر عن نيّة صاحبه وقصده، وربّما أدّى إلى عكس المقصود منه..

* * * * *

عندما تسير الدول في طريق التحلّل والفناء، فإنّها لا تصغي لنداء العقل، ولا تصدق مع نفسها في الإصلاح والتغيير، ولا تستجيب لتأنيب الضمير، بل تعتبر من يتطوّع لها بذلك عدوّاً لدوداً، ومغرضاً حسوداً، حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

* * * * *

كان بين الثورتين فراغ نوعيّ كبير وخطير، لم ينتبه له أكثر الناس، نجني اليوم عقابيله ومآسيه.. لأنّ العلماء والدعاة أهملوا الجيل الذي خرج مشرّداً عن وطنه فضاع أكثره، وخلا الجوّ يومها للمفسدين أن يفعلوا ما يشاوون..

وبعض الناس اليوم يريد أن يتكرّر ما حدث في الثمانينات من أخطاء.. رغم أنّ المأساة اليوم أكبر بعشرات الأضعاف عن مأساة الثمانينات..

* * * * *

عندما تسمو مشاعر الإنسان وترهف لا يكاد عقله يصدّق بعض الأحداث التاريخيّة الوحشيّة؛ كقصّة أصحاب الأخدود، وإحراق الناس بالنار رجالاً ونساءً وأطفالاً.. وقول فرعون: سنقتّل أبناءهم، ونستحي نساءهم.. وتلك الموءودة، الطفلة البريئة، التي تدفن حيّة بيد والدها: وإذا الموءودة سئلت: بأيّ ذنب قتلت؟

ولكنّه عندما يرى وحشيّة الإنسان في القرن العشرين، وهو يقتل أخاه الإنسان، رجلاً وطفلاً وامرأة.. ويتفنّن في قتله، ويحرق جسده، ويقطّع أعضاءه، ويتسلّى بتعذيبه.. عندما يرى ذلك يعلم أنّ الإنسان أسوأ من الوحش المفترس عندما تنتكس فطرته، ويتمرّد على شريعة ربّه، ولا يجد القوّة التي تلجم طغيانه وعدوانه..

وعندما يكون نظام الأمّة تحكمه أهواء البشر فأنّى له أن يغار على إنسانيّة الإنسان، وحرّيّته وكرامته؟! إنّه سيكون مع القويّ ضدّ الضعيف، يمالئ طغيانه، ويسترضي كبرياءه، ومع الظالم ضدّ المظلوم، يستعبده ظلمه، ويبهره تسلّطه..

وحقّ لأولئك المقهورين البائسين أن يقولوا: ألا ما أشقى الإنسان بأخيه الإنسان! وما أسعد الحيون بالحيوان.. ولكنّ عزاء الإنسان المؤمن أنّ عدالة المحكمة الإلهيّة لا يجاوزها ظلم ظالم.. وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

* * * * *

ممّ تعجبون؟! وفيمَ تستنكرون؟!

طبّعَ بعض المُنافقين علاقاتهم مع اليهود علناً، فغضب المُؤمنون واستنكروا، وكتب بعضهم بيانات الرفض والشجب، وهم يعلمون من قبل بلا امتراءٍ أنّ هؤلاء المُطبّعين قد مردوا على النفاق منذ عهد بعيد، والفرق أنّ ما كان بالأمس سرّاً مكتوماً، يستخفي به صاحبه ويتوارى، أصبح اليوم أمراً يستعلن به ويتباهى، ويتوقّح في استعلانه، ويتحدّى الأمّة، ولا يبالي بعقيدتها، ولا يقيم وزناً لحقّها وموقفها، كما أنّه يستجرّ فريقاً ممّن يُنسبون إلى العلم والدين، ويدورون في فلكه، لأنّهم متطفّلون على بلاطه، يأكلون من مائدته، ويحطبون بليله، وينسجون على منواله.. فكانوا وهناً ظاهراً لعزيمة الأمّة، وفتنة لضعاف النفوس فيها، وبلبلة لاجتماع كلمتها، وشتاتاً لأمرها.. ومع ذلك كلّه، ومثله ومثله.. فنقول كما علّمنا ربّنا: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]..

فالحمد لله الذي كشف عُوار هؤلاء المنافقين، وفضح دخائلهم، وهتك أستارهم وأسرارهم بأقوالهم وأعمالهم.. فلم يعد يرتاب بأمرهم مغفّل أو جاهل..

وشأن المنافقين ليس جديداً طارئاً في حياة الأمّة، فمنذ أن بزغت شمس الهداية النبويّة في المدينة المنورّة، ذرّ رأس النفاق، وتطاول بعنقه، واستعلن بمواقفه.. وجاءت الأحداث واحداً تلو الآخر، لتفضح سرائر المنافقين، وتكشف دخائلهم، وبعد كلّ موقف وفضيحة، كانوا ا ينتحلون الأعذار، ويحلفون الأيمان، ويجدّدون للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم العهود على الطاعة، وكان الوحي الإلهي يأتي دائماً ليفضح حجم كذبهم، الذي لا يقف عند حدّ، كما يفضح شدّة ولائهم للكافرين، ممّا يعجز عن تصوّره المؤمنون، الذين طبعوا على صدق الولاء لله ورسوله، وطهارة القلوب ونقائها: ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللّهِ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١ـ ٢].

وإنّ من سنّة الله في الدين والحياة أنّ مسيرة النفاق في الأمّة تزامنت واستشرت مع تألّق حركة بناء الأمّة، وزخم جهادها في سبيل دينها، وصراعها مع الباطل، وما فتح لها من أسباب الدنيا، وآفاق النجاح في كلّ ميدان..

وكانت حركة النفاق الهدّامة في بعض وجوهها ـ مهما كان فيها من وهْنٍ للأمّة وإيذاء، وهدم وتخريب ـ كانت تحدّياً للأمّة، رفع مستوى وعيها بكيد أعدائها على اختلاف مللهم ونحلهم..

وهي في بعض وجوهها أيضاً تمحيص لصفّ الأمّة، وفتنة لرجالها، وتمييز للطيّب من الخبيث من أبنائها..

وهي قبل ذلك وبعده تكشف لنا عن سنّة إلهيّة في الخلق، وفطرة في طبائع النفوس، ينبغي أن يعيها المؤمنون، ليحسنوا التعامل معها في بناء المجتمع، وفي الدعوة إلى الله، وفي كلّ شأن من شئون الحياة..

وفي حركة بناء الأمّة في العهد المدنيّ، ولمزيد من توضيح معالم الحقّ، وفضح سرائر المنافقين وأساليبهم في المكر والخداع تنزّلت مع المواقف والأحداث سورة براءة، التي سمّيت: الفاضحة، لأنّها عرّتهم من كلّ زور كانوا يتوارون خلفه في كلّ موقف.. وتنزّلت سورة «المنافقون»، بفضح مواقفهم، التي أسقطتهم في أعين أقرب المقرّبين إليهم.. وفي كثير من الأحيان أدّت مواقفهم الماكرة إلى عكس ما كانوا يخطّطون له ويبيّتون.. أفلا يحقّ بعد ذلك للمؤمنين أن يفرحوا بفضيحة هؤلاء المفسدين، كيلا يكونوا فتنة لضعاف النفوس، الذين تخدعهم المظاهر، ويلتبس عليهم بزخرف القول الحقّ بالباطل..

فلا ينبغي أن تفجأ خيار الأمّة تلك الطبائع الدنيّة المريضة، أو تصدّهم عن المضيّ في المنهج، الذي ارتضاه الله لهم، وهداهم إليه، واختطّ لهم نبيّهم صلّى الله عليه وسلّم معالمه، بسيرته العمليّة وهديه.. وكان عليه في جميع مراحل دعوته: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وهو قد تركهم على المحجّة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلّا هالك، فكان هديه صلّى الله عليه وسلّم نبراساً للأمّة يهتدون به في كلّ فتنة مدلهمّة..

وإنّ الدين والتاريخ ليعلّمنا أنّ من سنن الله تعالى أن تختطف شعوب من الأمّة إلى حين، ولكنّ هذه الأمّة لا تجتمع كلّها على ضلالة، والحياة صراع بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ.. وقد ينحرف بعض العلماء والمشايخ مهما كان شأنهم، فتزلّ بهم القدم عن الحقّ

لأسباب مختلفة، ويسيرون في ركاب الباطل، ويكونون تحت أيدي الطغاة، وأعواناً لهم على الشرّ وأبواقاً.. ولكن لا يزال في الأمّة طائفة قائمة على الحقّ، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يضرّهم من خذلهم، حتّى تقوم الساعة..

وهذه الطائفة مبثوثة في فئات الأمّة كلّها؛ رجالها ونسائها، وشيبها وشبّانها، بهم تقوم حجّة الله تعالى على من خذلهم، وهم شوكة في عيون أعدائهم، وحسرة في قلوب المنافقين، وغصّة في حلوقهم..

أفليس لنا أن نقول بعد ذلك عن هذا التطبيع الأثيم: ﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾؟!

فما تمرّ به الأمّة اليوم من محنة التطبيع مع العدوّ الصهيونيّ المغتصب، وقد سبقه في هذا الشرّ أمثال، هو باطل بكلّ اعتبار، لأنّه خارج عن سنن الله تعالى في الخلق، كما هو خارج عن سنن الله في الأمر، لأنّ التنازل عن الحقّ لا يقلب الباطل حقّاً، ولا المُجرم محسناً، ولا يسقط الحقوق ويضيّعها، والظلم يبقى ظلماً، تأباه النفوس الحرّة الأبيّة، مهما طال الزمن، وتواطأ على البغي المجرمون المُتسلّطون.. وإنّما هو في حقيقته الساطعة يفضح نفاق المنافقين، ويعرّف الأمّة بأعدائها المُتستّرين، بغِلالة زور لا تقي من حَرّ أو قرّ..

وإنّ التاريخ القريب المعاصر ليثبت أنّ الأنظمة التي استجرّت إلى التطبيع الأثيم، كانت معزولةً عن شعوبها، غاية العزلة، بل وعن مؤسّساتها بدرجات متفاوتة؛ فهذه مصر التي كانت سابقة إلى هذا المستنقع، وقف فيها شيخ الأزهر الشريف الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله.. بفتواه الشهيرة في وجه طوفان التطبيع، وأعلن في بيان له نشرته صحافة العالم: (أنّ من يذهب إلى القدس من المسلمين آثم آثم..).

وعندما جاء رئيس الكيان الصهيوني/ عيزرا وايزمان في زيارة للقاهرة، وقد رتبت له الرئاسة لقاء مع شيخ الأزهر (ويبدو أنّها لم تكن بترتيب مسبق مع الشيخ). فما كان من أسد الأزهر الشيخ جاد الحق؟ إلّا أن رفض مقابلته رفضاً قاطعاً، وقال: (لن ألوّث يدي بمصافحة قتلة أطفالنا، ومغتصبي أرضنا). وأصرّ على موقفه المُشرّف، ممّا سبّب حرجاً بالغاً لمبارك وحكومته).

كما رفض رحمه الله بشكل قاطع حصول إسرائيل على مياه النيل، وقال جملته الشهيرة: (إن حصول إسرائيل على مياه النيل أصعب من امتلاكها سطح القمر).. وحملت العديد من

الصحف العالمية هذه الجملة في صدر صفحاتها في اليوم التالي. فكان موقفه خير تعبير عن ضمير الأمّة الحيّ الأصيل.. وهو نموذج من مئات النماذج في هذه الأمّة..

كما أنّ تقارير الكيان الصهيوني كلّها تؤكّد أنّ الشعب المصريّ الأصيل بعيد كلّ البعد عن تقبّل شيء من التطبيع أو التجاوب معه.. فعلام يراهن الأغبياء الأذلّاء؟!

فلا تفرحوا أيّها المنافقون المارقون عن دين الله، وسننه في الحياة.. فلن تكون عواقب كيدكم إلّا إلى تباب وبوار.. ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

إنّ سنن الله غلّابة، وذاكرة الأمّة لا تخون، والشعوب أقوى من طغاتها وأبقى، يذهب كيدهم ويرحلون، وهي تبقى، وتمسح أعمالهم، وتحبط في الدنيا قبل الأخرة، وينفقون أموالهم لنصر الباطل، ثمّ تكون عليهم حسرة، ثمّ يغلبون.. ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وأنتم أيّها المرابطون على ثغور القدس، وأكناف الأقصى، وأرض غزّة العزّة: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* * * * *

أزمة الأمة من أين تبدأ؟

(كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ) رواه البخاريّ.

تعيش الأُمَّة مرحلة تيهٍ وضياع ثقافيٍّ وتربويٍّ، لا عهد لها به من قبل بهذه الصورة، إذِ استَهدف هويَّتها وقيمها، وتراثها وحضارتها، وخيَّم على علاقاتها، وهدَّد مستقبلها..

ومظاهر هذا الضياع كثيرة متنوِّعة، لعلَّ أهمَّها:

١ـ فَقْد الهوّيَّة والانتماء، أو ما نسمِّيه تيه البوصلة، أو تجاذبها في كلِّ الاتِّجاهات وتذبذبها.

٢ـ التبعيَّة العمياء للغرب، والاستلاب الحضاريّ، والتقليد الأعمى.

٣ـ التحيُّز والتعصُّب، وفقد الموضوعيَّة والمعايير العلميَّة، ويتمثَّل ذلك في:

أ ـ رفض التعرُّف العلميّ على تراث الأُمَّة أو الاعتراف به، والافتتان بكلِّ ما يأتي من الغرب والتسليم به.

ب ـ التبرير المطلق لسلبيَّات الغرب وسيِّئاته، والاتِّهام المطلق لحسنات الشرق وإيجابيَّاته.

ج ـ تناقض الشخصيَّة والسلوك؛ ويتمثَّل ذلك في الفصل بين الفكر والسلوك، وبين الدِّين والدنيا، وبين الدنيا والآخرة.

د ـ الصراع الداخليُّ الظاهر والخفيُّ بين مختلف فئات الأُمَّة، وما يمثِّلها من مؤسَّسات، نتيجة تناقض الولاءات، واختلاف الانتماءات، ممَّا نشأ عنه التسلُّط والتغوُّل على هويَّة الأُمَّة وانتمائها.

هـ ـ الجهل الفاضح بتاريخ الإسلام وحضارته وعلومه، والتتلمذ في هذا الباب على موائد أعدائه وافتراءاته.

ولعلَّ بعضنا يتساءل: ومن أين تبدأ أزمة الهوِيَّة والانتماء؟!

إنّها تبدأ حيث يبدأ الإنسان.. تبدأ من طفولته، بل قبل ولادته.. وتبقى معه كلَّ حياته..

ومن هنا فقد كان لطفولة الإنسان من تلكم المظاهر من الضياع - وللأسف - حظٌّ كبير، وسهمٌ خطير.. ولا عجب في ذلك، ونحن نعلم أنَّ مستقبل الإنسان يُصنع في مهد الطفولة، ومحضن التربية، وما لم يبدأ منها، ويتحرَّ احتياجاتها ومتطلَّباتها؛ فإنَّ الخلل والفراغ يعسر جدّاً أو يستحيل أن يسدَّ في مرحلة عمريَّة لاحقة، أو يستدرك بعد فواته..

والناظرُ في واقع الأُمَّة منذ أكثر من قرن مضى يرى أنَّ الطفولة التي أَوْلاها الإسلام كلَّ عنايةٍ ورعاية - ويتَّصل بها ولا شكَّ حال المرأة والأسرة - لم تحظَ من الأُمَّة أفراداً ومجتمعاً ومؤسَّسات عامَّة وخاصَّة بما يليق بها من رعاية، وبقيت مهمَّشة مهملة، بل لا تعرف إلَّا الطرق السقيمة، والأساليب العقيمة، ممَّا انعكس بالسلبيَّة على واقع الأُمَّة بكلِّ جوانبه..

ولا غرابة في ذلك ولا عجب؛ فطفولة الأطفال هي مرآة عن عقليَّة الكبار وثقافة الكبار..

فعندما شهدت الأُمَّة صحوة في دينها عامَّة، كان حظُّ الطفولة من الاهتمام والعناية أقلَّ ممّا يجب بكثير، فبقيت الطفولة في اهتمامات الدعاة والمختصِّين منسيَّة أو مهملة.. فبقيت الصحوة الإسلاميَّة التي نتحدَّث عنها ونتغنَّى بها مختلَّة الأركان، ضعيفة البنيان، في الوقت الذي كان فيه توجُّه الغرب إلى الطفولة يأخذ أبعاده العلميَّة والفكريَّة والتربويَّة على كلِّ صعيد، ويشغل بالَ المؤسَّسات العلميَّة والبحثيَّة، وتبذل له الأموال الهائلة، وتعقد له

الندوات والمؤتمرات.. لأنَّهم أدركوا أنَّ مستقبل الأمَّة مرتهن بأطفالها.. ونحن غائبون أو ذاهلون عمَّا يجري حولنا..

ثمَّ صحونا مرَّة أخرى لنجِد أنفسنا مسبوقين في ميدان كان لنا فيه السبق، يوم كنَّا رعاة حضارة، وبناة نهضة.. ولكنَّ سنَّة الله في الحياة أنَّ الواقف يكتب عليه التخلُّف عن الركب، مهما كان من قبل مجدّاً سبَّاقاً، وأنَّ الفكر الإنسانيَّ في حركةٍ دائبة، وتجدُّد مستمرٍّ، لا يعطِّله التوقُّف في جهة عن النموّ والمسير في جهةٍ أخرى.. فتلك سنَّة الله في الحياة.

لقد سَبَقنا الغرب في عدَّة ميادين من رعاية الطفولة، سَبَقنا في نظريَّاته.. وسَبَقنا في نظمه التعليميَّة والتربويَّة ومناهجه.. وسَبَقنا في خططه وبرامجه.. وسَبَقنا في الكمِّ الهائل من مؤسَّساته التربويَّة المتخصِّصة المتطوِّرة، التي تجعل الطفولة محور عملها.. وبغضِّ النظر عن تحفُّظاتنا على كثير ممَّا نختلف معه فيه ممَّا يخالف ديننا وعقيدتنا..

ولعلَّ أهمَّ ما نسجِّله في هذا الميدان أن نقول: إنَّ الغرب تفوَّق علينا باهتمامه الشديد وعنايته الفائقة بتحويل المبادئ والأفكار إلى خطط واقعيَّة، وبرامج عمل وتدريب.. وكنَّا أحقّ بذلك وأهلَه.. بينما لا يزال أكثرنا يقف عند كثير من المبادئ والنظريَّات التربويَّة، يشيد بها، ويتغنَّى بجمالها، ويعتزُّ بأنّ كثيراً منها من قيمنا وتراثنا.. ثمّ لا تَعرف السبيل إلى واقعه، ولا يكون لها أثر في حياته..

والله تعالى يهدِّد الذين يقولون ما لا يفعلون بمقته وشدَّة غضبه، إذ يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وما هذا التهديد والوعيد إلَّا لأنَّ الأفكار والخطط، لا وزن لها ولا قيمة بغير العمل.

* * * * *

حصون الأمة بين الاختراق والتدمير

إنَّ التَّركة التي ورثتها الأمَّة عن الاستعمار تَركةٌ ثقيلةٌ مرهِقةٌ، وأخطر ما فيها: هو اختراق الغرب للعقول والأفكار، وتمكُّنه من تشكيل طبقة من النُّخب في هذه الأُمَّة، وفق فكره وثقافته، وزرعها في موقع القيادة والتأثير والتغيير..

لقد سقطت معظم البلاد الإسلاميَّة تحت وطأة الاستعمار الغربيّ، إذ لم تنقضِ الحربُ العالميَّة الأولى إلَّا والعالم الإسلاميُّ يرزح تحت نَير الاستعمار.. فتمكَّن من مدِّ نُفوذه إلى

قلب العالم الإسلاميّ، وتمَّت له السيطرة التامَّة على المسلمين، وكان ضَعف المسلمين هو السبب الأكبر للاستعمار، وليس العكس.. ثمَّ كان الاستعمارُ حريصاً على أن يقتلَ بقايا الخير في الأمَّة، وكلّ ومضَة من ومضات التحفُّز للنهوض لديها.. وكانت المدرَسة أول وسائله لتحقيق ذلك، وأقربها وأقواها تأثيراً..

يقول ساطع الحصريّ عن مناهج التعليم في سورية: (إنَّ النظمَ العديدة التي وضعتْ في سورية ـ في عهد الانتداب الفرنسيّ ـ إنَّما وُضعت تنفيذاً لسياسة مرسومة بوضوحٍ وإتقانٍ... وإنَّ غاية هذه السياسة كانت تأمين سيطرة الثقافة الفرنسيَّة، والنظم الفرنسيَّة على معارف البلاد سيطرة مطلَقة، من غير التفاتٍ إلى ما تتطلَّبه أصول التربية السليمة والعلم الصحيح).

ويقولُ الدكتور عمر فرّوخ والدكتور مصطفى الخالديّ في كتابهما: (التبشير والاستعمَار): (كان للمبشِّرين غاية أخرى من التعليم العالي: هي أن يُؤَثِّرُوا في قادة الرأي، وفي الجيل الناشئ في الشرق الأدنى، ذلك التأثير الذي لا يمكن أن يتحقَّق إذا لم يكن ثمَّة تعليم عالٍ، وعلى هذا الأساس أوجد المبشِّرون البروتستانت كلِّيَّة بيروت عام ١٨٦٢م، وجعلوا على رأسها دانيال بلس، هذه الكلِّيَّة أصبحت فيما بعد الكلِّيَّة السوريَّة الإنجيليَّة، ثمَّ هي اليوم الجامعة الأمريكيَّة في بيروت.. وحتَّى عَام ١٩٢٢م كانت الجامعة الأمريكيَّة لا تزال تُصرُّ على تعليم التوراة! وكانت روبرت في إستانبول هيَ كلِّيَّة نصرانيَّة غيرُ مستتِرة في تعليمها، ولا في الجوِّ الذي تهيئه لطلَّابها)..

ويقول دانيال بلس: (إنَّ كلِّيَّة بيروت، وكلِّيَّة إستانبول ليستا أختين فقط بل همَا توأمَان، إنَّ هذه الكلِّيَّة ـ يعني كلِّيَّة روبرت ـ قد أنشأها مبشِّر، ولا تزال إلى اليوم لا يتولَّى رئاستها إلَّا مبشِّر)!

وتقول المبشِّرة آنا ميلغيان: (في فصول كلِّيَّة البنات في القاهرةِ بنات آباؤهنَّ باشوات وبكوات، وليس ثمَّة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ النصرانيّ، وليس ثمَّة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرَسة).

ولا يخفى أنَّ هذه الأهداف المعلنة تتنافى مع قيم أيّ مجتمع وحرِّيَّته، إذ إنَّ معنى التنشئة الاجتماعيَّة هي تربية الأفراد في سبيل تحقيق أهداف المجتمع الذي يعيشون فيه.

يقول سر برسنن وهو يُعتبر من آباء التربية في إنجلترا: (سلك الناس مسالك مختلفة لتعريف التربية، ولكنَّ الفكرة الأساسيَّة التي لا يمكن أن يخلو منها أيّ تعريف: أنَّ التربية هي الجهْد الذي يقوم به آباء شعبٍ ومربُّوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظريَّة الحياة

التي يؤمنون بها، إنَّ وظيفة المدرَسة أن تمنح القوى الروحيَّة فرصة التأثير في التلميذ، تلك القوى الروحيَّة التي تتَّصل بنظريَّة الحياة، وتُربِّي التلميذ تربية تؤدِّي إلى الاحتفاظ بحياة الشعب).

لقد مضى على الأمَّة عهد كان فيه للعلمانيَّة التغريبيَّة مدٌّ هائج، أشبه بالزَّبَد الطَّافي على وجه السيلِ، الذي يعتدي في طريقه على كلِّ شيء، أو عَيث اللصوص حين يغفُل صاحب الأرض عن أرضه، أو ينام عن حقِّه، ويصوِّر ذلك الدكتور محمَّد أمين المصريّ فيقول: (إنَّ المناهج في البلاد الإسلاميَّة ليست مصطبغةً بِصبغةٍ إسلاميَّة، وجوُّ المدرسة ليس جوّاً إسلاميّاً، وجلّ الأساتذة من حملة الشهادات ممَّن يتنكَّر للإسلام، أو يفهمه فهماً منحرفاً مائلاً عن الصواب، يبتعد فيه عن الإسلام ابتعاداً كبيراً على الغالب، وحملة الفكرة الإسلاميَّة قلَّة منبُوذون).

ولا تزال الأمَّة تعاني وتعاني من آثار الاستعمار ولوثاته على كلِّ صعيد، وفي مناهجِ التعليم خاصَّة، والضحيَّة هي الطفولة الضائعة، والأجيال التائهة.. ولن تفلح الأمَّة إلَّا إذا تحرَّرت من تلك الآصار، واستعادت هوِّيَّتها بكلِّ وعي وإصرار.

* * * * *

حَيرة أهل الحلم في عَواصِف الفِتن

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً؛ فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: الصَّلاَةَ جَامِعَةً. فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقّاً عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضاً، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي. ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ. فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ». [صحيح مسلم ٦: ١٨].

قَوْلُهُ: (وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ) هُوَ بِفَتْحِ الْجِيمِ وَالشِّينِ وَهِيَ الدَّوَابُّ الَّتِي تَرْعَى وَتَبِيتُ مَكَانَهَا. كما في شرح النووي على صحيح مسلم.

وروى أبو هريرة، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يكون في آخر الزَّمَان رجالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنيا بالدِّين، يَلبسُونَ للناس جلودَ الضَّأنِ من اللِّين، ألسِنَتُهمْ أَحلى مِن العَسَل، وقلُوبُهم قُلُوبُ الذِّئَابِ، يقول الله تعالى: أبي يَغْتَرُّونَ، أم عليَّ يَجْتَرِئونَ؟ فبي حَلَفْتُ، لأبعَثَنَّ على أُولئكَ منهم فِتْنَةً تَدَعُ الحليمَ حَيرَانَ». أخرجه الترمذي وسعيد بن منصور في سننه، والخطيب في الفقيه والمتفقّه، وهو حديث حسن.

الحَيرة هي تردّد المرء بين أمرين أو أكثر. وتكون على أشدّها، وتبلغ أقصى مداها عندما تطال ذوي العقول الراجحة، أهل الحلم والحكمة.

ومن أهمّ أوجه هذه الحَيرة في عَواصِفُ الفتن:

أن يلتبس موقف أهل الحقّ بشيء من الباطل، ويلتبس موقف أهل الباطل بشيء من الحقّ، ولكنّ العبرة بالأصل العامّ، لا بما يخالطه ويعتريه من التباسات.

أن لا تجتمع كلمة أهل الحقّ، ويتجاذبَ الناسَ فيها تقدير المصالح والمفاسد.

أن يجنح بعض من يحمل لواء الحقّ عن منهج الحقّ بفكره وبعض اعتقاداته أو أهوائه.

أن يتجاذبَ الناسُ فيها فهم ظواهرها وخفاياها، وتشخيصَ دوافعها وأسبابها، وتقديرَ آثارها ونتائجها، والمنهجَ السليم لمعالجتها.

أن يشتملَ موقفُ أهل الحقّ فيها على كثير من شوائب الباطل من حيث العمل والسلوك، ممّا يجعل بعض أهل الحقّ يتردّد في الموقف منها.

أن يخوض في الحديث عنها من يعلم، ومن لا يعلم، ويرتفع فيها صوت الجاهل على صوت العالم، ويصبح الناس فوضى لا سراة لهم، ولا كبير يفصل بينهم.

أن يتفرّقَ فيها أهلُ الحقّ عن حقّهم، ويجتمعَ أهلُ الباطل على باطلهم.

هذه سبع نقاط مجملة تدخل تحتها تفصيلات عديدة، ونقاط فرعيّة كثيرة..

ومع أهمّيّة هذه نقاط ووجاهتها فإنّها لا تبرّر لأحد من أهل الحقّ الوقوف مع أهلِ الباطل ومساندتهم، أو السكوت عنهم والاعتذار لهم..

وإنّما وصفتها بعَواصِف الفتن لاجتماع ثلاث صفات فيها:

تعقّد مشهدها واتّساع رقعتها، وطول مدّتها.

تشابك أسبابها ودوافعها، وعمق مقدّماتها.

تداخل المؤثّرات فيها وعلاقاتها، وسوء آثارها..
وقد استلهمت صفاتها من واقع ما تعيشه الأمّة في أقطار عديدة..

* * * * *

الحقيقة المرة: نحن لا ننهزم.. ننتصر أو نموت!

الحقيقة المرّة التي غابت عن أكثر الناس منذ انطلاق هذه الثورة، وأدركها بعضهم بجزئيّة وضبابيّة هي أنّ العالم الغربيّ كلّه من شرقه إلى غربه، وبشماله وجنوبه هو الذي تآمر على قتل الشعب السوريّ، وهو الذي خطّط لهذه الجريمة ودبّر، ووزّع الأدوار وأمر..

وذلك لهدف استراتيجيّ أكبر، يتمثّل في هذه الجملة: «لا نريد أن يسقط هذا العميل، مهما كلّف الثمن»..

وفي سبيل هذا الهدف أمر العميل بن العميل، المجرم الجزّار أن يباشر بقتل الشعب لأدنى مشكلة يفتعلها معه، وأن يستمرّ بالقتل، ويصعّد من أساليبه، ويستخدم كلّ ما لديه من أساليب القتل وأدواته، تحت سمع العالم وبصره، ويقف العالم متفرّجاً عليه، وكأنّه أمام مشهد تمثيليّ، ومحرّضاً له بتصريحات تلو تصريحات، ويعطيه مهلة للقتل بعد مهلة.. ويوزّع بين لاعبيه الأدوار، ويدخل الممثّلين ممثّلاً بعد ممثّل، إلى خشبة المسرح السوريّ، بطول جغرافيّته وعرضها، كيلا يملّ الزبائن المشاهدون، من تكرار فصول المسرحيّة وتشابهها..

وذرّاً للرماد في عيون هذا الشعب المنكوب، ومن معه من أحرار الضمائر والعقول، فلا بد من تخدير المشاعر الثائرة بوعود التصريحات، الحامية والباردة، والمراوغة والوقحة، ولا بد من مدّ الحبال للإمساك بأيدي الغرقى، أو إلقاء الحبال إليهم، ولكن دون انتشالهم وإنقاذهم، ولا بد من تعليقهم بالوعود بعد الوعود، وإلقاء التهم عليهم تهمة بعد تهمة، ليتراجعوا عن كثير من مطالبهم، ويخفضوا من سقف طموحاتهم، فالخطر منهم مؤكّد معلوم، والمصلحة من عدوّهم العميل مؤكّدة ظاهرة..

ويغيّر كثير من المساكين ممّن يسمّون معارضة ملابسهم، ويعدّلون من هيئاتهم، ويجعجعون فوق الطاولة، ويغازلون من تحتها.. ويملك الممثّلون المتآمرون الكبار متّكآت كثيرة يراوغون بها هذا الشعب المنكوب، والمعارضة البئيسة.. يلعبون بهم كما يلعب اللاعبون بتلك الكرة المسكينة، التي لا حول لها ولا قوّة..

ويمضي العميل يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، ويمضي العالم في مراوغته وخداعه، يلقي علينا اللوم، ويبيعنا الكلام..

فهل نيأس بعد كلّ هذا أو نستسلم؟ وهل نندم على ما قدّمنا، وما حلّ بنا؟ إنّ الجواب طويل على هذه الأسئلة التي تجول في عقول كثير من الناس من قريبين، يعيشون المأساة بكلّ أبعادها، أو محبّين مشفقين، يخشون هزيمة الثورة، وانتصار المجرم الجزّار..

ويمكن اختصار الجواب بإجمال، في كلمات قليلة، تحمل حقائق ضخمة عظيمة، يمكن إجماله بكلمة عظيمة، رفعها الثوّار شعاراً لهم في كلّ مظاهرة، وهتفت بها حناجرهم، واسترخصوا في سبيلها دماءهم وأرواحهم، إنّها كلمة: «الله أكبر»، التي زلزلت ولا تزال تزلزل قلوب الطغاة وأزلامهم، كما تدمّر عروشهم وبنيانهم..

ومن وراء هذه الكلمة حجج الإيمان، وبراهين الزمان والمكان، ووقائع التاريخ القريب والبعيد.. لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد..

وإنّ من أعظم حجج الإيمان قول الحقّ سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله جلّ من قائل: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

هذه هي الحقيقة المرّة التي تعيشها سورية.. والأمرّ منها والأنكى أن لا يدركها كثير من الثائرين والمعارضين، ولا يحسنوا التعامل معها، أو يكابروا في الاعتراف بها.. والأمرُّ من ذلك أن لا ترتقي النفوس المؤمنة بها إلى المستوى المعنويِّ والمادِّيِّ، الذي يؤهِّلها لتعجيل النصر من الله تعالى لها: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

فهل يستطيع الشعب الذي تطحنه آلة القتل، وتعبث به مضخّات الخداع والتخدير أن يحطّم قواعد اللعبة، ويخرج عن مسرح التمثيل، ويقذف بمخطّطات الجريمة في وجوه أصحابها، ويقرّر مصيره بإذن الله بدمائه وتضحياته.. إنّه لقادر على ذلك بإذن الله، وما ذلك على الله بعزيز.. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ [الإسراء: ٥١].

* * * * *

الثورة السورية تتحدى

لم يكن أحد من السوريّين الثائرين على هذا النظام، من شباب، وسياسيّين، وعسكريّين، ومفكّرين يتصوّرون بوضوح مدى التصاق رأس هذا النظام المجرم، القابع في دمشق بالنظام العالميّ، وكان قصارى الظنّ به أنّه عميل من جملة العملاء، وأجير من الأجراء، عندما ينتهي دوره يتخلّى عنه أسياده أسوة بغيره، ويلقون به إلى مزبلة التاريخ..

ولكنّ الواقع أثبت أنّه جزء من النظام العالميّ لا يتجزّأ، وركن منه ركين.. فهو بلا شكّ سيستميت في دعمه وتأييده، وخذلان الثائرين عليه إلى أبعد مدى..

ومن هنا فإنّ انتصار الثورة السوريّة سيخلخل النظام العالميّ كلّه، ويحدث زلزلة كبرى في مخطّطاته، تجعله يعيد النظر في استراتيجيّته وأساليب عمله..

ويومًا بعد يوم تتّضح لنا الصورة أكثر: إرادة عالميّة مجمعة ومصرّة على إلّا تنتصر هذه الثورة.. تتنوّع أساليبهم، وتتوزّع الأدوار بينهم، وتختلف مواقفهم في ظاهر الأمر وتصريحاتهم.. ولكنّها تتّفق كلّها على هدف واحد، تخطّط له تلك الإرادة العالميّة، في أوكارها القذرة، وبكلّ مكر ودهاء، وتعمل له بكلّ قوّة سرًّا وجهرًا، علينا ومع عدوّنا.. هو إلّا تنتصر هذه الثورة، وإلّا يسقط هذا المجرم ونظامه.. لأنّه بكلّ وضوح جزء من نظامهم الخبيث، وأداة من أدواته، بل وركن من أركانه.. وإنّ مَثَل هذا النظام منهم كمثل آلة القتل في يد القاتل.. فهل تحاسب آلة القتل أم يد القاتل؟

الرؤية الصحيحة لمحطّات الطرح السياسيّ، بعيداً عن الغبش والتشويش: فمنذ أن قامت الثورة السوريّة وإلى يومنا هذا وقف الغرب منها مواقف متذبذبةً، من خلال تصريحاته الداعمة بالكلام للثورة، إلى التشكيك بنجاحها، والتخوّف من عواقبها، إلى التعلّل بتفرّق المعارضة، وعدم اجتماع كلمتها، لتبرير عدم دعمها، إلى الدعوة السخيفة للطاغية أن يتنحّى، وهم يعلمون أنّه يعضّ على كرسيّه أكثر ممّا يعضّ الكلب العقور على فريسته..

ثمّ ظهر المجلس الوطنيّ ممثّلًا للمعارضة، فلم يلق له الغرب بالًا، بحجّة أنّه لا يجمع المعارضة كلّها.. واشتدّ عود الثورة على الأرض، وقطع الثوّار الشوك بأيديهم، وتطلّعوا إلى شيء من الدعم الخارجيّ، يتناسب مع التصريحات الخلّبيّة التي يسمعونها، فلم يرجعوا من ذلك بطائل.. وبالغ النظام في إجرامه المنهج، تحت سمع العالم وبصره، فلم يسمع إلّا أقلّ القليل من النكير..

وقامت سوق المبادرات عربيّة ودوليّة، واحدة بعد أخرى، ولم تكن كلّها إلّا ذرّاً للرماد في العيون، وبالونات اختبار لإرادة الشعب: هل يقبل المساومة على ثورته بشيء من أنصاف الحلول؟ وهل ملّ البذل والتضحيات؟ وهل ندم على ما أقدم عليه؟

وتوجّه سيل الاتّهامات إلى المجلس الوطنيّ بالحقّ وبالباطل، والقصد الأوّل والآخر ليّ الذراع، وكسر سقف المطالب، واتّضحت مواقف المجلس الوطنيّ أنّها لن تتخلّى عن مطالب الشعب، فأعلن الغرب بكلّ صفاقة عن رفضه لهذا المجلس، والسعي إلى العمل مع بديل عنه..

وظهر «الائتلاف» بين عشيّة وضحاها، وسلّطت عليه أضواء الإعلام، وأحيط بالوعود والأحلام، وتزامن مع ظهوره حديث الغرب عن «جبهة النصرة»، وتصنيفها مع المنظّمات الإرهابيّة، وكان أوّل اختبار للائتلاف، لاستجراره للدخول في خصومة مع الثائرين على الأرض.. ونجح الائتلاف وسقط الغرب.. كما أعلن الثوّار بكل أطيافهم واتّجاهاتهم، والمنظّمات المؤيّدة للثورة وقوفهم مع «جبهة النصرة»، ودفاعهم عنها، وأخذت تتبخّر الوعود والأحلام، وخبا بريق الائتلاف أسرع من بريق المجلس الوطنيّ..

وكلّ ذلك يؤكّد بما لا يدع مجالًا للشكّ أن الغرب لا يريد لهذا النظام المجرم أن يسقط، ويعمل بكلّ ما أوتي من قوّة لإجهاض هذه الثورة..

فهل وعينا هذا المكر الغربيّ؟! وماذا أعددنا له؟!

إنّ شعبنا بكلّ مدنه وقراه، وأريافه وأطيافه، قد حزم أمره، وأمضى عزمه: إلّا تراجع عن هذه الثورة: «ننتصر أو نموت، وأعلن بكلّ إيمان وقوّة يقين: «يا الله! ما لنا غيرك يا الله»! وجعل شعاره في كلّ حركة: «الله أكبر»!

فهل يكفي ذلك؟ إنّه ولا شكّ خير كبير، وعدّة للنصر عظيمة، ولكنّها غير كافية.. فلا بدّ مع كلّ ذلك من اجتماع الكلمة، وحسن التخطيط، وحشد الطاقات، وإحكام الأسباب، وإدخال البعد الإسلاميّ بقوّة، ما دام عدوّنا يدعمه النظام العالميّ ويؤيّده، ويمدّه بأسباب القتل والتدمير..

ولن تبلغ عندئذٍ قوى المكر كلّها أن تكون بوزن هباءة أمام قوّة الله وتأييده: و: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿وَاللهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أيّها العالم من شرقه إلى غربه، بعجمه وعربه.. الثورة السوريّة تتحدّى.. ليس تحدّيات فارغة، كتحدّيات النظام العفن لإسرائيل، ولكنّها تحدّيات بقوّة الله جلّ وعلا، بقوّة الحقّ الذي تؤمن به، وتدافع عنه، بقوّة الوعد النبويّ الصادق، للطائفة القائمة على الحقّ أنّها منصورة بإذن الله، بوعد الله لجنده ورسله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧].

* * * * *

ميثاق الحق والشرف للمجاهدين والعاملين في الميدان:

يقول الله تعالى: ﴿وَالعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر].

تتعرّض ثورةُ الحرّيّة والكرامةِ في سورية منذ قامت لمَخاض عسير على كلّ المستويات، وتطفو على السطح إيجابيّات كثيرة، كما تطفو السلبيات.. ولأسباب مختلفة، ودوافع متعدّدة.. يضجّ كثير من الناس من بعض السلبيّات التي يرونها.

فيرفعون أصواتهم بالنقد المرير، والطعن والتجريح، وتوزيع التهم على الناس يمنة ويسرة، فيزيدون بذلك السلبيّات أحمالاً ثقالاً، ويعقّدون المَشهدَ بدلاً عن الإسهام في الإصلاح والترشيد..

ويستغلّ العدوّ ما يجري إلى أبعد الحدود، ويعمل على زيادته وتفاقمه، وتشويه صورة الثورة، والتشكيك بأهدافها، ومن وراءها..

كما يحتجّ ـ وللأسف ـ أولئك المتخاذلون عن نصرة إخوانهم، فيشيعون تلك السلبيّات، ويضخّمونها، ليبرّروا مواقفهم المتثاقلة عن نصرة الحقّ وأهله..

ويجمع أولو العلم بتاريخ ثورات الإصلاح والتغيير على مدى التاريخ أنّ الثورات لا بدّ أن تكتنفها سلبيّات، وممارسات مخطئة، ولا بدّ أن يندسّ في صفوفها أصحاب قلوب مريضة، ودوافع مريبة، ومستغلّون متاجرون..

ولا بدّ لأهل العقل والحكمة فيها أن تكون رعايتهم حكيمة واعية، ورقابتهم دقيقة، لترشيد مسار الثورة، وتصحيح وجهتها، وكشف المغرضين المفسدين، وقطع الطريق عليهم.. وإلّا كتب عليها الإخفاق، وآل أمرها إلى البوار والاندثار..

وإنّ كثيراً من المراقبين للثورة السوريّة المنصفين، والمحلّلين المدقّقين، ليؤكّدون أنّ ما أفرزته هذه الثورة من سلبيّات أقلّ بكثير من سلبيّات غيرها، كما أنّه لا يمكن أن يقارن بالإيجابيّات التي حقّقتها حتّى الآن..

إنّها ولا شكّ في مخاض دمويّ عسير، ولن يكون بعده بإذن الله إلّا الولادة الجديدة.. لإنسان سورية، وأرضها، ونظامها..

وتحقيقاً للنصح والرشد، والتواصي بالحقّ في مسار الثورة واتّجاه أبنائها فإنّي أضع هذا الميثاق، الذي سمّيته: «مِيثاقَ الحَقِّ والشّرَفِ» بين يدي قادة الكتائب المجاهدين وأفرادهم، وكلّ عامل لنصرة الثورة في أيّ ميدان كان..

وكلّ ما فيه مستمدّ من كتاب الله تعالى، وهو من حقائق الإسلام البدهيّة المسلّمة، وإنّما أردت بذلك النصح والتذكير: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

١ـ الاعتصام بحبل الله المتين، والتمسّك بدين الله تعالى، والاستقامة كما أمر، وطاعة اللهِ تعالى وَرَسُولِهُ صَلّى اللهُ عَليهِ وسَلّمَ في كلّ شأن، فهو خير العدّة والزاد، وأمضى السلاح، وأقوى العتاد، وهو الأصل الأوّل في حياة الأمّة، والشرط الأكبر لنصر الله تعالى لها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلّكُمْ تُفْلَحُون. وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصّابِرِين﴾ [الأنفال: ٤٦].

٢ـ اجتماع القلوب على الله، وإخلاص العمل لوجهه يسبق اجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف، كما يسبق أيّ حوار بين العاملين..

والقلوب المجتمعة على الله تعالى، ونصرة دينه، والجهاد في سبيله من أهمّ أخلاقها وصفاتها: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿مُحَمّدٌ رّسُولُ اللهِ وَالّذِينَ مَعَهُ أَشِدّاء عَلَى الكُفّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ..﴾ [الفتح: ٢٩].

٣ـ الحرص على جمع الكلمة وتوحيد الصفوف، وإزالة العقبات التي تحول دون توحيد الرؤى والمواقف، التزاماً بقول الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرّقُوا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً، وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مّنَ النّارِ فَأَنقَذَكُم مِنْهَا، كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُون﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٤ـ الحذر كلّ الحذر من المنافقين مرضى القلوب، الذين يثبّطون الهمم، ويشيعون عن الأبرياء التهم، وينشرون الأكاذيب عن العاملين المخلصين، ويثيرون الخلافات، ويسعون

إلى زرع الشكوك، وشقّ الصفوف: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ، وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]..

ولا بدّ من حفظ ألسنتنا، والتثبّت والتحقّق من أيّ كلمة نسمعها، وأن نتحلّى بالوعي والبصيرة، التي تقطع الطريق على المرجفين المفسدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحُجُرات: ٦].

٥ـ أخوّة الإيمان تحول بين المؤمن وبين العدوان على دم أخيه أو عرضه أو ماله، أو ترويعه، أو إهانته، وعلى كلّ مُؤْمِن أن يسعى بالإصلاح بين المُؤْمِنينَ: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحُجُرات: ١٠].

٦ـ تفرُّق الأمَّة واختلاف كلمتها، أخطر سلاح يقدَّم لعدوِّها، وهو نذير عذاب عاجل، ولا يتنزَّل نصر الله تعالى ورحمته على أمَّة مختلفة متفرِّقة: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم﴾ [آل عمران: ١٠٥].

٧ـ التَّعَاوَنُ عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى يعدّ الحدّ الأدنى لتأهّل الأمّة لنصر الله تعالى وتأييده، وعونه وتمكينه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ، إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب﴾ [المائدة: ٢].

٨ـ على المسلم المُجاهِد أن يتَحلّى بالانضباط والطاعة، ولا يتصرّف بأيّ عمل قبل الرجوع إلى قيادته، وعليه أن يعلم أن لا طاعةَ لمخلُوقٍ في مَعصِيةِ الخالِقِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ، إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩].

٩ـ على القيادات المسلمة أن تتواصل فيما بينها مباشرة وتتشاور، وتتناصح وتتآزر، وتتبادل المعلومات، وتحرص على وحدة صفّ المجاهدين واجتماع كلمتهم، ولا تترك مجالاً للمغرضين لبثّ الأراجيف، والعبث بالعلاقة الأخويَّة بين المُجاهِدين: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

١٠ـ على المسلم المُجاهِد أن يشتغل بما يعنيه، ويقوّي استعداده، ويرفع كفاءته المادِّيَّة والمعنويَّة، ولا يتعرَّض لما لا علم ولا خبرة له فيه، ولا يتجرَّأ على الفتوى في الدماء والأموال، وعليه أن يردَّ الأمر كلَّه إلى أهله ومسؤوليه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ

أَوِ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [النساء: ٨٣].

هذا، وأرجو من الإخوة نشطاء الثورة في كلّ ميدان أن يلتزموا بهذا الميثاق، ويتواصوا به، كما أرجو من الإخوة قادة الكتائب أن يأخذوا العهد على منسوبي كتائبهم أن يلتزموا بهذا الميثاق، ولا يخرجوا عنه، والله الموفّق والهادي إلى سواء السَّبيل.

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ [الكهف: ١٠]

* * * * *

إنّ الصورة التي تجري على أرض سوريّة الحبيبة، بكلّ أجزائها وتفصيلاتها، وتباييناتها ووحشيّتها.. هي صورة مكشوفة مجسّمة، عن واقع السجون والمعتقلات، التي زرعها النظام الطاغي على مدار عقود من السنين في طول البلاد وعرضها، وتفنّن في قهر الشعب وإذلاله فيها.. فهي ليست غريبةً على الشعب السوريّ، الذي يعيش المعاناة والقهر، والذلّ والبطش منذ عقود، ولكنّ النظام القمعيّ الظالم كان يزوّر الحقائق، ويفتري الأكاذيب، ويعتّم على فساده وجرائمه، بآلة إعلاميّة ضخمة محتكرة، ويتواطأ معه أسياده، الذين يرون فيه حامي حمى إسرائيل.. ولكنّ اليوم غير الأمس، والجيل الجديد غير سابقه، وسبحان العليم الحكيم، مالك الملك، مغيّر الأحوال، وقاهر الجبابرة، ومذلّ الأكاسرة.. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٤ـ ٧] استوقفتني هذه الآيات الكريمة في بدايات سورة الروم، وكأنّها تتحدّث عن واقع شعبنا المجاهد المرابط في بلاد الشام.. الواقف بصوته الصادح، وصدره العاري، وظهره المكشوف، ليس له في محنته إلّا الله.. وقد تخلّى عنه الأقربون وجفاه الأبعدون.. وخطرت لي خواطر ورؤى من وحي هذه الآيات أحببت أن أسجّلها:

ما يجري في سورية اليوم ملحمة من ملاحم الجهاد التاريخيّة النادرة، ملحمة من أروع ملاحم الصراع بين الحقّ والباطل.. ملحمة يقف فيها الإيمان أمام الكفر والنفاق، والصدق أمام الكذب والدجل، والخداع والتلبيس، والعدل أمام الظلم والقهر، والبغي والعدوان.. ملحمة يقف فيها شعبنا الأعزل المصابر أمام آلات القتل الثقيلة المدمّرة، ووحشيّة الإنسان، إذ يتجرّد من كلّ القيم، ويتسلّط على أخيه الإنسان.. ملحمة يكتبها الأطفال والنساء،

والشباب والرجال، والشيوخ المستضعفون.. ملحمة تسطّر حروفها بدماء الشهداء، وبكاء الأطفال، وأنّات الثكالى، ودعاء الأرامل، وجراح المعذّبين، وآلام المعتقلين.. فهل ينسى التاريخ ما يجري على أرض بلاد الشام؟! وهل يغفل عنه فلا يسطّره؟!

إنّ من قصور الإنسان وضعفه أن يقف أسير اللحظة الحاضرة، فلا يستشرف آفاق المستقبل، ولا يستنطق سنن الله في الخلق.. فربّما سارع اليأس إلى قلبه عند ذلك والإحباط..

ولئن ضاعت الحقيقة أو ضيّعت عند بعض الناس، حتّى من السوريّين أنفسهم.. فإنّ التاريخ سيذكر تلك الدماء الزكيّة، التي روّت تراب الوطن بغير حساب.. سيذكر التاريخ بلا تزييف إعلاميّ كاذب، ولا دعايات مضلّلة، أنّ هذه الدماء التي أريقت في سبيل حرّيّة الإنسان وكرامته.. في سبيل وقف تيّار الفساد الهادر، الذي ضرب جذوره في الأرض، وفي أعماق بعض النفوس، واستشرى عقوداً من الزمن.. سيذكر التاريخ أنّ أصالة هذا الشعب لا يمكن أن تغيّب، أو تمحى، أو تستبدل.. إلّا إذا استبدل تكوين الإنسان نفسه، فأصبح مخلوقاً آخر.. سيذكر التاريخ.. ولا يمكن لأحد أن يزيّف ذاكرته: عمق الجرح الغائر، الذي شقّه الأب الطاغية في جسد الوطن، وما صنع له من نظام مغرق في الفساد.. ثمّ ورثه الابن ليكمّل ما اختطّ أبوه.. سيذكر التاريخ عمق الجرح الغائر في كيان الإنسان السوريّ، وما عانته شخصيّته من إفساد وتشويه، حتّى أصبحت ترى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والزور والبهتان حقّاً مقدّساً، والكذب صدقاً، والإفساد في الأرض إصلاحاً، وغدت تدعو إلى المنكر، وتنصر أعوانه، وتحارب المعروف، وتستخفّ بأهله.. وإنّها لغربة للحقّ ما بعدها من غربة.. سيذكر التاريخ أنّ طاقات الأمّة ومواردها، وخيراتها وثرواتها أهدرت كلّها بين أيدي الطاغية وأعوانه، وجلاّديه وأذنابه.. سيذكر التاريخ أنّ هذه العظمة الكاذبة المصطنعة، التي بناها وبنيت له ما كانت إلّا أوهاماً خادعة، ونسجاً واهناً من خيوط العنكبوت، ولكنّها محاطة بهالات من الأوهام والأكاذيب، فذهب ضحيّة زيفها وخداعها أولئك المفتونون، وثبت أمامها الأشاوس الأطهار، القابضون على لهيب الجمر، الظاهرون على الحقّ، كما بشّر بهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، لا يضرّهم من خذلهم أو خالفهم، حتّى يأتي أمر الله، وهم على ذلك..

إنّه لا عجب من كلّ ما يحدث في هذه الثورة المُباركة، فالذهب يعرض على النار ليذهب خبثه، ويُحرَق صدأه، وتظهر حقيقته، ويسطع بريقه.. لقد شاءت إرادة الله لهذا الشعب الحرّ الأصيل أن يكشف عن أصالة معدنه ونفاسته، وأن يميز الخبيث من الطيّب، فيفضح

أولئك المنافقين الوصوليّين المنتكسين، الذين جعلوا من الوطن العزيز وأبنائه الأحرار سوقاً للنخاسة، يبيعون فيها ويشترون، ويساومون ويماكسون، ويزايدون ويتناجشون، بلا حاجز يحجزهم، ولا ضمير يردعهم، وراجت تجارتهم الزائفة الخبيثة، على حين غفلة من الأهل واستغفال، فحسبوا أن سوق نخاستهم ستدوم أبد الدهر..

* * * * *

لقد شرعت قبيل هلاك طاغية ليبيا بأيّام بكتابة مقالة عن توقّع هلاكه القريب، ففاجأنا الحدث قبل إتمام المقالة، فنظرت إلى مسوّدة أفكارها بين يدي فكأنّها كتبت منذ عشر سنين.. وإنّ واقع الثورة في سورية ليبشّر بمثل ذلك بإذن الله.. فانظروا إلى الأمور بالبصائر لا بالأبصار، وبنور الحقّ لا بوساوس الشيطان.. ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وأنت أيّها الطاغية، ومن سار في فلكك وركابك! ومن أعانك على قتل شعبنا الحرّ وتعذيبه، ولو بكلمات التأييد، ولو بشطر كلمة، ولو بصمت الموتى، أو قسمات الرضا على الوجوه.. نقول لك بكلّ ثقة ويقين بوعد الله ونصره، وإيمان بعدله وحكمته: إنّ يوم السقوط قريب قريب.. وإنّ ساعة الحساب تتراءى لنا كما تتراءى الشمس من وراء حجب السحاب الرقيق، وما بين سطوعها وإحراقها إلّا لحظات مرور السحاب وانقشاعه، وإننا على يقين بالله جلّ وعلا، أنك تعيش في بؤس بئيس، وشقاء تعيس، لا ينافسك فيه إلّا من كان على شاكلتك من الطغاة المجرمين، وأنّك تتخبّط في ظلمات بعضها فوق بعض، وكلّ لحظة قادمة تحمل لك من البؤس والعذاب ما لا تتخيل.. وإنّ موتك أو حياتك، وإعدامك أو هربك سيّان أمام ما تعيشه من شقاء لا يمكن لبشر أن يطيقه! هذا إن بقي فيك ذرّة من كيان البشر أو مشاعر البشر...

وأنتم يا أعوان الطاغية وأزلامه، منكم القتل لنا، ومنّا سام الشهادة وشرف الدم.. منكم الخيانة للوطن شعبه وتاريخه، أرضه وسمائه، ومنا الإخلاص للحقّ وحمل الأمانة.. منكم التجييش الطائفي، وبثّ الحقد وإشعال الفتن، ومنا الحرص على وحدة الشعب، وحسن التعامل والتعايش.. منكم الكذاب والشبيح، والمخبر الخسيس، ومنا الطفل الشهيد، والمرأة المجاهدة، والثائر الحرّ، والمثقّف والأديب، والمعتقل المصابر.. معكم الظالمون المستبدّون، والمنافقون المطبّلون، أعداء الحقّ والحريّة، والوطن والإنسانية، بسلاحهم وقواتهم، وتشجيعهم

وتأييدهم، ومعنا الله جلّ جلاله، ومعنا قوى الحقّ والعدل، والحرية والكرامة، ومعنا أحرار جيشنا الأبطال، أهل الأمانة والشهامة، والعزّة والكرامة.. وإنّا لمنتصرون غالبون، بإذن الله العزيز الجبّار.. وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.. وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون..

* * * * *

منذ أربعة عقود، والنظام المتسلّط على سورية يعتمد سياسة العصابات، والمافيات القذرة في الاغتيالات للتعامل مع خصومه السياسيّين، والتخلّص من حلفائه الأقربين، والانتقام من شركائه، والإيقاع بين الفرقاء المختلفين..

وإنّ سجل الاغتيال السياسي الذي تورّطت به أجهزة القمع السورية هو الأكبر والأضخم مقارنة بأيّة دولة أخرى، ولم يقتصر الاغتيال السياسي على حدود سورية فقط، بل امتدّ إلى كل أنحاء العالم، من الكويت إلى لبنان، ومن مصر إلى ألمانيا..

إنّه لم يتورّع، ولن يتورّع حتّى عن اغتيال أقرب حلفائه وداعميه، والمتحالفين معه، أو أبنائهم، في سبيل مقايضة سياسيّة، أو إيصال رسالة متعدّدة الاتّجاهات، أو إحداث زوبعة يغطّي فيها على بعض جرائمه ومخازيه!

* * * * *

فهرس المحتويات

الرقم	الموضوع	الصفحة
١	روابط لتحميل الجزء الأول	٣
٢	مقدمة	٤
٣	في الإيمان والرقائق	٥
٤	بين الإسلام والإيمان والإحسان	٦
٥	الأخوّة في الله..	٦
٦	العقول أربعة	٧
٧	لمَاذا الفَرحُ بالعيد؟ وكيف نفهمُ العيدَ؟	٨
٨	بين الحجم المادِّي والحجم المعنويِّ	١٠
٩	لو استَقبَلتُ مِن أمري مَا استَدبَرتُ	١١
١٠	كلمة في الحُبِّ!	١٢
١١	بم يستظلّ الداعية؟	١٤
١٢	حياة الجذور!	١٥
١٣	مداخل الشيطان	١٦
١٤	علاقاتنا الأخويّة	١٧
١٥	بين الكلمة الطيِّبة والكلمة الخبيثة	١٧
١٦	بين التشاؤم المفرط، والأمل الخائب!	١٨
١٧	حِكَم خفيَّة، وأسرار عليَّة!	٢٠
١٨	ماذا يطفو على سطح النفس؟!	٢٢
١٩	خمس مهارات نبويّة؛ لا تحرم نفسك منها	٢٣
٢٠	رمضان شهر التغيير..	٢٤
٢١	رمضان شهر التربية على الكلمة الطيّبة	٢٥
٢٢	أعلى النموذج	٣٦
٢٣	رُؤية مَحاسِن الخلق	٤٠
٢٤	«أنا»	٤٢
٢٥	عَبَقُ الذكريات!	٤٣

٢٦	صَفَاءُ القلب من صَفَاء المعرفة	٤٦
٢٧	بين عمل القلب وعمل الجوارح	٥٢
٢٨	بين التلبية والتكبير	٥٤
٢٩	رسائل حكيمة عاجلة	٥٦
٣٠	ما هي الغثائية؟ وماذا تعني؟!	٥٦
٣١	الرشد هو الإيمان والهدى	٥٧
٣٢	رسائل عاجلة	٥٨
٣٣	الرَّحمةُ المهداةُ إلى العالمين	٦٠
٣٤	دستور الخالق لإصلاح الخلق	٦٣
٣٥	دواء البشرية..	٦٤
٣٦	مرض الروح!	٦٥
٣٧	حبُّ الرئاسة!	٦٥
٣٨	﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾	٦٦
٣٩	في الأخلاق والسلوك	٦٩
٤٠	ثلاث من أبواب السعادة	٦٩
٤١	لاءات ثلاث: تنظّم حياتك	٧٠
٤٢	بين العاقل الحكيم والجاهل السفيه!	٧١
٤٣	الحكمة والخبرة زملاء أوفياء..	٧٢
٤٤	﴿فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَة. وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَة﴾	٧٣
٤٥	﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾	٧٤
٤٦	لطائف ونفحات قرآنية	٧٦
٤٧	وقفة مع حقيقة التدبر	٧٦
٤٨	﴿وَللهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾	٧٨
٤٩	﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾	٧٩

٥٠	﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾	٧٩
٥١	﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾	٧٩
٥٢	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللهِ﴾	٨٠
٥٣	مشهد من مشاهد الآخرة..	٨٠
٥٤	الجدَل المذموم..	٨٢
٥٥	والوفاء له رجال!	٨٢
٥٦	درس في ساعة!	٨٤
٥٧	نصائح ذهبية في الحياة الزوجية	٨٦
٥٨	إضاءات في طريق السعادة الزوجية ١	٨٨
٥٩	إضاءات في طريق السعادة الزوجية ٢	٩٤
٦٠	بين حقّ الأبوين وحقّ الزوج	٩٧
٦١	﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾	٩٨
٦٢	التَّسرُّع بالطلاق..	١٠٢
٦٣	العلاقة الزوجيَّة أسمى العلاقات الإنسانيَّة وأرقاها..	١٠٣
٦٤	تحليل نفس المرأة!	١٠٥
٦٥	هل تريد أن تكون مُحِبّاً أم محبوباً؟!	١٠٦
٦٦	نظرة عابرة في تحليل الشخصيّة الآسرة	١٠٧
٦٧	رسالة الأسرة المُسلمة	١٠٨
٦٨	إضاءات تربوية	١١٠
٦٩	رؤية في التربية المتميّزة	١١٠
٧٠	التربية والتعليم رسالتنا	١١١
٧١	مشاعر الأمومة لا تباع ولا تشترى	١١٢
٧٢	في مراحل نمو الإنسان	١١٤
٧٣	طوبى لكل أم..	١١٦
٧٤	ذاكرة الأطفال غضة يقظة!	١١٨

٧٥	كيف يستفيد أطفالنا من رمضان؟	١٢٠
٧٦	لغة الأرقام تكشف الأخطار	١٢٢
٧٧	تشابك العلاقات الإنسانية وتداخلها	١٢٥
٧٨	أطفالنا في رمضان	١٢٦
٧٩	الفرد محور التربية ونقطة الدائرة	١٢٨
٨٠	بين (التربية المنهجية) والنظام المجتمعي	١٣٠
٨١	ضرب التأديب أم التعذيب؟!	١٣٢
٨٢	معالم في المنهج العلمي وأدب الخلاف	١٣٤
٨٣	الانتقاص من عِلْم السابقين!	١٣٤
٨٤	اختلاف أساليب أهل الحقّ في معالجة المواقف	١٣٦
٨٥	محافظة الأتباع على منهج المُؤسّسين للجماعات	١٣٦
٨٦	بين العقل والنقل	١٣٧
٨٧	محضن تربويّ	١٣٩
٨٨	شَيخُوخَةُ الرجال والهيئات والجماعات	١٤٠
٨٩	الحديث في خطبة الجمعة	١٤١
٩٠	معرفة العالِم بالواقع	١٤١
٩١	يتوزّع الناس بين أربعة اتّجاهات	١٤٢
٩٢	مطبّات علميّة وفكريّة	١٤٣
٩٣	جدل حول الشيخ فتحي الصافي!	١٤٣
٩٤	أهمُّ الأسباب لاختلاف الأئمَّة المجتهدين	١٤٦
٩٥	بَينَ القَدَر الكونيّ والقَدَر الشرعيّ	١٤٧
٩٦	فائدة في أصول الفقه، وفي تسلسل الكتب، والبحث عن تاريخ الأفكار	١٤٨
٩٧	السجال بين أصحاب الاتّجاهات العقديّة	١٤٩
٩٨	من فلسفة الجهاد في الإسلام	١٥٠
٩٩	لماذا لا نرى الله في الدنيا؟	١٥٢
١٠٠	ماذا تريد الأمة من علمائها؟	١٥٣

١٠١	التسوُّر على دين الله بالجهل	١٥٨
١٠٢	﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	١٥٩
١٠٣	الظاهريّة الحديثة!	١٦٠
١٠٤	الناس في العلوم النظريّة على ثلاث مراتب	١٦٣
١٠٥	سوانح عن طلب العلم: ﴿وَقُل رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾	١٦٤
١٠٦	تنوير البصائر للمسلم المعاصر	١٦٨
١٠٧	سرُّ نجاح المعلم	١٦٩
١٠٨	مِن فِقهِ الدعوة إلى الله	١٧١
١٠٩	أيّ جماعة دعويّة هي الأقرب إلى الصواب؟	١٧٣
١١٠	القيادة	١٧٧
١١١	رسائل عاجلة	١٧٧
١١٢	أمر الله الشرعيّ وقدره الكونيّ لا ينفكّان	١٧٨
١١٣	الأولويات..	١٨٠
١١٤	إذا لم يعترف المريض بمرضه..	١٨٦
١١٥	مرجعيّة عليا	١٨٩
١١٦	حبُّنا.. وحبهم	١٩٠
١١٧	ماذا يجب علينا لنصرة نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم؟!	١٩٣
١١٨	ما حقيقة هذه المعركة؟!	١٩٩
١١٩	﴿وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾	١٩٩
١٢٠	ما الحريّة التي نفتقدها ونريدها؟	٢٠٢
١٢١	ما هي الفتنة شرعاً؟	٢١١
١٢٢	بين الرخاء والبلاء	٢١٢
١٢٣	آيات الله في الزمن	٢١٥
١٢٤	درس من الهجرة النبويّة!	٢١٦
١٢٥	رسائل عاجلة	٢١٧
١٢٦	أنظمَة الظلم والطغيان	٢١٨

١٢٧	النيّة هي الحكم..	٢٢١
١٢٨	أصحاب البناء الهشّ..	٢٢٣
١٢٩	بأي كيل تكيلون؟!	٢٢٦
١٣٠	أيها المهاجرون، أخلصوا نيتكم لله، وأبشروا	٢٢٧
١٣١	فتوى عاجلة لا يختلف فيها اثنان	٢٣٠
١٣٢	يتملّك الحزن قلبي على ثلاثة	٢٣٠
١٣٣	نجاحات حماس في قضيّة شاليط	٢٣٦
١٣٤	مَعَ سُنَن الله في الأنفُس والآفاق: التعلّل بالمتآمرين في مواجهة التغيير	٢٣٩
١٣٥	ممّ تعجبون؟! وفيمَ تستنكروون؟!	٢٤٣
١٣٦	أزمة الأمة من أين تبدأ؟	٢٤٦
١٣٧	حصون الأمة بين الاختراق والتدمير	٢٤٨
١٣٨	حَيرة أهل الحلم في عَواصِف الفِتن	٢٥٠
١٣٩	الحقيقة المرة: نحن لا ننهزم.. ننتصر أو نموت!	٢٥٢
١٤٠	الثورة السورية تتحدى	٢٥٤
١٤١	ميثاق الحق والشرف للمجاهدين والعاملين في الميدان	٢٥٦
١٤٢	فهرس المحتويات	٢٦٣